
علاء حامد
مسافة
في
عقل رجل



مسافة في عقل رجل

علاء حامد



الاهـــداء

لكل من احبني واحببته ...

ما اتمنـــاه ان لا يتحـول هذا الحب الى غضــــب ! !

فما كتبتـــه ليس ســوى قصـــة امتـزج فيهـــا فيض

الخيـــال بنبض الفكـــر . . . .

عـــلاء حامـــد



تقـــديم

من انــا .... ؟ !

اسم فى توائم المنتظرين .. مســلم بالميراث .. لو ولدت من صلب ملحد لأصــبحت مثله .. فلا اختيار للانســـان فى مولده ولا فى دينه .. قد يكون ابوه من اســـافل القوم أو اعاليها وقد تكون امه عاهر او فاضـــله .. وقد يولد لأب مجوسى وأم هندوســـية .. أمور كلها لا اختيار له فيهـا .. تماما كالتصـاق الصـفـات الوراثية بالجنين والتى لا يد له فيها .. فالانسان لا يختار عقيدته وقت ولادته ليس لانعدام الاختيار لديه .. بل لانتقاصــه ذلك أنه فى لحظة ولادته لم تكن وســـائل الاختيار لديه قد اكتملت .. من ادراك ومعرفة وحتى بعد أن يصل الانسان لمرحلة الادراك والمعرفة والتمييز نادرا ما يفكر فى تغيير عقيدته ذلك لأنه حتى نكفل له مثل هذا الحق لابد أن تكون البدائل لديه مفهومة ومعروفة يستطيع من خلالها أن يوازن بين الأمور لينحاز فى النهاية لأى من العقائد .. وهذا نادرا ما يحدث .. ثم لماذا يغير الانسان عقيدته وقد فقد اهتمامه بالدين كمنهاج فى الحياة ؟ ..

ان الأديان بدأت تتقلص تقلصـــا سريعا عن كثير من البلدان حتى انه لم يعد يدين بالأديان ســـوى ثلث سكان العالم .. أى أن ثلثى سكان العالم حسب أحدث نظرية فقهية من النار مألهم جهنم خالدين فيها ابدا ! ..

وحتى فى مساحة الثلث الضيقة لم يتبق من الدين فى غالب الأحـــوال سوى ملء فراغ كلمة الديانة بالبطاقة او جواز السفر .. وهذا ما حدا بكثير من العقلانيين التساؤل عن جدوى الأديان .. خاصـــــة وقد سنت القوانين لحماية نواهى حرمتها الأديان ففى انجلترا نص قانون يبيح زواج الرجل من رجل .. بل ويكفل لهما الحقوق المترتبة على مثل هذا الزواج . وهو واحد من المعاصى التى أجمعت الأديان على تحريمها .. واباحة المعاشرة الرضائية بين رجل وامرأة بالغين والذى تعتبره الأديان زنا وفســـق وفجور وتعاقب

عليه بالقتل والرجم .. هذا الفســـق والفجــور تحميه الآن معظم الشرائع الوضعية .. بل وتحتضن فكرته كثير من المجتمعات دون أدنى حرج والفائدة احدى دعامات غالبية النظم الاقتصــــادية تعتبرها الأديان ربا وربا فاحش وما يقال عن الفائدة ينطبق على الخمور فدول كثيرة تعلو عمائرها بيوت الله تقيم مصانع لانتاج وتعبئة وتوزيع الخمور .. والمواخير البشرية والمواخير السياســـية ومعاقرة الفساد والانفســـاد والثراء الفاحش الذى يقابلة الفقر المدقع .. والظلم المقنن .. والســـفالات التى أصبحت ســـمة من ســـمات الشرقيين .. هذا ما يدفعنا للتساؤل .

ما جدوى الأديان وقد شـــدت الشرق الى أحضـــان التخلف .. بينما ارتفعت هامة شعوب لا تؤمن بالاديان لقمة الحضارة .. فهل يعنى ذلك أن الدين لم يعـــد منارا للحضـــارة وان غيـــابه لا يعنى بالضرورة انهيـــار الاخلاقيـــات .. ؟ !

هل يعنى ذلك انه يمكن الفصـــل بين الأخلاقيات والدين لذلك ونتيجة لهذا نرى شـــعوبا هجرت الاديان يتســـمون بالاخلاقيات .. وشعوبا تدمن الاديان بلا اخلاقيـــات .. وانقلب الحال فأصـــبح الدين ســـبة فى تواريخ الشـــعوب !! هل يعنى ذلك أنه يجب وضع الدين فى اطاره الصـــحيح وهو علاقة الانسان بربه فقط دون المعاملات الانسانية لأن الأديان لم تعد تصلح كمنهاج فى الحياة بعد ان حرمت فى كثير من نصوصهـا أحاسيس المجتمعات نبضـــها عندما قضـــت بتحريم ممارســـة الفنون من رسم ونحت وتمثيل ورقص وغناء وموسيقى .. نأخذ من أحكامها ما يتسق والعصر .. ونرفض ما يخلف ذلك حتى ولو ادى الأمر بنا أن نرفضها جميعا !!

كل هذا من خلال سؤال .. اذا كانت أحكام الاديان تصلح لكل مكان وزمان فلماذا احجمت معظم المجتمعات عن الأخذ بها .. هـــل لغباء المشرع وقلة درايته أم لحكمته وحنكته ؟! لذلك فعندما يلح المتشـــككون عن الجدوى الانسانيـــة لتلك الأديان .. عندما يلحون فى طلب الأجابة عن تساؤلهم .. ما جدوى الاديان وقد قننت كثير من البلدان المتعصبة لدينها قوانين وضعية

تخالف اســاس العقيدة ؟! .

مثل هذا الالحاح لا يسـعنا اهماله بل يجب التصـدى له فى محاولة عقلانية للحصول على اجابة مقنعة .. وهذا ما يجعلنا نتساءل ما هو الدين هل هو طريقة فى الحياة نؤمن بها ولا بديل فالبديل هوة سحيقة تهوى اليها الانسانيــة أم عــلاقة بين الانســان وربه تحكمها أعتبارات ذاتية فى اوربا أصــبح الدين مجرد علاقة خاصــة بين الانسان وربة .. تقلص الدين بعد معارك جدلية شرسة وانحسرت امواجة عن قواقع ميتة لا نسمع فيها سوى دقات اجراس الكنائس ايام الآحاد ولا نرى منها ســوى شرذمة من العجزة ترتادها تنصت لموعظة بلا اقتناع ولا اقتناع .. هناك فى هذه البلاد المتحضرة اصبحت الاديان مجرد علاقة خاصة جدا بين الانسان وربة .. هذا اذا كانت موجودة أصلا .. وبالتالى اصبحت مجرد اطار .. شكل .. كلمة تكتب فى البطاقة اما أسلوب الحياة فمنفصل تماما يحدده المجتمع من خلال اعتبارات اخرى يستوحيها من اسباب الحضارة .

اما فى البــلاد الشرقية فقد حــدث هرج ومرج .. خلط ومزج .. والمضــمون مبعثر .. هائم .. غامض يتعذر على العقول رؤيته من خــلال غبار معركة فرسان الوهم .. لكن ما أدمنه الناس خلط بين مذهبين أسلوب فى الحياة .. وعلاقة بين الانسان وربة ..

وبالنسبة لاسيادنا المعممين اخوان شــمهورش أصــبح للدين فى حد ذاته هدفا يجنون من ورائه ثمرات المال والشــهرة والســلطة ومتع الدنيا ما ظهر منها وما بطن .. من أجله يعفرون الجباه .. يلطمون الخــدود .. يشــقون الجيــوب .. بالقطع جيوب الفقراء !! وفى المقابل بلاد أخــرى لا تعرف حتى معنى كلمة الله . وهذا ما يدفعنا للتســاؤل هل الأديان شرعت من أجل الانسان .. أم ان الانسان خلق من أجل تطبيق شرائعها عليه .. بمعنى آخر هل فكرة الأديان سـابقة على وجــود الانســان .. أزلية .. أبدية .. ومن ثم فقد وجد الانسان لينفذها .. بحيث تصبح هذه الاديان

سبب خلقه أم ان وجود الانسان سابق حتى على فكرة الاديان .. صيغة سنها الله لتحقيق سعادة البشر .. بعبارة أخرى هل نحن خلقنا من أجل الدين أم ان الدين شرع من أجلنا .. بحيث يصبح الدين فى الحالة الأولى غاية ونحن الوسيلة .. وفى الثانية الدين وسيلتنا لتحقيق السعادة !! . يرتبط بهذا تساؤل آخر .. لماذا تعددت الاديان والرسالات .. اذا كان الدين سابقا على وجود الانسان .. فهل كانت له صيغة واحدة آلهية تناولها البشر بالتحريف والتغيير فوصلت الينا كما هى الآن .. أم أن تلك الرسالات ليست سوى صيغ بشرية آمن بها أصحابها ثم تداولوها بدعوى انها آلهية ؟! وبالتالى يصبح منطقيا اختلافها باختلاف الداعين لها .. وعلى هذا فتصبح صلة الرسل بالله صلة افتراضية لا تدعمها حقيقة ولا يسندها برهان .. بمعنى آخر هل الاديان بنيت على اعتقاد الرسل الصادق بوجود صلة بينهم وبين الله مباشرة من خلال بعض احداث مرت بهم .. قد تكون قد مرت على غيرهم دون أن يعطيها هذه الدلالة .. اعتقدوا من خلالها ان الله قد اختارهم لحمل الرسالة ؟ .

امور كثيرة اختلفت فيها الرسالات اختلافا بينا فى أسس العقيدة وفى الأحكام .. حتى انه يمكن القول أن كل رسالة تنهج نهجا مختلفا عن الأخرى وآخرون يشككون فى كل هذه الرسالات ..

من هنا يقفز الى الساحة سؤالا خطيرا .. أين هى الحقيقة ؟ واين هو الصواب ؟ وما هو الحق ؟ وما هو الباطل ؟! عقيدة ترتبط بفكرة الخلاص والزهد والتثليث والاخرى ترتبط بفكرة الجنة التى شغف الناس بالاستشهاد من أجلها والنار التى وقودها الناس والحجارة .. والتى سيطرت ملحمتها فى العصور المتقدمة على كل صغيرة وكبيرة فى حياة الناس وتعاملاتهم اليومية وانبثق منها اقتناعهم بالبعد من المعاصى .. وأصبحت المحور الرئيسى للمحظور والمباح .. ثم انحسر موجها بعد ان فقدت فلسفة الترغيب والترهيب والتى كان لها مفعول السحر فى تلك العصور المتقدمة . ذلك أنه اذا كان منطقيا ترغيب الأعرابى المتعطش للمال والجنس والطعام بالجنة التى تجرى من حولها وفوقها وتحتها الانهار !! بقطوفها الدانية

ونسائهـا حور العين وخمرها المعتقـة .. لم تعد تلك الأمور تهز وجدان الانسان العصرى .. أو تجتذب حتى الانســان العادى ليفعل الخير أو ينتهى عن الشر .. لم يعد كافيا لشحذ ايمانه الوعد بالجنة أو الاخافة من النار .. لأن تلك الجنة لم تعد تغريه ولا النار ترتعد منها فرائصه .. انما أصـبح الحديث عن أى منهما فى احدى دور العبادة .. ومضة برق سرعان ما تختفى وسط شواغل الانسـان اليومية ..

لم يعد هذا مقنعا فى عصر أصبح العقل فيه سيد الموقف لذلك لم يتبقى أمام اقناع الانسان سوى طريق واحد .. وعد فى جنة أرضية واقعية يقطف ثمارها وهو حى يرزق .. واحة سـلام يجد فيها متعه الحسـية والعقلية والعاطفية .. يعثر فيها على سـلام نفسه المفقود .. يجد ذاته من خـلال البحث المضنى .. يرمى بأثقال الحياة التى تقيد حركة عقله وفكره .. جنة يجد فيها الحب والمرح والسـعادة جنة لا يؤله فيها المادة بل تصـبح اداته لتحقيق امانيه .. عالم تتعايش فية كافة العقائد .. ترفرف عليها أعـلام المساواة .. من خلال هدف ملموس يحققه الأنسان .. لهذا لم يعد مقنعا ان نحرم فعل دون ان نسـوق أدلة تحريمه .. لم يعد كافيا ان تكـون حجة التحريم العبارة المأثورة « هـذه مشـيئة الله » لأنه حتى ولو كانت كذلك فلابد لها من تبرير مقنع والا وضعـ كأى اجتهاد شخصى ينقصـه الدليل فى جعبة الخرافات .. بئس المنافقـون .. بئس المخادعـون الذين يترنمون بشـكل الاديان دون جوهرها .. يتشدقون فقط دون كلمات الحق والعدل والمساواة نعقلها .. نسـجد لمعناها .. نتعبد فى محراب حروفها المتوهجة بالخير نطوف بعقولنا حول فلسـفتها النابعة من سراج المعرفة من خـلال الاختيار ..

لقد باتت اخلاقيات العصر عامة والشرق خاصـة فى حاجة الى مراجعة شاملة .. الى تقييم جديد يضع الأمور فى نصـابها .. نقوم بموجبه هـذا التقييم الى اعادة تبويب العلاقات الأنسانية .. الحرام والحلال .. الخطأ والصـواب .. تبويب يتأسس على علاقة الضرر .. لا على ما توارثناه من

تركة مثقلة بالتهويمات والخرافات والخزعبلات .. ننقيها من شوائبها .. ونمسح عنها صدئها ..

انني اتساءل ودعوني اتساءل لم وضـــع الانسان فى لغز احكم سره استحالت رموزه امام عقولنا القاصرة .. لا تستوعب منها سببا مقنعا لبدء الحياة .. كيف الأنسان ولماذ خلق .. وكيف خلق ؟ ؟

ثم ماذا نحن ؟ !

هل نحن صـــورة مهزوزة لعالم آخر .. صـــورة تليفزيونية أبطالها الحقيقيون يعيشون فى مكان آخر فى زمن آخر .. أم نحن نمثل أدوارا أرادها لنا مؤلف بارع يحرك الكاميرا لنظهر على الشاشـــة .. شاشـــة الحياة فى أدوار مرسومة صورا متعاقبة .. متوائمة متنافرة .. وبالتالى لسنا سوى مجمـــوعة من الممثلين منا الفقير .. والأمير .. والحقير والصـــعلوك .. وابن الزانيـــة نمثل الدور كما رســـم لنا فاذا خرجنا عن النص زعق المؤلف وضرب الأرض بقدمه فتزلزل الأرض ويخـــرج الجحيم من البراكين أو تنهمر الســـيول وتقـــوم القيـــامة أم أننا الحقيقة فى تجوالنا .. نقاشـــنا .. حركتنـــا .. عملنـــا .. تمثيلنا .. حبنـــا .. كرمنـــا .. حســـدنا .. سعادتنا .. نحن الحقيقة .. وما عدانا هو الوهم .. نحن الحقيقة .. والحقيقة نحن .. وطالما أن الله حقيقة .. فلسنا ســـوى الله الأمطار دموعه والريح زفرته .. والغضب براكينه .. والعلم عقله .. والانســـان وسيلته .. والسلطان رغبته .. والكون سلوته ..

واذا كان الله والانســـان واحد لا يتجزء .. فلماذا يعجز الأنســـان عن المعرفة الكلية .. ؟ !

لمـــاذا يتوالد الناس كالبهائم .. يحركهم الجنس يتقاطرون حـــوله كعسل الذباب فى رغبة محمومة متجددة .. لا يختلف فيها صعلوك أو أمير .. الكل عاريا أمام دوافعـــه الخفية ؟ !

لماذا يتعايش الناس وقد تغلغل المال وشـــهوة الســـلطة داخل سراديب

حياتهم تنبذ الابن ابية .. والأخ أخيه .. والأم وليدها ؟! ..

لماذا خلقنا أجنة .. فأطفال فشباب فكهول مثلنا مثل الحيوان والنبات والحشرات ينسج التطور قانونه المحكم على كل صغيرة فى حياة الأحياء .. مرحلة تلو مرحلة لتعود من جديد الى نفس المرحلة .. نقطة البداية ؟! ..

من أين جئنا والى أين ننتهى ؟! سؤال خالد من شقين جئنا من الفرج وقبله كنا فى الرحم .. حلنا كالسابقين واللاحقين .. حضانة تحتضن الحيوان المنوى حتى ينمو .. رحم مظلم .. ومنفذ الى حيث يخطو الى عالم أرحب .. ولكن أول الحلقة .. نقطة البداية فى سلسلة الحياة ..

ماذا كان الانسان .. كيف خلق ؟! لقد عجزت الأديان عن تفسير علمى مقنع لتلك الاسئلة الخالدة .. واذابت العقل الانسانى فى محلول حمضى مركز من الخرافات .. محولته الى ذرات هلامية قانونها الفوضى .. وحركتها العجز .. أين هى الحقيقة .. هل هى نسبية .. تختلف باختلاف عقل من يلمسها فهى وهم لدى البعض وحقيقة ثابتة لدى الآخرين ؟!

فى عصور سابقة كانت الخرافات حقائق يلمسها العقل .. ومازال الكثير منها لدى نفر غير قليل .. يقين .. ويقين .. ويقين ..

الحقيقة هى ما يلمسه العقل .. ولكن أى عقل ؟ عقل الأمس الذى يضرب فى أطناب الجهالة أم عقل العالم أم عقل الفيلسوف ام عقل الكاتب أين هى اذن وقد شوهتها النسبية ؟! ..

او ليس من حقنا ان نسأل ونحن نصعد للقمر ونحن نصهر الخرافات لنقذف بها فى بالوعات التاريخ القذرة .. ونحن نبحث ونستقصى .. ونحن نحمن العادات .. وقد تملكتنا رغبات محمومة فى المال .. فى المرأة .. فى السلطان .. أليس من حقنا أن نسأل عن الرسل .. ما هم .. ما هى هويتهم .

ثم لماذا الانسان يفكر .. عالم وكاتب .. يبحث عن الحقيقة ويستقصى .. يستخلص نتائج يكون نظريات يذهل المجتمعات باختراعاته

التي قد لا يفيد منها بقدر ما يفيد البشرية .. ومع ذلك فهو في الدرب يسير .. لا يوهن من عزيمته فقر مدقع .. ولا أرهاب فكرى .. ولا أربع جدران صماء .. ظلماء تحتوي جسده ..

لماذا يفرض على العقل محظورات للفكر .. لا يجوز ولا يجب الأقتراب منها بل يعتبر ملحدا ذلك الذي يفكر بصوت عال مسموعا كان أو مكتوبا .. مآله النار خلدا فيها ابدا .. مع ان الشك مرحلة من مراحل مخاض الوصول الى الحقيقة ..

لم يستكثر على الانسان أن يعلن شكوكه .. مع أن الشك رفيق كل مفكر وهو يفكر في ماضية وحاضره .. مستقبلة .. رفيق كل مبدع وهو يحاول أن يروى بذور ابداعه بالعلم والمعرفة ..

لماذا يقف كثير من الوعاظ .. يتقايئون النفايات .. احاديث عفى عليها الزمن سطور بلهاء من الكتب الصفراء .. عن الجن .. والعفاريت والأرض التي يحملها قرنى ثور .. والاكاذيب .. والخرافات .. كفاياكم .. كفاياكم فقد زهدنا الخزعبلات التي يشتم منها رائحة العفان .. ولا يرى الفكر من خلالها سوى القتامة والاظلام ..

الانسان الآن يريد بحثا جديدا يعتمد على أغلى ماقى رأسه .. العقل البشرى .. بحثا ينفض عن كاهله النزعات .. الأكاذيب .. بحثا جديدا يخطو بخطوات ثابتة على أرض العلم والمنطق يحرص فيه على الحقائق المجردة وسيلته في ذلك للنقاش الهادىء والمحاورة المثمرة التى انحسرت موجة مثالياتها عن وجه الشر القبيح ..

بحثا جديدا يفسر لنا ما استعصى على العقل فهمه .. حقيقة الجنة والنار .. البعث والقيامة .. الملائكة والشياطين .. الجن الازرق والاحمر !! بحثا يفسر لنا هذه الحياة .. سرها .. وسيلة الانسان ليحيا فيها محققا هدفه .. بحثا يضور لنا حقائق الحياة مجردة بحثا يضع الانسان

على أول الطريق بعد أن تاه وسـط زحام مشاغل الحيـاة اليومية بحثا يعد بجنة على الأرض لا فى السماء يقطف ثمارها الأنسان وهو حى يرزق ..

بحثا يترك لكل انســان عقيدته دون تدخـل من الدولة أو تعصـب من الأفــراد ..

بحثا يتعامل مع حقائق الحياة ويطوعها لخدمة الانســان ..

بحثا يضع الديانات فى مكانها الصحيح علاقة بين الانسان وربه .. والمعاملات علاقة بين أفراد المجتمع ..

انهـا محاولة منى لفهم الحقيقة .. التى عجزت عنها بفكرى المحدود استعنت فيها بمصبـاح غمرنى بضـوء معرفته .. وأخذ بيدى من بيداء الجهل الى واحة من المعرفة لا حـدود لها ظللت ارتشـف من نبعها ثمان سـنوات .. ثمان سـنوات وأنا عاكف أدون كتابى .. ثمان سنوات من القلـق .. والتردد والمعاناة والحـيرة .. والصراع مع النفس ومع فكـر الآخرين ..

ثمان سنوات سهرت فيها الليالى ارعى البذرة أرويها بالجهد والعرق والدموع واليقين .. حتى انبتت هذا النبت تلك الرواية التى اضـعها بين يدى القارىء ..

- ١ -

من أنـــا ؟!

افقت من غيبوبة خلتها دهرا .. حاولت النهــوض .. انكفأت .. ومن يحتــوى جســـدى ريقى جاف .. مرارة فى حلقى .. شـــعرى مغبر بالرمال .. امامى الارض شاسعة .. غريب أمر هذه الارض .. الحشائش الخضراء .. والاشــجار الباســقة والجــداول .. اين آنا .. حاولت أن اتذكر ..

بصـــيص من نــور يأتينى .. ثم يغيب فى كهف النســيان آخــر ماتذكرته .. تلك المركبة التى كنت استقلها لكن لماذا أنا هنا ؟!

شطة الحقيقة يطفئها المجهــول الجاثم أمام نافذة عقلى وأنا أســير بلا هــدى .. الناس ينظــرون الى باهمال .. بعــدم اكتراث .. عيونهم تستطلعنى .. يتهامسون .. همساتهم تعلق الغموض والشـــك واحدهم يتقدم نحوى .. انسان غريب .. جسده جســد ثور فى حلبة .. ضـــفائر شعره تصل الى ركبتيه .. ملامح وجهه جامدة .. لا غضب يكللها ولا بسمة تشرقها اقترب منى .. واجهنى .. مارايت ابشــع منه صــورة .. عينان كثقبى ابرة .. يظللهما حاجبان كثان .. فم كالمحيط اذنان مفرطحـــان .. اذنى فيــل .. ازداد اقترابا منى .. التصـــقنا .. بــدا يلمســـنى .. يتحسسنى كأنه يتحسس صدر عذراء ذعرت .. لحظات وانا احاول الابتعاد عنه .. الا أنه صفعنى بقسوة .. مادت بى الارض .. صــدمت وقبل أن استفيق من الصدمة مد يده مرحبا .. للحظات ظللت فى مكانى لا ابرحه .. مشــدوها .. فكرى فى موات .. اعجــز عن اجابة واحــدة لما خالجنى من اسئلة .. لماذا صــفعنى لماذا امتدت يده الى مصـــافحا .. لماذا اســتدار

مبتعدا عنى .. ثم ماهذه الكائنات الغريبــة الأخـرى التى تروح وتجىء امامى .. لماذا اتيت هنا ؟! ماهذا الرداء الغريب الممزق الذى يدثر جسدى ؟! كيف جئت الى هذا المكان ؟! وكيف العودة ؟! العودة الى ماذا ؟! من أين اتيت اسئلة باتت حائرة .. لا تجد اجابة شـافية .. اصابنى اليأس والاحباط وانا افكر ان اقضى حياتى مسجونا مع هذه المخلوقات البشـعة .. عقلى فى خـواء فكرى فى غيبوبة .. وانا احاول المرة تلو الأخـرى ان أذكر شـيئا واحـدا .. أعرف به ذلك المخلوق الهائم على وجهـه .. لا يدرى من أمر ماضيه شيئا .. ولا من غده .. ولا من حاضره .. من أنا ..

صرخت .. صرخة لم تخرج من حلقى .. ولكنها ايقظت الهوام .. احيت الموات .. جرس يدق .. ويدق تحمـل دقاته نذر الخطر .. ولكننى لا اسمع منها شيئا .. مجرد صدى .. صدى آت من أغوار محيط .. تموت ذبذباته فوق صفحة الامواج . من انا .. رددتها مرة واثنتين وثلاث .. وفى كل مرة تذوب الكلمات داخل طيات الهواء دون ان اسمع حتى صداها ..

واصلت مسـيرتى .. حل بى التعب .. ارحت جسـدى الكليل .. تحت شـجرة وارفه .. عامرة بالثمار .. مددت يدى الى احدى الثمار .. تقدم نحوى رجل قوى البنية . حاسم النبرات نهرنى :

ــ لا تقرب المعصــية

ســألته فى دهشــة :

ــ المعصية أن اطعم من جوع .

ــ بل المعصية أن تأكل من شجرة التفاح التى حرم الله على آدم .. الاقتراب منها .

ــ لكننى جائع .. وليس بعد الجوع شىء .

ــ أمام عينيك حديقــة عامرة بكل انــواع الفواكه .. اقتطف منها ما شـئت .

ــ وليس معى فلسا واحدا .. كيف ؟

ـــ بلا مقابل .

سألته فى دهشــــة :

ـــ قلت بلا مقابل .

حثنى بقـــوله :

ـــ اذهب قبل ان تغلق الحديقة ابوابها .

وقبل ان اخطو تجاه الحديقة ســـألنى :

ـــ لكن من أنت ؟

ترددت فى الافصـــاح .. فانا لا أعرف من انا .. لكننى أجبته :

ـــ زائـــر .

قال لى مترددا :

ـــ زائر للجنة .. يامرحبا .

للجنـــة .. اخيرا الجنة التى انكرها الملحدون .. والهمت الشــــعراء وشـــغف الانبياء بالحديث عنهـــا .. واقـــع تحت قدمى .. ادوس فـــوق ترابها .. انحنيت ملأت قبضة يدى بحفنة .. لم تكن سوى تبر ..

ايام وانا التحف السماء .. لا أعرف لنفس غاية ولا لبقائى سببا حتى رأيتها تسألنى فتاة فى ريعة الصبا .. يعانق صفحة وجهها اريج جمال فاتن « وما نهاية مطافك » تمعنتها .. قوة هائلة تجذبنى نحوها .. طاقة خفية تصلنى لأعماقها .. انتفضت زاعقة :

« ما بالك .. تخيفنى بنظراتك .. من انت » ؟ ؟

غمرتنى نشـــوة .. لقـــد اســـتطعت احتوائهـــا بطاقتى الهائلة .. تملكنى احســـاس بالقـــوة .. بالســــطوة .. للحظات قصـــار كانت الفتاة اشبة بحفنة من ماء لا تملك قدرها .. لكن ســـؤالهآ هز يقينى .. من انا .. طنين يدوى داخلى لا أعرف بدايته .. ولكن نهايته داخل عقلى .. اصـــوات غريبة .. متنافرة .. متباعـــدة .. حزمة ضـــوء تتدرق .. تتباعد .. تحدث دوى داخلى .. اشـــمة هائلة تحتوينى .. تضـــمنى اليها

لا ادرى كنهها .. كلمة الله .. صراخ الملائكة .. وسوسوة الشيطان ..
قوى خفية فى صراع .. تصـارع .. لست سوى حلبه لهذا الصراع
الهائل .. الاجابة عاجزة كسيحة لا تستطيع النهوض من عثرتها ..
صماء .. بكماء .. فأنا هذه لا اعرفها .. احسست بخدر وفصائل من
النمل المتوحش تزحف داخل عقلى المكدود تنهشه والصوت من جديد ..
قرعات جرس .. يحثنى يدفعنى الى الافصاح عما بداخلى .. لماذا الصمت
عن الحقيقة .. لماذا تخفيها .. الصوت سكين يقطع وينثر اشلائى ..
قل لها .. افصح عن حقيقتك .. فلست سوى هو ..

صراع هائل .. راسى تنفجر .. قوى خفية تضمنى اليها بقسوة ..
رحت فى شبه غيبوبة وصرخة الفتاة تصلنى .. صدى لصوت البركان
الذى يقذف بحممه داخلى ..

ـ الم بك مكروه .

قلت لها بحسم :

ـ دعينى وشأنى .

مستها كلماتى مس الجن .. لملمت نفسها اسرعت مبتعدة :

من أنا ؟! من هو هذا الانسان الذى يقطن جسدى .. لا يعرف ماضيه ..
يجهل مستقبله صحراء جرداء خلت من النبت والماء كم اريد ان انسى ..
انسى ماذا .. لا ادرى صفحة بيضاء تحيطها غيوم شكوكى .. مرهق
ساقاى كليلتان .. اريد ان ازعق .. افعل اى شىء .. يثبت وجودى ..
ينشلنى من الوحدة .. من الضياع .. الصوت يأتينى .. قويا .. أجراس
تطن فى أذنى ! ويضيع تساؤلى ..

ـ ولكن من انا ..

قهقهة غريبة .. ساخرة يعقبها صوت أغرب :

ـ قم يارجل .. لا يشغلنك من انت .

تملكتنى رعشة .. رعشات .. خيالات تعصف بى .. وأنا أضغط

واضغط على راسى اضمها بين ركبتى .. والضحكات تتوالى عقلى ينصهر فى بوتقة الشك .. خيالات .. أوهام ٠٠ ما اسمعه ضحكات ولكنها اشبه بمسامير محمية تنغرز فى عقلى .. تحوله الى شظايا .. رقائق يحتويها الألم .. للعذاب ٠٠ للصراع بين الحقيقة والوهم .. ماهذا الذى اسمعه هل حقا صوت الاله .. أم صرخات الشياطين .. اى شياطين .. وأى اله والصوت من جديد ٠٠ لا اعرف كنهه .. لا اميز نبراته .. ولكنه يأتينى من مغارة من جب ٠٠ من السماء ٠٠ من اعماق محيط :

ــ أنت الناس والناس أنت .

لحظات قاسية تمر بى .. لحظة انشقاق للفجر من الاظلام .. الوليد من الأرحام .. لحظة يتحول فيها الكون الى كتلة من الرماد يدفن فيه ملايين البشر .

ــ لا .. لا ٠٠ وهم ٠٠ وهم .

* * *

على جانب الطريق رأيت رجلاذليلايقيد نفسه بجذع شجرة .. اتجهت اليه .. فككت عنه الحبل .. عاد وقيد نفسه من جديد ٠٠ نظر الى شذرا .. وأنا أسأله :

ــ لماذا ؟ !

عدت أجول الطريق .. فتاة فى ريعان الصبا فى يدها مسمار حاد تغز به ثدياها .. تصرخ الما .. اقتربت منها ٠٠ حاولت منعها ٠٠ دفعتنى بقسوة ٠٠ صرخت :

ــ اغرب عنى ايها البشع .

هرولت بخطواتى الى الطريق احاول .. أن أجد اجابة لسؤالى الحاضر .. هل هذه هى الجنة .. سخرت من نفسى ٠٠ لمجرد ان عقلى طرح هذا الاحتمال ابتسمت .. لكن لماذا يطلقون عليها الجنة .. أية جنة تلك التى يقطنها مجموعة من المرضى .. يتناثرون كالأشياء .. لا هدف

نهضت من وقعتي .. ما فعله مناع كان صـــدمة لمشاعر الجمع .. لقد صفعهم .. ركلهم .. أشعل النار الكامنة تصف الأمل داخلهم ·· تشققت ارض الربوة بسيل من الكلمات المتشنجة الغاضبة :

ـــ يا ويلنا من غضبته .

ـــ اقتلـــوا هـــذا المرتد .

ـــ سامحنـــا يا الهى .

فرهود يلطمه .. عشرات الأيادى تمتد اليه موجات الســخط تعلو .. وتعلو .. فوقها الشاب يقاوم .. يستبسل ·· قشـــه تلطمها الأمواج ·· تتكسر عليها .. تتقاذفهـــا .. الشـــاب يتدحرج بين الأيادى ·· تتهشـــم ضـــلوعه .. أنهم يقتلـــوه .. ومن أجـــل من ؟! من أجلي انا ·· انا فاقد الهوية .. الانتماء .. دوت صرختى محذرة :

ـــ اتركوه .. انه عابث وليس بكافر . هدأت الانفاس .. تقلصـــت القبضات عن جسد الشـــاب .. كيف لكلماتي كل هذا الســـحر .. الشاب يحاول النهـــوض يتعثر .. ينكفأ .. يســـقط تحت قدمى ينهض من جديد يلطمنى يصرخ :

ـــ افاق .. كاذب .

قلت والذهول يحتوى الجمع :

ـــ الانتقام ليس من دالة السماء ملايين ينكرون الاله .. ماذا فعل لهم . آتونى بحمامة بيضـــاء .

الحمامة فى يد .. السكين فى اليد الأخرى جززت رقبتها .. ســـال الدم .. الناس فى حيرة من أمرى .. وأنا أقذف بالحمامة فى الهواء وأتمتم :

ـــ طيرى بأمر الاله .

اهازيج الخرافات تحملهـــا جنية البحر وهى تجلس عارية بجـــوار صخور الشط تأخذ معها الى مملكتها الخرافية تحت قاع البحر العميق حبيبها الذى ولهت به .. وبعد غيبة شهور يعود الحبيب الى الأرض وبرفقته أبنته

للساحرة التي انجبها من الجنية . الوحش الاسطوري الذي ينفث من فمه الشنيع الأحمر النار .. تحرق البنت الأخضر .. والشاطر حسن وهو يغرز سيفه السحري داخل نكيه فيرديه قتيلا .. تلك الأهازيج .. تدق دفوفها ترفع أعلامها .. والحمامة تسبح فى الفضاء . وصيحتي تسجد لها الهوام .. تنشدها الكائنات .. تترنم بها الرياح :

ـ ما ابصرتموه هو قدرة الاله .

والشاب من جديد :

ـ سحر ما تفعل .

كلماته .. مناقير أسراب من الطير البرى تنهش قلبى .. تدميه تحوله الى قطع متهرئة .. تحول نشوتي وانتصاري الى أحباط وانهزام

صرخت فيه بحدة :

ـ ساشطرك نصفين .

هلع . وخوف وفزع وانا اتجه الى الشاب .. احتويه بقدرتي .. جرذ امام قط .. يرتجف.. والناس ذهول .. وانا اهوى عليه بيدى .. رأسه ينفصل عن جسده .. الدم ينزف منه .. ينحنى امامى بالرأس المذبوح لتدمى يقبلها .. والصرخات تدوى فى الآفاق :

ـ الهنا اغفر لنا خطيئتنا .

لمست رأسه .. تمتمت :

ـ انهضي .. فقد عفونا عنك .

لقد نجا مناع .. كبر الناس .. هللوا « نعم ربى .. نعم ربى » .. امتلأ الوادى بصدى الكلمات .

الفؤاد هل ترى ما نحن عليه الآن .. انه من صـــنع الاله .. نما يقـدره يحـدث لنا .

ــ الاله لا يريد بكم سوءا .. انما السوء هو ما يصنعه البشر بكم .

فجأة انتصبت قامته .. وقف يرمقنى لفترة وجيزة .. اقترب منى ..

ربت على .. قال بهدوء :

ــ أنها الحقيقة ما قلت .. ماساء حالنا الا لسوء حال خاصتنا ..

دار حولى .. فرشنى بنظراته .. استطرد قائلا :

ــ لكن كيف لك بمعرفة ذلك ؟

فوجئت بسـؤاله .. فما قلته ليس بالحقيقة الغائبة عن العقل .. وليس بالسر الدفين .. ولا هو اكتشـاف يقف منه شـعر الراس هـولا ونزعا .. ابدا ومع هذا فقد لفنى الصمت بردائه لفترة وجيزة .. عجزت عن الاجابة والشاب يعاود بالحاح سؤالى :

ــ لم تجبنى .. كيف لك بهذه المعرفة لاتحاول الانكار .

أخذتنى لجنة الحيرة وأنا أجيبه :

ــ اننى لا أخفى شـيئا ..

قال ذلك .. وقفز قفزة هائلة ..

اقتفت عيناى أثره وهو يعـدو مبتعـدا عن المكان .. يذوب جسـده النحيل فى اللا نهائى رافقى ينظر الى فى استطلاع غريب وأنا اسألة :

ــ ماذا يعنى بقوله تلك ؟ من هو الذى أكونه ؟

ــ اتمزح يا مولاى .

ــ مـولاى !!

ــ لقد سبق أن وعدتنا .. وها أنت تنفذ وعدك .

قلت مدهوشـا :

ــ اننى لا أفهم شيئا مما تحدثنى عنه .

ــ انظر الى الكتاب المقدس الصفحة الحادية والستون بعد المائة

اعطانى الكتاب .. قلبت أوراقه .. قرأت :

« سيتجلى الاله للناس .. وسيكذبوه .. ويسألوه عما أصابهم من بلاء وسيجيب عليهم بأنه لا يريد بهم سوءا .. بل للبشر هم أس البلاء .. ومكمن الفساد .. عندئذ يبشرهم بالخير .. والبركات .. والعفو .. ويعدهم بجنة أخرى قطوفها دانية .. أكثر وأكثر من الأولى »

ـ وما معنى هذا ؟!

ـ اتيت الينا فى الوقت الذى وعدتنا فيه بالتجلى علينا .. قال ذلك ثم انحنى الى قدمى يقبلها .. وعقلى يصارع الشك .. من أنا .. ومن هؤلاء وماذا حدث .. وترنيمة هائلة يترنم بها قلبى والهاتف يأتينى ضاحكا .. نفس ضحكته المدوية العالية :

ـ الم أقل لك .. انت هم .. وهم انت .

ـ ٢ ـ

الطريق مغبر .. سحابة أتربة تعدو نحوى فى رشاقة وكثافة يتخللها سيقان وأقدام .. اقتربت السحابة .. انقشعت عن آلاف من البشر تحيطنى والشاب يصرخ :

ـ هذا هو .. هذا هو الهكم .. اله العرش . الناس تجرى .. تلف وتدور حولى .. تزغرد .. تهلل .. لكلمة الرجل وقع السحر .. انحنت الهامات .. طأطأت الرؤوس .. صلاة شكر غريبة .. يتخللها أغانى الترحاب .. لكن بلا فرحة بلا بسمة .. الناس حولى يتواثبون .. يتقاطرون .. يتكدسون .. الكل يرغب رؤية الاله ابتسمت رثاء .. سخرية .. لا أدرى والدهشة تعصرنى .. ما اراه لا يمكن تصديقه .. أغرب من الخيال .. الناس تتهافت على رؤيتى .. تتصارع من أجل الوصول الى .. الاقدام تدوس الاجساد .. الايادى تنتح فى الجدران البشرية طريقا لتنفذ منه الى .. المناكب تعصر بعضها .. تلتحم فى

قســوة .. ثم تبتعد فى عنف .. كل هذا من أجـل رؤيتى لمس اطرافى ..
تقبيل ملابسى كيف ولماذا .. الأسئلة تحاصرنى .. الصيحات ترتفع الى عنان
السماء .. « الأله .. الاله » ضاقت انفاسى .. دائرة البشر تضيق حولى
بروائحهم المنفره .. بعناقهم .. أنفاسى تتعثر .. ثوبى فى اياديهم شرائح
يتبركون بها اصبحت شبه عارى .. صحت فيهم :!

ــ ليس هكذا تفعلون بالهكم .

انشــطرت الدائرة .. انتشعت .. لفح كلماتى لسـمهم ابعدهم

جسد الاله الهزيل فوق الايادى والاعناق والاكتاف محمولا .. تنشــه
تحملها الأمواج المتلاطمة .. تزفنى الأغانى والالحان حتى قصر الاله ..

آلاف من البشر .. من القرى والنجــوع والأحراش والجبــال أتت
يتبركون بالاله .. يرقصـــون .. يشربون الخمر .. يعبثون .. وانا تائه
حزين .. فحتى الآن لم اعثر على اجابة لسؤالى .. « من انا » ابدا لست
هذا الاله الذى يتحدثون عنه .. فما أعيـه أنه ليس ببشر بل اله قوى ..
قوته فى غموضــه فى العجـز عن تحديد مكنــونه .. ولكن اذا لم اكن هــذا
الاله .. فمن انا .. ولماذا يقع اختيار القوم على دون غيرى ليصـــنعوا منى
الها . الاجابات عاجزة كسيحة .. لا أجد واحدا منها يقنع ذهنى المكدود ..
هل لأن الناس كانت فى حاجة الى منقذ وعثرت عليه فى اليوم الموعود ؟ هل
لأننى اتيت الى الناس فى اليوم الذى اعتقـدوا فيه بتجلى الاله لهم ؟! وهذا
السـفين الذى حط بى ثم غرق .. هل هو احدى الاجابات لا .. كل هــذه
دلائل .. وليســت اجابات .. انما الاجابة هنا امام هــذا القصر .. حيث
يهلل الناس .. الاجابة تكمن فى نفــوس هــؤلاء البشر الذين يســتحلبون
الحقيقة من الوهم .. فما هم ســوى مجموعة من المرضى أو الاغبياء ..
احدهم يصرخ :

ــ طال انتظارنا للقياك .

وآخر يصـــيح :

ـ كنا فى شـوق اليك .

وثالث يزعق :

ـ جئتنا قبل ان نفقد الامل فى الخلاص .

ورابع يتمتم :

ـ الهنا كم نحبـك .

وخامس .. وسادس .. وسابع .. مئات .. آلاف .. سـيمفونية حب رائعة مع مايسترو لا يفهم السلم الموسيقى ..

وسؤال يحاصرنى .. مع كل هذه الحفاوة وذلك الود .. لماذا الوجوه عابسة يعلوها الوجوم .. لماذا الابتسامة مفقودة .. غائبة ؟ !

استفقت من شردتى على صـوت متشـنج لرجل هش العـود .. قاس الملامح :

ـ نحمدك اللهم .. نحمدك ..

هزتنى الكلمـات كانى سـمعتها اكثر من مرة .. أين .. ومتـى لا أدرى .. تلوح من خـلال الطمس بارقة أمل ثم تخبو بسرعة البرق تحت غطاء النسـيان والرجل يتقدم .. يصرع السـياج البشرى يخطو نحوى .. يسجد تحت قدمى .. يعفر راسـه بالرمال .. يئن :

ـ سامح « فرهود » عبد ذليل .. ارتكب معصية .

قلت فى بلاهه :

ـ قم يارجل .. ليس هذا من شيمة الرجال .

رد فى اصرار :

ـ لن افارق مكانى هذا حتى تغفر لى .

اتسعت دائرة حيرتى لهذا الأمر الجديد .. فانا لا اعرف ماهى المعصية التى ارتكبها ..

لامست يدى راس الرجل تمتمت :

ـ أيتها النفس العاصية .. لقد عفونا عنك فاخلدى الى بارئك هادية مرضـية .

الرجل يرفع رأسه نحوى فى ابتهال يهمس :

ــ كيف لى ان أتأكد من عفوك يامولاى

ــ أنظر الى أعلى .. انها ام الخبائث بعد ان طردتها من بين جنبيك

شهق الرجل .. تزاحمت صرخات الدهشة والتعجب .. والأنظار تصافح الأفق البعيد لترى معصية الرجل بعد أن انخلعت من جنبيه وفارقته على هيئة سحابة داكنة يبتلعها الأفق البعيد .

اول اختبار لقدراتى .والهاتف يأتينى :

ــ لقد ملكت الدنيا فلا تبخل بها على الناس .

ــ كيف ؟ ؟

ــ الخلاص لهؤلاء البشر .

* * *

استيقظت .. الصباح يتلألأ .. استقامت قامتى .. ألقيت نظرة من خلال النافذة .. ماهذا ؟ طوفان غريب من البشر .. قطعان .. تحيط بالقصر تعصره يفترشون الأرض .. بأقدامهم .. بأجسادهم .. عناقيد من اللؤلؤ تحيط جيد الأرض الرمادى .. تملكنى نشوة الهيبة وعيناى تحتضن الربوة ومن عليها .. كل هؤلاء الناس ملكى .. يأتمرون بأمرى .. وينفذون رغباتى كل هذا لاله لا يعرف حقيقة نفسه .. هويته مفقودة .. هل أنا مخادع .. هل يمكن أن أخدع كل هؤلاء الناس .. بالزيف .. بالغش .. فى لحظة خطر لى خاطر سرعان ماصرعته .. ماذا لو اعترفت لهؤلاء الناس بحقيقتى .. ولكن ماهى حقيقتى ؟ .. زائر للجنة يجهل حقيقة نفسه .. لن يصدقنى أحد .. واذا صدقونى فالموت مصيرى .. لكن لماذا لا أكون هذا الاله وذلك الهاتف يأتينى .. يدفعنى للمضى فى طريقى لخلاص هؤلاء الناس .. من أى شىء .. لا ادرى ولكننى بالنسبة لهم الأمل .. البعث ..

أطللت بوجهي من الباب المـوارب .. سرت شرارة فى الجمـوع الحاشدة .. الطوفان يتحرك نحوى للجمـوع تتدفق .. تهرع ٠٠ تسبقها صيحاتها .. فتحت الباب .. وخلفت الى الخارج العيون تلثمنى٠٠ الحناجر تشدو بى .. ترقرقت دموعي وأنا اسأل :

ـ كل هذا الحب من أجلى

***

قوى غريبة تجتاحنى .. تشد من ازرى .. وانا أسير وسط الجموع الحاشدة .. ينتابنى الشـك .. فاغرق فى طوفان الوهم ٠٠ فمن أنا واين كنت قبل ان اضع قدماى فوق ارض الجنة .. لا أذكر .. لا اتذكر ٠٠ مجرد همهمات بلا معنى ولا مضـمون ٠٠ لا ادرى كنهها معالمها .. تاتى الى ثم تغرق فى الصمت أهيب لعقلى أن يفرزها .. أن يصـعد بها من الأعماق .. بلا جدوى ٠٠ لكن سرعان ماصرعت الشك وأنا اجول وسط امواج البشر .. صيحاتهم تشد من ازرى .. تقـوى من ارادتى يقينهم نصـل فى قلب ذلك الشك .. يرديه .. فجأة دوت صرخة ٠٠ خفقت داخلى خفقة مضرب البيض داخل سائل البيضة الهلامى :

ـ كيف تصدقون أن يكون الاله بشرا .

احتوى الصمت المكان .. ماتت الأغانى والأهازيج على أفواه البشر .. باتت أمامى الفرصة سانحة لأعترف بالحقيقة التى تضج بها نفسى .. لست هذا الاله ما أنا الا بشر مثلكم ..

لكن هذه الجمـوع التى كانت تبحث عن الخـلاص وعثرت عليه .. ماذنبهـا .. تبينت ملامح القائل المتمرد على الهه .. حدجت فيه بنظـرة قاسية وهو يخطو نحوى .. ضامر المنكبين .. مسترسـل الشعر ٠٠ تدلى من أحد أذنيه قرط ذهبى .. مشذب اللحية .. فوق قسمات وجهه صرامة فى ثناياها ذكاء وسخرية فطرية .

حشدت كل شجاعتى فى مواجهة الشك الخاطف وانا اجيبه بصـوت

هادىء متزن :

ـ ماذا قلت ؟

نظراتي تعصره .. تستدرجه وهو يرد فى هدوء غريب :

ـ لسـت الهنا .

الصمت يرتجف فى انتظار ولادة عسرة من شفتاى .. لحظات قصار وكأنها دهر . موقف يحتاج الحذر .. دهمنى خاطـر أن أصـارح الناس بحقيقتى لكن سرعان ما دفنت الخاطر فى مقبـرة سـؤال .. وما جـدوى ذلك ؟ .. فهـذا حال كثير من الناس يعتنقـون الخرافات .. يؤمنـون بالغيبيات .. يقاتلون من أجل الوهم أشرس من قتال الآخرين للوصـول للحقيقة .. فليكن هذا ايمانهم بأننى الاله .. أعصـار قوى يحتوينى .. يضمنى بشدة .. خلت أن أضلاعى تتهشم .. الهاتف من جديد :

ـ لا تتخاذل ..

منذ لحظات كنت مستعدا للاعتراف بأننى لست هذا الاله لكن تملكنى العناد .. حب البقاء .. الأصرار .. شهوة التحدى على التمساح أن يبتلع فريسته قبل أن تولى الأدبار .. سألته فى هدوء مريب :

ـ خبرنى من هو الاله ؟

أجابنى بنبرات حادة :

ـ قـل لنا أنت .

همهمت :

ـ آتونى بكلب .

فى لحظات كان الكلب ينبح بين يدى سألت الشاب من جديد :

ـ هل تسمع نباح الكلب ؟

ـ ما هـدفك ؟

ـ أريدك أن تحادثه .

ـ كيـف ؟

ـ بان تتحول لكلب حتى تفهمه .

ـ تقصد انك حللت فى انسان حتى نستطيع فهمك .

ـ شـاب ذكي .. لكنك عنيد لن يقنعك من القـول كلمة الحق ..
ولن تسلم من الأذى بكفرك

ـ تخـدع الناس بعذب الكلام .. وتحاول ان تلقى الرعب فى قلبى بتهديد اجوف مع انك لا تستطيع دفع مكروه عن نفسك . فى تلك اللحظـة تمنيت ان الطمه .. أسحقه الى ذرات صغيرة .. تمالكت نفسى .. مضغت ضيقى وأنا الملم اطراف الحديث :

ـ صـباح يارجـل .

ـ الصـابىء أنت .

صـاح فرمـود :

ـ ملاهك يامناع .. تنكر علينا الاله .

ـ بل انكر هذا الدعى .

صوتى يموج بالغضب :

ـ لقد طفح الكيل .

فى وقاحة غريبة تقـدم مناع نحـوى جذبنى من جلبابى .. مزقه .. دفعنى .. تعثرت .. تأرضت .. صاح زاعقا :

ـ كيف تصدقون أن يكون الاله مثلنا نصارعه فنصرعة .

فى تلك اللحظة .. سكنت الريح .. تحولت الى جماد سجنت داخلها الأبدان والعقول .. توقفت الحيـاة .. النبت والانسـان والحيوان .. لا حركة .. لا نبض .. قبر جماعى للمشـاعر والأحاسيس .. الغضـب يتفتت الى ذرات صـغيرة .. تعصـف بكل شىء والاله صريـع الايادى البشرية .. تطرحه أرضا تمزقه .. تخرق بهذا قانون امتزج بالعقل امتزاج الخلايا فى جسد واحد .

لهم .. ولا غاية .. تحركاتهم غريبــة .. يأكلــون .. ويشربــون .. ينامون .. يتعذبون يتحركون فى صــمت .. بلا غضــب .. ولا حزن .. ولا حتى ابتسامة .. يروحون ويجيئون فى خطـوات متشابهة مرسومة .. كأنهم مربوطون بخيوط خفية فى يد قديرة تحركهم كما تشاء .. تفرض عليهم ســلطانها وتدراتها .. وماهم الا اشــياء تملى عليهم الحركة والكلمة .. والفتة .. فجاة نشلنى من شردتى رجل أشبة بجدار .. برأس ضـفدعى ابله .. تدحرج نحوى وقف أمامى .. لطمنى بقسوة .. لم ادر الا ويدى أنا الآخر تنهش صدغه .. مد يده يصــافحنى .. يأخذنى لأحضــانه رائحته كريهه .. منفره .. وضع يده فوق كتفى حادثنى فى ود وهو يسحبنى :

ــ هلم معــى

ســألته فى دهشــة

ــ الى اين ؟

ــ لا تســألنى .. فقط اتبعنى .. عقب على ذلك بقوله :

ــ لكن من أنت ؟

ــ انا زائر للجنــة .

تبعته .. توقف أمام كومة من (تبر) الذهب

قال فى أسى :

ــ كل هذا الذهب ملكى .

ــ حقــا .

ــ وايضــا ليس ملكى .

ــ تســخر منى .

ــ بل هى الحقيقــة .. ماذا امتلكت الشىء دون ان تنتفع به فانت لا تملكه .

قال ذلك ثم بدأ فى نثر الرماد وهو يصرخ :

ــ هــذا هو نتيجة الحرمان .. عشت زاهــدا فى الدنيا على امل ان اســتمتع فى الآخرة بكل ما حرمت منه .. وكما ترى أمامى ذهب للعالم كله

لكن ما فائدته ..

استجلى عقلي بعض حقائق الأشياء وأنا أسأله :

ــ ولهذا السبب تعذب الفتاة نفسها .

ــ صدقت .. لقد حرمت نفسها من المتعة .

ــ والرجل الذى يقيد نفسه بالشجرة ؟

ــ انه يحبس نفسه عن الناس .

ــ لماذا ؟

ــ لقد اسهب فى وصف الجنة .. وغذى عقول الناس بالوهم والرخيص من الكلام حتى صدقوه لذلك فهو يحبس نفسه عن الناس حتى لا يضربوه بالنعال .

ــ بالنعال وأنتم لا تملكون احذية !!

قال لى وهو يشير الى شاب وقف على راسه :

ــ انظر اليه .. انه يعاقب نفسه

سألت الشاب المقلوب :

ــ لماذا ؟

أجابني وهو يهز رأسه يمينا ويسارا :

ــ ندما .

ــ وهل يوجد هنا ما يستحق الندم ؟

ــ ليس هنا .. بل فى الدنيا .. حرمت نفسى من البحث عن الحقيقة وانغمست فى طقوس الاديان اغترف منها ما ظهر وما بطن .. فبت كالهاموش الذى تقتله حرارة الضوء الساطع .

ــ لهذا فالحقيقة مقلوبة .. كما تفعل أنت الآن .

ــ لو خيرت بين الدنيا والجنة لاخترت الأولى .

ــ بكل مافيها من موبقات .

ــ أى موبقات تعنى .. انك ستجد فى الجنة مايذهب العقل ويوجع

- ٣ -

ســـأل مناع بصـــدق :

ــ لماذا انقذتنى يامولاى وقد انكرتك

ــ أنكرتنى ليصدقنى الناس .

ــ ما فعلته احدى المعجزات .

ــ الاله لا يأتى المعجـــزات يامنـــاع .. لان المعجزة تعنى حـــدثا يتجاوز القـــدرة ..

احتـــوى كلينا صمت مطبق .. تهفهف عليـــه أجنحة التساؤلات .. وفى اللحظة التى قررت سؤاله فجر مناع تساؤله فى هدوء غريب :

ــ من انت ياســـيدى ؟

تريثت قليلا قبل ان اجيبه :

ــ لماذا تسألنى وقد رأيت كل شىء ؟

ــ ساصارحك القـــول .

ــ تكلم يامنـــاع

ــ لقد رأى القـــوم الحمامة المذبوحة تطـــير فى الهواء .. والرأس الذبيح يعود الى الجسد ماعدا واحدا .

ــ مازلت على كفرك وعنادك يامناع .

ــ ما رآه الناس قد يكون خدّاع بصر يامولاى .

ــ الى متى تظل على عنادك .

ــ مولاى لا تسىء الظن بى .. فانا احبك واعتقد ان الخلاص سيكون على يديك فانا لم ار ملاكا .. ولا جنـــا .. ولا شـــيطانا ولم ار الها .. ولكنها مسلمات لدى .

ـ فليسـوف انت يامناع .

ـ الفلســفة شك يامولاى .. ومالدى هو اليقين .. من اليـوم أنا عبـدك .. تابعك .

ـ اخالك تبحث عن الحقيقة .

ـ هذا حالى يامولاى .. ظللت ابحث عنهـا وفى الوقت الذى تهيأت نفسى لاستقبالها .. فقدتها على يديك .. لكن ما يشغلنى حقا هو الناس

ـ مابال الناس يامناع .

ـ اريدهم بلا أوهام .

ـ كثيرا مايكون الوهم ستارا يحجب عن العقل هموم الحقيقة .

ـ وفى النهاية تصبح الحقيقة بهمومها أفضل من الوهم بسعادته .

ـ صـدقت يامناع .

ـ اثقلت عليك ياسـيدى .

ـ لنا فى الغد جولة تصـحبنى فيها الى دروب الجنـة .. أما الآن فأنا مرهق وأرغب فى قسط من الراحة .

نهض مناع ،قبل أن يخطو خارج الحجرة سألنى فى سخرية :

ـ وهل الآلهة تنام يامولاى ؟!

* * *

— ٤ —

هل هذه هى الجنة ؟ ؟ حدائق وارقة الظـلال تجرى من تحتها الانهار فوق أغصانها الثمار .. غابات تمرح فيها الظباء والغزلان .. تعشش فوق اغصانها الطيور والغربان .. فوق أرضها يتجول الانسان يقطف الثمار .. يقتل الحيوان .. يصنع من الفراء ملبسه .. ومن الجلد مسكنه .. ومن العظم خنجره ..

لماذا هى جنة ؟ ! هل لأن الانسـان فيها طليق يأكل مايشاء .. يحب من يرغب .. يصـاحب من النسـاء ما يريد .. كل ما يملكه الفـرد يملكه المجموع .. لا ملكية ولا اختصاص ..

لماذا هى جنة .. لأن البشر هنـاك يستمتعون بكل ما عندهم من نعم تفوق عن حاجتهم وتزيد أم لأنهم لا يخضعون لقانون سوى ما رسمه المجتمع من عادات وتقاليد .. ولكن اين العلم .. أين الحضارة .. أين المخترعات هؤلاء الناس يعيشـون فى عصـور الظلام والاظلام ظـلام الأفق واظلامة العقل .. معتقـدات بالية .. لقد بعثوا من جديد بعد موتهم .. وهذه هى جنتهم الموعـودة جنة عرضـها السـموات والارض .. لكن هل حقا ما يعتقدون .. بعثا بعد موت ؟! حياة أخرى بعد الحيـاة الأولى .. كثير منهم يتحدث عن حياته الأولى .. فمتى واين كانت تلك الحيـاة .. هل حقا تلك هى الجنـة .. أم أننى فى كوكب آخر مازال بعيدا عن ركب الحضـارة كوكب ماتت فيه كل الفيروسـات .. وأصـاب الناس فيه العقم .. كيف لهـؤلاء النـاس بالخلـود أنهم لا يعرفون المـوت .. ولا يصـابون بامراض .. هل يعيشون فى جو معقم خال من الفيروسات .. لماذا أتيت ..

هل لأكفر بالجنة التى أعدت للمتقين .. هل لأرى كم هى بأوصـافها بدائية متخلفـة .. وما سـبب هذا التخلف .. هل الخلـود يعنى الجمود ..
ثم لماذا لا يتناسلون .. هل فقدوا القدرة على الانجاب .. هل تم تعقيمهم..
غريب امر هؤلاء .. الطفل يبقى طفلا .. دون ان ينمو والشاب كما هو ..
والعجـوز لا يتحول هرما كيف .. ماذا يعنى ذلك ؟! هل دائرة الخلـود
لا تكتمل حلقتها الا باجتماع تلك الأمور كلها ؟ كانت هذه التساؤلات تصهرنى
وانا اتجـول فى دروب الجنـة .. حدائقهـا .. اكواخها .. اناسـها
حيواناتها .. يصحبنى مناع .. توقفت أمام كهف .. مناع يهمس :

ــ سترى هنا عجبا .. الانسان على طبيعته العذراء .

استربت وانا ارى شـابا عاريا يجـرى خلف امرأة عارية يحملها الى الداخل .. وهى تصرخ ..

قلت لمنـاع :

ــ انهـا تسـتنجد

أجابنى :

ــ يا مولاى .. يتمنعن وهن الراغبات .

خطوت داخل الكهف والذهول يحتوينى .. وصرختى تسبقنى :

ــ ما هـذا ؟

ــ أنها جنة اللذة الحسـية .

قلت غاضـبا :

ــ بل مستنقع الرذيلة .

ــ مولاى ماذا تقول .. أو ليس كل شىء مباح .. أو ليس هذا هو الوعد ان كل ماكان محرما من المتعة يصبح مباحا .

نسر يحط على قلبى ينهشه .. وانا أرى ما يذهب بالعقل .. ويوجع الفؤاد .. نساء يطئن نسله .. رجال يعتلون ولدانا .. نساء فى احضـان

رجال .. الجنس يمارس بلا خجل .. مومسات .. سألت مناع في دهشة :

ـ هل هذه هي الجنة .. الرذيلة في وضح النهار .. أخرجني من هنا قبل أن اتقيأ .

على باب كهف آخر توقف بي مناع .. امام مدخل الكهف رجل يرتدي قلنسوة حمراء ورداء أسود .. مناع يرد على تساؤلي :

ـ انه مبروك .. حامي حمى جنة المسكرات ..

مبروك يتقدم نحوي يعرض بضاعته .. أفيون .. حشيش .. خمور .. نحيته جانبا .. دلفت الى الداخل .. اجساد عشرات السكارى .. والمساطيل متناثرة في اركان الكهف .. وفي الوسط غازية عارية ترقص وحولها بعض السكارى يصفقون .. واحدهم يزعق :

ـ أرقصي لنا رقصة الاله .

انهم تائهون عن واقعهم .. حتى عن احلامهم . ضاعت الابتسامة منهم .. سألته اجابني :

ـ ولماذا يبتسمون يا مولاي ؟

حقا لماذا يبتسمون .. فالذي لا يعرف الألم لا يعرف معنى للابتسامة .. بل أنهم يحاولون صنع الألم .. ليعثروا على هذه الابتسامة دون جدوى .. أخرجني من شرودي وهو يقول لي بحماس .. « هيا يا مولاي »

ـ الى أين ؟

ـ الى صومعة العلم والعلماء .

* * *

— ٥ —

توقفت أمام الكوخ مذهولا .. لقد صـنع من الذهب والفضـة .. وبابه من الأبنوس .. وفوق سـارية المدخل علقت عناقيـد اللؤلؤ وتحتها عبارة « ادخلوها بسلام آمنين » .. خطـواتى بطيئـة وأنا ادلف داخـل الكوخ .. سرداب طويل تحفة اللاليء والتحف .. الأرض فرشت بالتبر .. السقف يتلألأ .. بريقه يخطف الأبصار .. تمتمت ساخرا :

ـ مرحى بالعلم والعلماء ! !

انتهينا الى بهو واسع .. بداخله مالاعين رأت ولا أذن سـمعت .. جداول من الماء رقراقه تجرى تحتها وفوقها ! ! قرود فى أقفاصـها ونسانيس فوق النار الموقدة تولول وتندب حظها .. طيـور تزقزق وأخرى تزعق فوق أسياخ الشواء .. التفاح الأحمر القانى والأزرق القانى .. والتين والزيتون الأصفر والأعناب الخضراء والصفراء والزرقاء !! غازية عذراء ترقص رقصة خليعـة .. بأردافها السـمينة .. وحولها فتيات صـغيرات لا يتجاوزن الخمس عشر ربيعا .. قلت فى أسى :

ـ ماذا أرى ؟

أجابنى منـاع :

ـ ما تراه صومعة العلماء يا مولاى .

ـ ومالهم يستأثرون بكل هذه النعم ؟

ـ أولياء نعمتك يدعون .. ويصـلون من اجلك .. ويسـيرون فى ركبك ويتعبدون فى محرابك .

ـ وأين قواريرهم ؟

ـ متخمه بالخمر يامولاى .

ـ وأبحاثهم ؟

ــ المتعة بحثهم وشاغلهم الشاغل .

ــ ومعاملهم ؟

ــ الذين معملهم يجرون فيه ابحاثهم ويصنعون فيه أفكارهم .

ــ تقصد بهؤلاء الدهماء وليس العلماء .

ــ خاصــتك يامولاى .

ــ ما يضايقنى حقا .. هــذا التفاح الذى حرموه على غــيرهم من البشر ويستأثرون به . فى تلك اللحظة انفتح باب البهو الكبير . علماء الدين الأفذاذ يخرجون الواحد تلو الآخر . . ومناع يشير الى رجل مربع يتمتم :

ــ أنه شــيخهم .

تبينت ملامحه . . لم يكن سوى فرهود . .

ما ان رآنى حتى خر ســاجدا . . تبعه . . خاصــته وهم يهللــون ويكبرون :

ــ حللت اهلا . . ونزلت سهلا .

فرهود ينهض يقول لى فى أدب جم :

ــ لقد وليناك يامولاى امرنا فمنــذ اليــوم أنت الهنا نطيــع أمرك وننفذ رغبتك .

سألته فى غيظ وأنا أشير الى خاصته :

ــ هذه الهوام ماذا تفعل ؟

ــ يقــراون كتبــك وينادون بتعاليمك حمــاة شريعتك . . كلمتهم نافذة وقضاؤهم لا يرد .

ــ ضــد من يافرهود ؟

ــ كل من تسول له نفسه التمرد على شريعتك الغراء .

ــ وبعــد ؟

ــ ماذا تعنى ببعد يامولاى ؟

ـ ماذا بعد القضـــاء الذى لا يرد ؟

ـ المصـــير المحتوم .

ـ اكمل فانا منصـــت اليك .

ـ النفى الى الأرض الملعونة نهاية مطاف التمرد والالحاد .

ـ اذن فقد خلت مملكتكم من العلماء والأدباء والفلاسفة والشعراء .

ـ آفة المجتمعات يامولاى .

ـ بل عصب المجتمعات يافرهود .

قال بدهشـــة :

ـ مولاى ماذا قلت ؟

ـ آفة المجتمعات هى تلك الحثالة التى جعلت من الدين ستارا تختفى خلفه كل الموبقات .. اغلقوا هذه المواخير .

كانت هذه آخر كلماتى قبل ان اترك المكان وانا فى قمة غضبى .

ـ ٦ ـ

ســـألت فرهود :

ـ ملجر يمتـــه ؟

اجابنى :

ـ الســـحر الاســـود .

ـ وكيف هو هذا السحر الاسود ؟

ـ انظر يامولاى .. هذا ماعثرنا عليه .

الشاب يترنح اعياء .. كلماته خفيضة :

ـ ما بيدى ليس سوى بوصلة يا مولاى .

ـ حقا أنها بوصلة .. فكوا قيوده .

بعد أن فكت قيوده علت صيحة عجوب :

ــ انها اللعنة يامولاى لو تمكن منا مثل هذا السحر الأسود .

قلت بأسى :

ــ اللعنة لأنه صنع بوصلة .

والشاب يعلق قائلا :

ــ انه مصير كل من يفكر فى اعمال عقله .

رد فرهود مدافعا :

ــ ولماذا أعمال العقل .. وكل شىء دان .

ــ دنو السراب من الظمآن .

ــ مولاى ان امتلاك هذا الشيطان لمثل هذا السحر الاسود .. واستئثاره به وعدم قدرة الآخرين لامتلاك مثله .. سيهدم نصوص دستورنا .. فلا ملكية ولا استئثار ولا اختصاص ولا تصارع .

رد الشاب معقبا :

ــ فلنصنع مئات مثلها .. آلاف .

ــ هل سمعت يامولاى .. أنه ينادى بالعمل .. يخرق السلام .. هدفنا .. والذى حققنا من خلاله السعادة .

رد الشاب قائلا :

ــ وما سبب ماتراه من تخلف وبدائية ؟

ــ اى بدائية واى تخلف ؟ لقد حققنا السعادة السرمدية بعد أن أصبح كل شىء فى متناول اليد الطعام والشراب والمرأة .

ــ هدف الجنة ليس المتعة الحسية .. بل الحضارة والتحضر .

صرخ فرهود :

ــ هل سمعت يامولاى .. أنه يريد العودة بنا الى الخلف آلاف السنين .. حيث تصارع الرأى والخلاف حول المبادىء والنزاعات السياسية والفوارق الاجتماعية وفى النهاية .. الصراع والأنانية وحب الذات والقلق .. والملكية المسمار الأخير فى نعش السلام .

قال الشاب فى ثقة لا تخلو من غرور :

ـ أنظر الى القوم ياmolای .. ديدان حقيرة تسعى فى الارض تنمو على روث البهائم ومخلفات الانسان .. فليأمر مولاى بعودة الفلاسفة والعلماء والادباء من الأرض الملعونة الى الناس يختلطون بهم .. يقيمون بينهم .. ولنكفل للجميع الحرية فى أعمال عقله .. فيكتب الأدباء ويتحدث الفلاسفة .. ويخترع العلماء .. لا حجر على الفكر والعقل .

نظر فرهود الى أعلى .. زعق بأعلى صوته :

ـ هذا يعنى العودة لقانون العمل .. للعذاب .

قال الشاب بجرأة ووقاحة :

ـ هل تعلم ماهى آفة المجتمعات يافرهود ؟

صمت قليلا .. ثم استطرد قائلا :

ـ انتم رجال الدين بعد ان حولتم المضمون الى شكل .. حولتم ارادة العمل الى طقوس وعبادات سقيمة .. حولتم العلم الى بخور .. واضحية .. وادعية .. وزيارات تدسية وابتهالات .. ودعوات .. وتشنجات .. وجن .. وشياطين المضمون اصبح مجرد صورة وضعت فى اطار مقدس يرهبه الجميع .. ويخشاه الكل يسجدون له وينشدون له الأهاريج يعتصرون منه الخرافات .

سألت فرهود فى دهشة :

ـ هؤلاء الذين يعذبون أنفسهم لماذا لم تمنعوهم ؟ .

ـ لأنهم لا يضرون غيرهم .

ـ اذن فلماذا نضع قيدا على حرية من يريد العمل . من يرغب تعذيب نفسه بالعمل فليفعل .

ـ أهل الجنة لا ينطبق عليهم شريعة الدنيا .. هكذا علمتنا .

ـ وهذه اليوم شريعتى .

ـ تنسخ أذن شريعتك يامولاى .

ـ اخالك فهمت ما قلته .

ـ ثورة في أذن ما تنادي به .. فقد تعود الانسان الكسل لا يتحرك الا بمقدار حاجته للطعام فكيف تلزمه بالعمل ؟

ـ العمل اليوم حق وغدا واجب .

ـ ولكن يامولاي من يعمل يملك .

قلت مؤكـــدا :

ـ ومن لا يعمل لا يملك .

بعدها رأيت الشاب يقفز كمجنون في دروب الجنة وهو يصرخ :

ـ اليقظة .. اليقظة .

فرهود يرمقني بعينيان ثاقبتان .. يعلن غضبته في كلمات قليلة :

ـ لن يرضى قرارك هذا خاصتك يامولاى .

ـ ٧ ـ

صـــحوت على أصــــوات تهدر .. رجال ونســـاء وأطفال يطوفون البيت .. يصرخون بهســـتيريا .. دحروج .. والدحـل .. وســـليم .. وفرهود وسليط وبسـطاوى .. ائمة الدين يتزعمون ثورة الغضب .. خلفهم الأتباع يصرخون يولولون .. الغريب انني لم أر دمعة واحدة مجرد صرخات احتجاج .. يشعل نارها رجال الدين :

ـ نريد الاله .. نريد الاله .

مناع يقتحم على خلوتي وهو يرتجف .. نبرات صوته كلها تحذير :

ـ لا تخرج اليهم يامولاى .

ابتسمت لا أدرى سخرية .. أم شـــفقة على هؤلاء الناس .. ماذا يريدون .. لقد اغواهم رجـــال الدين ليتمردوا علي .. لم انس نظـــرات فرهود .. ولا كلماته لي .. انهـــا بداية صراع بيني وبين هؤلاء المتخمين المترفين .. مناع من جديد يحذرني وأنا اخطو للخارج يحاول أن يمنعني :

ـ دعهم سأتكفل بهم يامولاى

قلت بثقـة :

ــ لن تمر دقائق الا وينصرفوا .

وقت الشـدة والازمات كان الطيف يأتيني .. يشـد من أزرى .. يأسى آلامي .. يحمـل عنى همـومي .. ينصـحني .. لكنـه اللحظـة بعيد عني . منذ ليالي وانا أترقبـه .. بلا جـدوى .. كم انا فى حاجـة اليـه يلهمني الـرأى الصـائب .. ماذا أنا فاعل بهـؤلاء القـوم .. مر الوقت لكن دون جـدوى .. الهياج يشـتد .. والصرخات تعلـو .. نحيت متاع جانبا .. أخذت طريقـا نحو القـوم .. مور رؤيتي .. حل الصمت .. الوجوم الا من بعض همهمات .. همسـات متفرقة .. طأطأت الرؤوس وأنا اقترب من زعيمهم فرهـود .. واجهنى بسـحنته القذرة .. وجسده الفارع وصوته القمىء :

ــ لا نريد غير جنتنا بديلا .

اقتربت أكثر حتى كدت أن الامسـه والأصـوات خلفـه مبعثرة .. مؤكده .. مؤيده . فى اللحظـة التى خايلتنى فيها الأفكار للتخلص من هـذا المأزق .. احتـوتنى قوة خارقة .. أنـه الهاتف من جـديد .. يأتينى .. يضـمنى .. ارتفعت نبضـات قلبى .. غلى الدم فى رأسى .. انتفضت عروقى .. وماذا بعـد .. أننى املك اقـدارهم اقتربت من فرهـود .. لمسته .. خلت أننى صعقته ارتعد .. ابتعد .. وهو يتمتم :

ــ لن تستطيع معى شيئا .

التقطت فرع شجرة .. انحنيت الى الأرض خططت عليها سألت فرهود

ــ ماذا ترى ؟

أجابنى بعدم اكتراث :

ــ رسم قرد لا يعنينى فى شيء .

قلت فى ثقـة :

ــ انظروا ياقـوم .

تواكبت الانظار .. ضاقت الدائرة مصمصت الشفاة وأنا استطرد قائلا :

ـ هذا مصير من يعصى أوامرى .

اجابني فرهود فى سخرية لاذعة :

ـ هيا اسخطني لقرد ثم اشونى على النار اكلا شهيا .

حل الصمت .. الجمع في مخاض الحقيقة .. كيف يتحول فرهود لقرد للحظة تراجع أمامى وأنا الفه بنظراتى .. يستجمع شتات ارادته التى بعثرتها يحاول الافلات منى وهو يشق بيديه الدائرة البشرية .. جذبته من خصلة شعره قلت :

ـ هنا مكانك لا تبرحه حتى يأتى أمرنا .

الصمت مطبق .. الهمسات يذبحها الفضول .. الخوف .. الرعب وفرهود يخر ساجدا يطلب العفو يستجدى :

ـ لا تفعل .. لا تفعل يامولاى .

صحت فى نشوة :

ـ خذوا هذا القرد واشووه فوق النار .

الذعر يكتسح الجمع يذهب بعقولهم وهم يشاهدون فرهود يزحف نحوى وقد تحول لقرد يبتهل يقبل قدمى .. مستجديا المغفرة وقبل أن أخطو مبتعدا عن المكان حذرته قائلا :

ـ عفونا عنك ولتكن هذه هي المرة الأولى والأخيرة فى سلسلة عصيانك

***

سـألني مناع باستحياء :

ـ مولاى الا يزعجك أن أسألك .

ـ افصح ما بصـدرك يامناع .

ـ لقد رأى القوم فرهود أثنـاء التحول من انسـان لقرد ثم من قرد لانسـان .

قاطعته ساخرة :

ـ ما عداك انت يامناع !

ـ بالعكس يامولاى .. فقد رأت عيناى مالايمكن أن يصدقه بشر .. لكن سؤالى .. لماذا عجزت عن رؤية الحملة المذبوحة .. وراسى المشطورة

ـ لقد ذاب الشك من داخلك الى يقين .

ـ مولاى سـألتك مرة من أنت ولم تجبنى لك قـدرة الاله ومع ذلك مانت تحمل صفات البشر .. تأكل وتشرب وتغضب وتضـحك وتتألم .. من أنت ؟

ـ أنا الناس .. والناس أنا .

ـ ولكن الناس لا يأتون معجزاتك .

حاورتنى فكرة طريفة سألت مناع بعدها :

ـ مناع .. هلا ابتسمت ؟

ـ كيف يامولاى .. وهى احدى صفات الاله .

همست له :

ـ لو عرفت معنى العـذاب .

ـ كيف يامولاى ؟

ـ بان تصبح مثلى تحس للناس وتنفذ الى مشاعرهم .

امتطينا راحلتين .. رحلة طويلة نجوب فيها ارجاء الجنة الفسيحة ..

ســألت منــاع :

ـ اين تنتهي ؟

ـ عرضــها السموات والأرض يامولاى .

ابتسمت .. سألنى مناع فى دهشة :

ـ مولاى يبتســم .

قلت ســاخرا :

ـ اذا كان هذا عرضها فما طولها ؟

ـ هذا علمك اللدنى .

البغال تسير فى طريق صــخرى ضيق .. فوق خور عميق .. الطبيعة فى احضانه ساجدة .. الأشجار تنمو على جدران الخور بميل حاد .. يخيل للرائى انها ستسقط فى اعماق الخور عندما تعانقها نســمة هواء .. ولكن ضفائرها الخضراء تتأرجح فوق صدر الجبل الناهد .. كم هى خلابة تلك الطبيعة .. الصــباح مندى برائحة الازهار .. القمــة مرتفعة .. اقتربنا منها .. مناع خلفى صامت .. لا أدرى ماذا دهاه فى الأيام الأخيرة .. علت وجهه الكآبة . اعتراه الحزن :

ـ ماذا بــك ؟

ـ أمور كثيرة تضج بها نفسى .

ـ تكلم يامنــاع .

ـ مولاى .. تحمل صفات الآلهه وفيك عجز البشر .

ـ عدت من جديد لنفس الدائرة المفرغة .

ـ مولاى أننى احمل هما لا يطيق حمله رواسى الجبال .

ـ أفصح عما بقلبك .

ـــ تملك القـــوة .. والقدرة .. والاعجاز لكنك لا تستطيع أن تعرف مكنـــون نفسى .

ـــ وهـــذا ما يقلقك .

ـــ بل ما يقلقنى هو عجزك عن معرفة السر الأعظم .

ـــ ويحك بدأت تكفر بى .

ـــ بل هى تساؤلات .

ـــ حدثنى اذن عن هذا السر الأعظم .

ـــ من يملكه فقد ملك القوة والسلطان .

ـــ أنا منصـــت لك .

فى تلك اللحظة دهمتنا صرخة .. صرخات .. خلف الغبار المثار .. ثلاث رجال .. احاطونا كالســـوار شـــدوا وثاقنا حملونا الى مغارة عميقة فى بطن الجبل التساؤلات تصهرنى .. وسيد العصبة يواجهنى :

ـــ انت اذن الاله .

لم ارد عليه .. قهقه ســـاخرا :

ـــ الا تمسخنا لقرود .

العصبة تتضاحك وكئوس العرقى تعبها افواههم الشرهه الكريهه .. امسك الرجل ببعض شعيرات لحيتى .. صرخ مناع :

ـــ أبعد يدك القذرة عنه يا شهبور .

أن مناع يعرفه .. يناديه باسمه !! لم يأبه شهبور اقتلع الشعيرات من لحيتى .. أرسلها الى النار .

قهقـــه من جديد :

ـــ بخور تتبرك برائحتها الكريهه .

ومناع يصرخ من جديد :

ـــ ليس مولاى بغيتك .

تقدم الرجل نحوى .. داس أصابع يدى فى قســـوة وعنف .. احالها الى كتلة من اللحم والدماء ندت عنى صرخة ..،تمتم :

ــ تولول كالنســاء .

مناع يتوسل :

ــ دعه ياشهبور .. اللعنة آتية .

ــ ليس قبل ان تسر لى .

مناع من جديد فى أسى :

ــ اللعنة من جديد .. ياحسرتاه .

ــ سترى بمن تحل اللعنة نحن أم انت وهذا المعتوه .

قال ذلك ثم امسك بكوب من العرقى .. قربه من شفتى .. اطبقت فكى .. ضغط عليهما بقبضة من حديد .. انفتحا .. صب فى حلقى السائل البنى الغامق .. انتابنى سعال هائل .. اعقبها بكلماته وضحكة عربيدة :

ــ اشرب حتى تنسى ما ينتظرك .

يد شهبور تمزق جلبابى صوته يتردد فى جنبات المغارة :

ــ لحم ابيض كلحم النساء .

امسك بالسوط .. رفعه فى الهواء صرخ مناع :

ــ اتركه ياشهبور .. ساتكلم .

صرخت أنا الآخر محذرا :

ــ اصمت فحديثك يحمل نذر الموت لنا .

صمت مناع .. اشاح بوجهه عنى .. وشهبور يلهب ظهرى بسوطه المرة تلو الأخرى .. فى تلك اللحظة احتوتنى قوى خارقة وأنا أتلقى الضربات .. لقد استطعت تطويع جسدى . حولت الالم الى طاقة من الارادة . لم أعد اشعر بشئ .. لقد فقدت الاحساس بالألم بالزمان .. بالمكان .. البسمة لا تفارق شفتى .. أحدهم يهمس :

ــ كفى ياشهبور فالرجل فى عداد الأموات ..

فى تلك اللحظات وشهبور ينهال على بسوطه فاضت على الرؤى .. نبع فاض على شطيه فاغرق كل ماحوله .. انه يغرقنى أنا الآخر .. جسدى

يتزحلق .. أغوص فى اللا نهائى .. تحوم حـولى الذكريات .. انتزعهـا انتزاعا .. أطـوف بها أرجاء الكـون .. صرخة تهب فزعة منى وانا ارى الرجال يبحثون عنى .. يضلون طريقهم :

ــ لا تخطئوا الطريق .

تردد شهبور .. أمسك عن ضربى . فى يده قنينة العرقى .. تقـدم نحـوى .. افرغها على جسـدى .. سـياط من النار تلهب جروحى .. ترنحت من هول الألم الذى عاودنى .. أحدهم يهمس :

ــ عاد يجز على أسنانه .

بعدها رحت فى غيبوبة .. استيقظت منها وجسدى كله ينبح بالألم .. شهبور نائم يشخر بجواره اثنان من عصـبته .. منـاع مسـتلقى على الأرض .. جزوا لحيته .. وحلقـوا شـاربه .. واحـدى حاجبية .. ابتسمت بمرارة .. غاضت الابتسامة وانا ارى آثار التعذيب .. جرح قطعى عميق فوق جبهته .. آثار كدمات على رقبته . أستيقظ شهبور .. لكز مناع بقدمه .. قهقه وهو يقفز حوله :

ــ العفريت .. العفريت ! !

أخذت ملامح وجهه سمات الجد وهو يسأله :

ــ أين الأيتـونة ؟

خضـت فى بحر التسـاؤلات وهو يدوس رقبته بقدمه المفرطحة .. يسأله من جديد :

ــ أين هى .. تكلم .

الصـمت مطبق .. فم منـاع مطبـق .. خيط باصراره برفضـه شهبور يصرخ :

ــ سأذيب هذا الاصرار يامنجى .. أخلع عن الرجل ثيابة بدأ منجى فى خلع ثيابى .. لم يتبق سوى سروالى .. قال شهبور :

ــ كل ثيابه .. أريده كما ولدته أمه .

يستطرد وبعدها قائلا :

ــ هيا يامنجى .. امامك لحم أبيض قد يغنيك عن طفـل تطاه بعد

طـول حـرمان .

في تلك اللحظة وانا ابصر منجي قادما نحوى عاريا .. منتصـبا .. وسؤالى الحاضر تلهث به نفسى .. لم كل هذه القسوة .. الامتهان ؟!

في تلك اللحظـة تقلصـت معدتي .. تعثرت أنفاسى .. تقليثت وهو يقترب منى يلمس بيده عجزى العارى .. مناع يزعق :

ـ أتركوا مـولاى .

ـ ١٠ ـ

تهت داخل زوبعة من الانتقام .. تمنيت في تلك اللحظة أن تنفك يداى من قيدهما .. لاطوق بهما عنق هذا الشهبور حتى الموت .. زهوة الانتصار تتخايل على كلمات شهبور :

ـ دعه يا منجي ودارى جسده فلم تكن تجنى سوى السراب .

القوة الخفية تتاهب نصالها .. باتت على مشارف نفسى .. العرق يتفصد من جبيني .. استشعر بها .. تضمنى اليها .. احس بلهثة انفاسها بصـهد حرارة أنصـهارها امتزاجهـا بنفس .. بكيانى .. خيالى يتدفق للمجهـول يحطم مزلاج بابه . يخلـع على الواقـع بردة الامان .. أنهم قادمون لانقاذى أنهم يسرعـون .. يسـتحثون دوابهم دليلهم يقتص أثرنا وصرختى تهب فزعة :

ـ هيا .. فقد ضاقت بنا وضقنا بهم .

شهبور يتمتم سـاخرا :

ـ بدأ الرجل يخرف .

وفي اللحظة التي تهيأ فيها مناع لافشـاء السر اقتحم المكان واحد من العصبة نبرات صوته حادة :

ـ انهم آتـون .

شـهبور يسـأله :

ـ من تقصد بحديثك ؟

ـ لا ادرى .. اثنان .. ثلاثة .. اربعة .. او اكثر فى مدخل المغارة شاهرين اسلحتهم .

وجم شهبور .. انتابت مناع هستيريا . فرحه غامرة .. توالت صرخاته :

ـ فك قيدنا يامعين .. لقد ناداهم مولاك ولبوا النداء .

معين متردد .. وصوت مناع يحثه قائلا :

ـ أطلب منه المغفرة قبل فوات الأوان هيا يامعين .

معين يتقدم نحوى .. سوط شهبور يلهبه يتراجع .. يحاول ان يهز عقيدة معين بكلماته :

ـ مخبولان انضم اليهما مخبول آخر هيا لنخرج من هذا الكهف ..

وفى اللحظة التى تهيأ للخروج استل معين خنجرا .. غرزه فى ظهره شهبور يترنح .. وقبل ان تحتويه غفوة الموت تمتم :

ـ خائن .. خائن .

* * *

معين يفك وثاقى .. منجى يجثو فوق قدمى يتمتم :

ـ المغفرة يامولاى .. المغفرة .

فى تلك اللحظة دهمتنى رغبة عنيفة فى الانتقام من هذا الخنزير المترهل .. تمنيت لو أقبض بكلتا يدى على رقبته حتى يتدلى لسانه .. اطاه كما حاول معى منذ الوجيزة داهمتنى تلك الرغبة المجنونة ومناع يسألنى وهو يقبض بيده خنجرا .. لامس نصله رقبة منجى :

ـ آمرنى يامولاى أجز رقبته كالشاة .

كيف تعلق حياة انسان على اشارة .. كلمة .. بضع حروف يصبح بعدها « منجى » عدما هكذا وبدون محاكمة .. الخصم هو القاضى هو الجلاد .. أى نوع من العدالة هذا .. اختلطت على الأمور تشابكت ..

العدالة والظلم .. القوة وشهوة الانتقام .. منذ لحظات كان شهبور فى موقع القوة .. وكانت له عدالته الخاصة من اجل الحصــول على الأيقونه ومنطق عدالته كان يقضي بالمــوت على كل من يعترض طريقــه نحو هدفه .. عدالة ارتضاها هو وأعوانه .. انموذج من عدالة كثير من الحكام مع شعوبهم .. لايهم سوى الغاية .. وللوصول اليها تضيع رقاب وتقطع ألسنة .. وتخمد انفاس .. ويبقى الحاكم بجحافل ظلمه أمام رياح الغضــب صــامدا .. سنوات .. سنوات وهو يبهر شعبه الى أن تهب رياح الثورة فتذرو الرمال وتقتلع اشجار الســخط والظلم والاظلام وتتهدم عمائر الفساد والافساد .. وبعد أن تهدأ رياح الغضــب نشيــتم مكان الجثث المتعفنة رائحة الياســمين والأمل .. تهت فى دوامة تساؤلى .. هل يمكن أن تكون عدالتى الخاصة مثل عدالة شــهبور .. مثل عدالة هؤلاء الحكام .. جالت تلك الخــواطر على ذاكرتى وأنا أدفع منجى بقدمى :

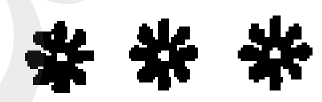
ـ اذهب فأنت طليق .

بعدها ســألت مناع :

ـ أنظر من كان القادم الينا .

واحتوتنى الدهشة ومناع يعود الى بخفى حنين يقول لى :

ـ لا أحد يامولاى .. لا أحد .



أثناء مسـيرتنا سألت مناع :

ــ لم تحدثنى عن السر الاعظم .

اجابنـى فى تردد :

ــ انها الايقونة يامولاى .

ــ وماذا بهـا .

ــ تحمل سر الحياة فوق الجنة التى نعيش على أرضها .

ــ حدثنى منهـا .

ــ لا استطيع يامولاى .

قلت متضـايقا .

ــ فقدت الثقـة بى .

ــ مولاى انها اللعنة لو أفشيت بالسر .

ــ تخشى أذن من اللعنة لو صارحتنى .

ــ حقـا يامولاى .

ــ ورغم أنك تعرف فلم تحدث اللعنة التى تخشاها .

ــ لقد أقسمت يامولاى على ألا أبوح بالسر الاعظم .

ــ وتلك الأيقونة تحمل هذا السر الاعظم .

ــ نعم يامولاى .

ــ لذلك فقد تعقبنا شهبور .

ــ من ملك الأيقونة ملك القوة والسلطان .

ــ ماذا تخفى عنى يامناع .

ــ مولاى فلنترك الناس يعيشون واقعهم .

قلت بتبرم :

ــ مهمتنا أن نغير هذا الواقع الى افضل .. نبحث عن الحضارة .. ننهل من منابعهــا .

قال فى يأس ومرارة :

ــ وما جدوى ذلك ؟!

دهشت .. قلت فى اسى :

ــ أنت الذى تقول ذلك .

ــ للأسف يامولاى .. نعم .. فاليأس يعشش على رفات الأمل .. الأمل ذبيح .. ذبيح يامولاى .

- ١٢ -

سألت مناع ونحن نترك الراحلتين :

ــ اين نحــن ؟

أجابنى :

ــ نحن فى الوادى المقــدس .

ــ ولماذا هو مقــدس ؟

ــ وادى الأنبياء يامولاى .

ــ وماذا فيــه ؟

ــ أنظر لترى بعينيك .

ــ لا ارى أمامى سوى أسوارا من الشوك والأنبته البرية .

ــ داخل هذا الوادى يقطن الأنبياء .

ضحكت حتى كدت أن أستلقى على ظهرى .. قلت ساخرا :

ــ هيا اذن لا تضــيع وقتنا .

دهش مناع .. عاوده الوجوم الذى فارقه منذ أيام .. قلت فى قلق :

ــ كأنى قلت أمرا غريبا .

ــ هذا مكان مقدس يامولاى لا تطاه قدم .. والا حلت اللعنة ..

قلت ساخرا :

ـ انك ترهبنى .

قال فى سذاجة عفوية :

ـ لم اقصد ذلك يامولاى .

افرزت ضيقى فى كلمات :

ـ او ليس الأنبياء بشراً .

ـ بلى .

ـ اذا لماذا يستكثر علينا أن نتحدث اليهم .

ـ تقصد اننا نستطيع نقاشهم بما يخلجنا من افكار وآراء وشكوك .. ولا تحل علينا اللعنة .

ـ اى لعنة يمكن ان تحدث عندما نتحدث مع احد الأنبياء .

ـ مولاى سأسر لك أمرا لكن كل ما ارجوه أن لا تغضب منى .

ـ انا منصت اليك يامناع .

ـ كثيرا ما حاورنى الشك فى هوية هؤلاء الأنبياء لكن لم أستطع أن أعلن شكوكى خشية اللعنة .

ـ أذن فقد اتيت هنا قبلا .

ـ وتلصصت علنى اقطع الشك باليقين .. وما رايته أغرقنى فى بحار من الشك اللعين .. فقد رأيتهم .. غادون .. رائحون .. بشر مثلنا .. يضحكون .. ويغضبون يتحدثون ويأكلون .. يستمتعون .

ـ كيف ؟

ـ كل شىء ملك يمينهم .. لو طلبوا لبن العصفور لنالوه .. أنهم خاصة الخاصة .. أنظر يامولاى هذا الرجل العارى .

ـ ماذا يفعل .. اراه عاريا .. يتسلق شجرة ثم يهبط منها ثم يعود ليتسلقها من جديد وفى يده تفاحة .

ـ أنه ابو البشرية يامولاى .

ـ وهذه المرأة التى تتبعه ؟

ـ حـــواء .. زوجتـــه .

ــ وماذا يعتقد انه يفعـــل؟

ــ انه يؤدى نفس الدور الذى قام به عندما هبط من الجنة الى الأرض وخلفه حواء تنوح وتندب حظها تشيعه نظرات الأنبياء بالشفقة والحسرة .. استمع يامولاى ماذا يقـــول :

ــ يا أنبيـــاء الله .. ماكنت أعرف أن عقابى ســـيحيق بكم كل تلك الكوارث .. ومع ذلك فلرب ضارة نافعة .. فلو لم أهبط الى الأرض ملكان لوجـــودكم معنى ولا حصـــلتم على هـــذا المقام الرفيـــع فى أذهان البشر ولا أحاطتكم تلك القدســـية وهذه الهالة التى تقطع أى لســـان يتطاول على ســـيرتكم المقدســـة .

قلت لمنـــاع فى حســـم :

ــ هيـــا .

سألنى فى دهشــــــة :

ــ الى أين يامولاى .. والطريق ملىء بالأشواك .

ــ نحادثه .. ويحادثنا .

ــ أعفنى ياMolاى .. فهذه مهمة الآلهة وليست مهمة البشر .. لكن كل رجائى أن تكون رفيقا بهم ، هم خاصة خاصتك .

***

اقتربت من ابى البشرية .. نظر الى بدهشة تملكتنى الرعب .. الشعر يكسو كل جسده اللحية مسترسلة .. شعر الرأس مجعد .. التوام فارع .. عينان جامدتان عينى صقر .. فور رؤيتى صرخ :

ــ من اذن لك بالدخول ؟

ــ جئتك زائرا .

ــ من أنت ؟

ــ واحد من نســلك .

ــ وكيف تجرات .. الا تعلم أن هــذا الوادى المقدس محرم على أمثالك من الصعاليك .

اول القصيدة كفر .. قلت وأنا أحاول السيطرة على انفعالاتى :

ــ سيدى أنها محاولة للوصول الى الحقيقة .

ــ أية حقيقــة ؟

اقترب منى لمس راسى بكف يده الضخم سالنى .. وهو يضحك :

ــ اين وبر راسك هل أكله النمل .

ــ أنه التطور يا اب البشرية .

ــ يوصلكم هذا المجهول لرأس ناحل بلا وبر .

ــ الأهم هو مابداخل الراس لا بما يزرع فوقها .

مددت يدى بورقة تفاح وانا أتمتم :

ــ دارى بها عورتك .

ضحك من جديد هذه المرة لم يكن ضحكا انما كان اقرب للزئير ظهرت أنيابه حادة .. لامعة كنصل سكين .. سألته فى سذاجة عفوية :

ــ أسنانك .. قصدى أنيابك ناصعة بيضاء .. اى معجون تستعمل

تلفت حوله بحذر .. اقترب مني .. همس :

ــ معجون الأنبياء بالكلوروفيل .

ضـــحكت .. كيف له بهذه المعلومة .. في الحقيقــة بدأت اقترب منه بفكري .. انه « جاهــز » أعــد نفســـه لكل شيء .. على أن أهجم بكل حججي .. ســـألته :

ــ وهل دعو[illegible]ك أيضا كانت بالكلورفيل ؟

ضحك من جديد .. احلف باغلظ الايمان .. انني ماسمعت مثل هــذا الزئير من قبل ولن أسمع مثله كل جســده يتارجح .. أنه ابن نكته يســعى اليها .. ويسر منها .. أجبته :

ــ لا يا ابي .. أقصد ياجدى .. الدعوة بلا رتوش .

ــ ماذا تريد أن تعرف ؟

ــ رغم انه لم يصــلنا بالتحديد جوهر تلك الدعوة ورغم أن تبنى الخير ونبذ المعصــية دعوة تدعو اليها كافة المجتمعات الدينية واللادينية .. رغم هذا كله فلى سؤال .. هل يمكن أن يعصى نبى ربه ؟!

ــ أبدا فهذا من سابع المستحيلات .

ــ وماذا فعلت أنت .

انشــق غاضــبا قال :

ــ تتهمنى بعصيان ربى .. خسئت .

ــ هذا ماوعيناه منذ نعومة أظفارنا .

ــ افتــراء .

سألته في دهشة واستغراب :

ــ ألم يحرم ربك عليك شجرة التفاح ؟

ــ بلـــى .

ــ ومع ذلك تقول افتراء .. كيف بالله عليك ؟!

ــ سأنير لك الطريق .. انظر من هذه الطاقة الالهية .

ــ أنني لا أرى شــيئا .

ـ لأنك لا تملك عين النبوة !!

ـ وما عين النبـوة ؟

ـ تستطيع بها أن ترى المنظور والمخبوء .

ـ لذلك فأنت ترى مالاتراه .

ـ هذا حال الرسـل والأولياء والصـالحين خصهم الله بها وأنعم عليهم بما يميزهم عن سائر البشر .

ـ اذن فلا عجب أن نسمع عن الرسـل الذين كانوا يبصرون الملائكة والجن والعناريت دون غيرهم من سائر البشر .

ـ نعم .. صدقت .

ـ كيف هل تحمل مثل هذه العين عدسة ميكرسكوب أم أن لها قرنية سحرية لديها القدرة على كشف المجهول ومعرفة المخبوء . فاجأني بسؤاله :

ـ أيضا ستنكر انك لم تسمع عن أذن النبوة !!

ـ هى الأخرى تسمع مالايسـمعه البشر .

ـ صدقت فهى التى سمع بها الأنبياء حديث الله مباشرة أو بواسطة ملاك .

ـ وأين العقل فيما نقـوله ؟

اجابنى محتـدا :

ـ فى الحذاء اذا كنت ترتديه !!

ـ اذا فأنت ترى مالانستطيع رؤيته .

ـ هل ترى تلك الأرواح الهائمة ؟

ـ الأرواح .. بدأت تسـخر منى يا ملك الكون ويا أب البشرية .. قهقه .. ربت على .. انطرحت أرضـا .. كم يده ثقيلة .. قهقه من جديد وأنا أزحف لأقف أمامه .. قزما صغيرا تمتم :

ـ ظلك خفيف .

ـ تقصـد ظلى قصـير .

ـ انظـر .

قلت مدهوشـــا :

ـ اننى لا ارى ســوى فراغ .

ـ اذا كنت لا ترى أكثر من بشريتك فاجعــل من حديثى معك منظارا للمجهول ترى به الأسرار الخفية التى يعجز البشر عن رؤاها .

ـ وهكذا تتوه الحقيقة وسط الضباب .

ـ آذا قلنا أن الانسان لا يســتطيع أن يرى بالعين المجردة على مدى البصر ابعد من ألف متر فهو يســتطيع ان يرى بالمنظــار اكثر من خمســة آلاف متر .

تخايلت على الشــكوك .. فكيف له بمعرفة المنظار والمتر .. أو ليس آدم هذا الذى يحدثنى .. قد يكــون آدم آخر مثقف .. قلت له والحــيرة تنهشــنى :

ـ الى أين تتجه بحديثك .

ـ مثل آخر .. الأمى الذى يعجز عن الكتابة والقراءة .

سكت قَليلا ثم استطرد قائلا .. بالمناسبة هل أنت أمى ؟

اجبتــه فى ثقــة :

ـ بل أنا أبــى .

التقط المزحــة ضــحك من جديد .. أغترفنى فوق يــده يدللنى .. أستطرد قائلا :

ـ الأمى الذى لا يستطيع أن يميز بين الألف وكوز الذرة .. لايدرك معنى تلك الحروف المكتــوبة .. لكن ليس معنى جهله بها أنها مطموســة المضمون . والأعمى يرى الدنيا شريطا أسودا .. ولكن هذا لا ينفى وجــود اشجار خضراء وورود حمراء .. وزهور بيضاء .

قلت وقد احتوتنى هزة .. صدمة .. فأنا أســمع حديثا غريبا .. قوى الحجة .. متين البنيان .

قلت متسائلا :

ـ تقصد بحديثك النســبية .

ـ مهلا .. هذه الأرواح الهائلة ليست سوى طاقة لا يقيدها مادة .. داخل مملكة لها نظـــام دقيق ينتظمها ملك واحد اله واحد .. ثم الأتباع .. الكل يعمل فى سعادة لكن مايناط بها من أعمال ليس لها مثيلا على الأرض .. أعمال من شأنها تنظيم حركة الكون من رياح واعاصير من مطر وســـحاب من زلازل وبراكين .. من اجرام وكواكب وشـــموس .. مملكة اختفت فيها الماديـــات .. هـــذه المخلـــوقات او الأرواح تســـتمد طاقتها من البطارية الالهية .. مملكة لا حدود لها .. اختفت منها الطبقات .. فالكل سواء .. مخلوقات تعمل وتتعبد وتصلى بالتجلى على الخالق .. طاقة لها القدرة على الانتقال من مكان لآخر بسرعة البرق .. دون ما حاجة الى ســـيارات أو طائرات .. ايونات خلية تحـــوم حـــول الذرة الالهية .. ما يميزها صـــفة المعرفة .. المعرفة الكلية للخالق يقابلها المعرفة الجزئيـــة للمخلوق .. الكل يعرف الجزىء والجزىء يعرف الكل فى حدوده الضيقة .. هذه المخلوقات تعيش فى سلام .. ولكن عندما حاول بعضها التمرد على الناموس الالهى .. حلت اللعنة عليهم فسجن البعض داخل شياطين وسجن البعض الآخر داخل غرائز انســـان .

سألته والذهول يحتوينى :

ـ كيـــف ؟

ـ ماذا تقصـــد بكيفك تلك ؟

ـ أعنى بها كيف تمرد البعض على الناموس الالهى ؟

ـ أخطاء .. ولكنها ليســـت كتلك الاخطاء الشـــائعـــة على الأرض كجرائم المال والنفس ابدا .. بل هى أخطاء تتصل بالذات الالهية .

ـ صلة افتراضية تجمع الله بتلك المخلوقات لا يسندها دليل منطقى أو نظرية علميـــة .

لم يأبه لملاحظتى بل استطرد قائلا :

ـ هذه المخلوقات ليست سوى جزئيات من الخلية الالهية .. مصابيح صغيرة يضيئها مولد ضخم .. قد ينطفأ بعضـــها .. بينما يبقى هو أبدى

متجدد غير منتقص ..

مرت فترة قصيرة من الصمت قبل ان يستطرد قائلا :

ـ هذه الأخطاء جاءت نتيجة محاولة هذه المخلوقات التشبه بملكها الأعظم في ممارسة سلطاته التي يستأثر بها .. فانزلقت بهذا الى خطأ جسيم انتهت عن اتيانه .. وبالتالى أصبح الناموس الالهى معرض لهزات التغيير من هذه المخلوقات التي سخرت قوتها وارادتها لاحداث هذه التغييرات كلما عن لها ذلك .

ـ وحق عليها الرجم .

ـ لم يكن أمام الله سوى أن يضع هذه المخلوقات داخل نواميس محددة .. اطار لا تخرج عنه .. لم يسلبها ذاتها وارادتها المستمدة منه .. بل حد من قوتها اللامحدودة .. وسجنها في المحدود .. جسد وغرائز ورغبات ومطالب فأصبحت تلك القوة الهائلة نزيلة سجن أسمه الجسد من اللحم والعظام والانسجة الرخوة .. وليست عبقرية الانسان واكتشافاته واختراعاته سوى الترجمة الحقيقية لهذه الطاقة الغير محدودة الكامنة في الجسد المحدود .. ولو أهتم الانسان باكتشاف هذه القدرات الهائلة داخله لاستطاع في النهاية أن يطوع هذا الجسد لخدمة تلك القدرات .. ولا عجب عندئذ اذا رأيناه طائرا في السماء السابعة وحده دون أجنحة .. أو عابرا الفلك دون سفينة نوح أو رافعا على يديه طائر الرخ الضخم .

ـ خيال .. خيال نحن في مملكة الخيال .

ـ يا حفيدى المسكين .. بعد أن يكتشف الانسان قدراته الداخلية ويعرف أسراره الغامضة .. ستجد ان كل شيء في الوجود أصبح طوع ارادته ولن تجد في اتيان مثل تلك الخوارق أية غرابة .

قلت له حانقا :

ـ اكمل .. اكمل .

وبعد أن سجنت تلك القدرة الهائلة أو ما يسمى بالروح داخل غرائز الجسد كنت أنا أول من تلقى التجربة على مضض .

قلت مستفسرا :

ـ اتركنى اسرلك أمرا أخفية بين جوانحى .

ـ لا ضير يا صديقى من الافصاح عما يجول بخاطرك .

ـ ان خلقك هذا غريب وتفسير وجودك أغرب ..

ـ كيف ؟

ـ مثلث غريب .. أول اضلاعه خلقك من صلصال بعد النفخ فيه والضلع الثانى عصيانك أوامر ربك بعد أن قربت شجرة التفاح والثالث والأخير طردك من الجنة الى الأرض حيث الصراعات والانقسامات .

قبلنى ابو البشرية من أم راسى قبلة جدية بعدها قال لى :

ـ أحييك ياحفيدى على قوة تساؤلاتك .. والأجابة على ما أثرته تكمن فى قضية عامة .. أن البعض ينكر وجود الله .. فهل يعنى هذا الانكار عدم وجوده .

انفلتت أعصابى أجبته بضيق مكتوم :

ـ رغم احترامى الشديد لك لكن اجابتك لا تختلف عن اجاباتهم .. اقول لهم ثور فيسالونى أن أحلبه .

ـ أخبرنى عنهم .

ـ انهم رجال يرتدون القلنسوه السوداء والرداء الأحمر .

ـ القلنسوه السوداء رمز العقل .. والرداء الأحمر رمز الرغبات .

ـ تقصد بها الكلمة والرغبة فى رؤية الدم .

سألنى فى فضول :

ـ قل لى .. لماذا تشد عليهم النكير ؟

ـ مخلوقات مازالت تضرب اخماسا فى اسداس واذا بالنتيجة صفر اليدين .. قل لى يا أبا البشرية .. من أنت وهم أم حقيقة ؟!

انفلتت أعصابه .. كما حدث لى منذ لحظات .

أجابنى بحده :

ـ وأنت من تكون يا نملة سليمان ؟

تقدم نحوى .. دفعنى بأصبعه الخنصر .. لم أدر بنفسى الا وأنا فى مكان بعيد .. بعيد جدا . لا أعرف مداه .

- ١٤ -

استفقت على رجل عجوز .. ينحنى بهامته العملاقة نحوى .. وجهه وسيم رغم تلك اللحية الطويلة .. على محياه ذكاء فطرى .. داخل عينيه حزن عميق تتوقدان بالمعرفة وحب الاستطلاع .. يملأ فمه بالماء .. يرش وجهى .. مكوجى يعد الملابس للكى .. سيلا من الماء يتدفق فوق رأسى .. وجهى .. ملابسى .. تخايلت على شفتيه بسمة حانية .. وأنا أبحلق فى هذا المخلوق الذى يوقظنى من أغماءة طويلة ثم يتركنى الى عصا حلوة رقيقة ناعمة .. عذراء فى ليلة زفافها .. أخذها بلهفة بين أحضانه .. قبلها .. جلس القرفصاء .. انحنى الى حجرين يدلكهما ببعضهما تتطايرت شرارة .. أوقد نارا .. ارتفعت ألسنة اللهب .. تساقطت دموعه .. وهو يتلو بكلمات أغلب الظن أنها كلمات سماوية زرقاء !! هم بقذف العصا الى النار تردد .. اسقط فى يدى .. أسرعت اخطف منه العصا .. أخيرا العصا السحرية بين يدى رحت اضربها فى الأرض .. ألطم بها ماء الجدول فلا الأرض انشقت ولا الجدول التئم أخذت احركهما يمينا وشمالا .. وشرقا وغربا وأنا اتمتم :

ــ جلا .. خلا .. جلا .

بلا فائدة لم تلد حية ولا ثعبانا ولا حتى سحلية .. اعطيتها له وأنا أهمس :

ــ لا تستحق سوى الحرق .

قذف بها الى النار .. بكى ... اشفقت على دموعه .. شلال نياجرا الى هذا الحد .. حقا فهى رفيقة عمره .. أعطته كل شىء .. القوة .. والمعجزة والهيبة والرهبة .

قلت له بأسى :

ــ لا تحزن يا والدى .. هكـــذا الدنيا يوم لك ويوم عليك .. البقية فى حياتك .

اجابنى بصـــدق :

ــ أنها سـبب محنتى .. رغم اننى أحببتها .

ــ غريبـــة !!

ــ وأى غرابة فيما أقول .

ــ أن يحب الانسان ما يعذبه أليس فى هذا غرابة !

ــ تماما كما يحب الآباء أبنائهم رغم عقوقهم وتعذيبهم أياهم .

ــ لكن أى محنة تلك التى سببتها لك هذه العصـا .

ــ محنة الأسطورة التى ارتبطت بها

ــ رغم وضوح ألفاظك فلم أفهم ماتريد الافصاح عنه .

أشار الى العصا والنار تلتهمها وقال :

ــ لقد شـقت اليابس ليصـــبح بحرا يغرق فيه الكفره .. والتهمت ثعابين السحره وأنا ماذا كان دورى ؟

انفعل وهو يســـتطرد قائلا :

ماذا كان دورى اذا كانت تلك العصـــا حققت كل هـــذه المعجزات .. قل لى ماذا كان دورى ؟!

ــ حتى الآن لم تصـــل للقلب .

ــ أخشى لو نفذ اليه سهم الحقيقة .. لأرديت الجسد قتيلا .

ــ لا تقلق .. فسأكفنه معك بأحلى وأجمل ثياب الخيال .. وسنزين صدره بنياشـــين الخرافات .

سكت قليلا .. يرشف ماء ثمرة جوز هند .. أستطرد بعدها قائلا :

ــ رمز يعبر عن الصراع بين الخير والشر .. وكيف انتصرت عصـــا الخير على شرور الكهان وأغرقت الكفرة فى محيطها القاتل .

ــ تعنى أن القصة كلها لم تتعد سوى هذا الرمز الواضح الصريح .

ـ صـــدقت .

ـ لكن كثيرون سيرفضون هذا التفسير .

ـ عليهم أذن ان يصدقوا القصة بحرفيتها .. لكن أخبرنى قال ذلك ثم انحنى يمسكني من تلابيبى .. يرفعنى الى أعلى .. قشه يحركها اعصار هائل يسالنى فى فضـــول :

ـ من أنت وكيف وجدتك بالحالة التى كنت عليهـــا تذكرت فى تلك اللحظة جريمة القتل التى ارتكبها منذ آلاف الســنين .. هذا مصـــيرى .. خفت أن يهوى بى الى أعماق الوادى السحيق .

تساءلت لماذا هؤلاء البشر منفعلون غاضبون دائما .. تذكرت كلمات مناع « حاول أن تكون رقيقا معهم حتى لا يمزقوك أربا » .. قلت :

ـ مهلا خلـــوا .. لا تجذبنى هكذا فتقتل نفســا بدون وجهِ حق ..

رد بذكاء لماح وهو يترك ثيابى :

ـ إنت تعنى جريمة القتل أياها

قاطعته قائـــلا :

ـ كما عهدناك تعرفها وهى طائرة .

أســتطرد قائـلا :

ـ لم يكن سوى شجارا كنت الغالب فيه .

ـ وهل تعلم عقوبة القتل ؟

ـ لمصلحة من تحاولون تشويه صورتى ؟

ـ أرفع قليلا من صوتك حتى أفهم ما تعنيه الكلمات .

زعق قائـــلا :

ـ من تريدون من الرسل أظهاره فى صورة الكمال بتضـــخيم أخطاء من ســـبقوه .

ـ افهم من هذا أنك لم تقتل .. وجريمة القتل ليست سوى رمز .

ـ بل أمنية طالما سعيت لتحقيقها .

ـ ويأســـت .

ــ بل تركت لشعبى الآن مهمة تحقيقها .

ــ شعب بأسره يقتل رجلا واحدا ــ عجبا .

ــ بل يقتـــل رمزا .. لتصـــبح أرض الوعد حقيقـة واقعـــة ..

هل نسـيتم ؟

ــ ماذا تعنى بسؤالك ؟

اذا كنتم قد نســـيتم فنحن مازلنا نذكــر آلام التشريد والتعـذيب والغزوات والانتقام البربرى .. وتقتيل المئات المستسلمة وذبحها .

ــ تقصـــد ثار قديم .

ــ بل جرح غائر .. لا تتعجل فنحن فى الطريق .

ــ أى طريق تعنى ؟

ــ طريق الاجهاز على هؤلاء القوم المحصن خلف أسوار الاخلاقيات المنحطـة والمبـادىء المنعدمة .. والمثاليات الفقـيرة .. والفكر المدحـور

ــ قل لى ياجدى كيف تحدثت مع الله ؟

ــ كما احدثك الآن .

ــ وجها لوجــه ؟

ــ ولم لا .. وأنا نبى شعبه المختار .

ــ ومع ذلك فلم نجد أثرا واحدا يستدل به على قصتك .

ــ تقصد اننى وهم .. لا ليس صحيحا والدليل على ذلك الوصايا .

ــ هل يعنى وجودها ارتباطها بك أنت .

ــ لكم يحزننى محاولاتكم المسـتميته افـراغ التاريخ من المعانى الخالدة الباقية على طريق اليقين .

ــ محاولتنا هى مسح الصدأ عن التاريخ لا طمس معالمه .

ــ هذا العلم نبيكم الجديد استبدلتموه بنا .

ــ انه المستقبل .. وأنتم الماضى .

ــ لتأخذوا منا عبرة .

ــ العبرة أن تدعو الله على عشيرتك بالتوهان فى الصحراء ؟!

ــ بعد أن تمردوا على تعاليمى .

ـ وهل يتقبل الله دعوات الخراب ؟

ـ انه سـميع مجيب .

ـ قل لى ياسيدى بعد أن نجردك من الوصايا ماذا قدمت للانسان ؟

ـ الانسـان ليس سـوى مجموعة من الأعمـال الخالدة لجمع من الحمقى ويذهب الداعية .. ويروح الحمقى ولا يتبقى سوى العمل الخلد .

ـ تقصـد أنه لا يتبقى لك سوى وصايا .

ـ انها ترجمة حقيقية للخير .

ـ وهذه الأساطير التى امتزجت بها .

ـ قلتها اسـاطير .

ـ من اذنك .

سـألته :

ـ الى اين ؟!

ـ بدأت النار تخبـو .

ـ اتركها وشأنها .

ـ حتى تبقى النار مشتعلة .. سألقى بعصا ثانية وثالثة أو رابعة ..

ـ ولو .. مهما حاولت .. سـتبقى تلك الأسطورة حيـة .. لا تموت .. رقطاء تلدغ كل من يفكر فى حرقها ونثر رمادها .

ـ ١٥ ـ

استدرت لأعود واذا بى أمام انسان لا يصدقه عقل .. رجل طويل .. عريض المنكبين كث الشـعر .. تصـل لحيته لأسـفل صـدره قدماه مفرطحان .. كبيران أعتقد أن مقاس قدمه لا يقل عن سـبعون .. ثمانون لا أدرى من أعلى كتفيه يتسـاقط سـاعدان .. يتأرجحان وهو يسـير الهوينا .. اسد فى غابة لكن فى خفة طاووس يتخايل فى حديقة .. سحبنى من ذراعى .. رحب بى .. اتجـة الى حـوض ملىء بالماء .. انحنى ..

اشـــار الى ان اقف فى الطرف الآخر من الحوض .. دفع بسفينة صـــغيرة تطفو فـوق الماء .. تلقفتها بيـــدى .. لا ادرى ماذا يريد .. ولماذا يفعـــل ذلك .. الا اننى دفعتهـــا أنا الآخر تجاهه .. فرح .. دفعها من جديد .. مرت ساعة وأنا ألعب معه هذه اللعبة السخيفة .. ضقت بها قلت له :

ــ لقد تعبت ياســـيدى .

ــ حسنا هيا لنتنـاول مشروبا باردا ..

ــ احسنت صـــنعا ..

قـــدم لى كوبا .. ورقة شـــجر خضراء .. قرطاس لف بعناية .. امسكت بالكوب وقبل ان يروح السائل الهلامى من فمى سألته :

ــ مشروب الجنة أليس كذلك ؟

أجابنى :

ــ حقا فهو بول الملكات !!

ترددت واذا به يصرخ فى وجهى :

ــ اشرب والا دعـــوت عليك بطوفان يقصـــف عمـــرك ويغرقك فى أعماق المحيط .

ترددت من جديد واذا به يحذرنى قائلا :

ــ هيـــا .

قذفت بالقرطاس .. تناثرت قطراته .. نظر الى الأرض بحسرة .. صـــاح مهتاجاً :

ــ لقد أغضبتنى .. ولن اتوانى عن طلب الموت لك ولكل من يؤازرك

قلت بهـــدوء :

ــ معـــذرة ياســـيدى .. فما قدمته لى مشروب غـــير مألوف .. لا تستسيغه النفس .. من الصعب التآلف معه الا فى حالة واحدة .. أما عن طريق الفم فهذا مســـتحيل انفرجت اســـاريره .. صـــحبنى من يدى الى مكان خال سألنى :

ــ هل تســـمع ؟

ـ نعم .. ما اسـمعه هو ازيز النحل .

ـ بل ازيز ملكات النحل .

ـ الآن فهمت ياسيدى .. وليس امامى سـوى أن أقدم اليك عذرا ممهورا بخاتم النسر .

ـ أشكرك .. اشكرك .. هيا نلعب بالسفينة .

ـ سيدى اننى لم اطأ هـذا المكان .. ولم اخاطر بحياتى من أجل هذه اللعبـة .

ـ هات من عنـدك .

ـ اريد حديثا .. ترتجف منه الابدان .. ولا تحتار فيه الاذهان .

ـ أنا منصت لك ومجيب على كل خواطرك .

ـ لا تؤاخذنى اذا بدأت حديثى معك عن حكايات ألف ليلة وليلة .

ـ لم أسمع بها ولم تحدث فى عصرى .

ـ انها ليست سوى حكايات ملآى بالأسـاطير .. وعششت عليها الخرافات ومع ذلك فقد بقيت حتى الآن محفـوظة من قرن الى قرن دون اى تعديل أو تحريف حتى لقد قيل أن الله حافظ لها .

ـ وما صـلة هذا بـك .

ـ قصتك تذكرنى بواحدة منها .

ـ اى قصـة تعنى ؟

ـ من الألف الى الياء منذ أن بدأت تدعو القوم الى عبادة الله الى أن هبطت بسفينتك على قمة الجبل .

ـ أى سـفينة تلك ؟!

ـ لا أقصد هذه اللعبة التى تدفعها الآن وأنا أردها لك .. بل تلك التى رحلت فيها ومعك أهلك وعشيرتك وذوى قرباك الذين آمنو بك بعد ان جمعت فيها من كل زوجين اثنين .

توقف قليلا عن اللعب .. نظر الى مليا فى دهشة أجابنى :

ـ الآن تذكرت .. ماذا يشغلك من أمرها .

ـ كل شيء عنها .. منذ اللحظة التى عقدت فيها اتفاق جنتلمان .. وبناء عليه تمت من جانبك بصنع سفينتك .. وقام الله بتفجير الينابيع .. وفتح المجارى وارسال المطر حتى طفت سفينتك . الصالحين فوقها والظالمين تحتها يغرقون فى لجة الطوفان الى اللحظة التى أستقرت فيها السفينة على قمة جبل نوى بعد أن قامت الشفاطات الالهيـة بسـحب المياه .. وافراغ الأرض من الأوحال .. وتنظيفها ورصفها !!

ابتسم الرجل ابتسامة نووية واسعة قال بعدها :

ـ وما الغرابة فيما قلت ؟

ـ حاولت اكراه الناس على اعتناق عقيدتك بأن خيرتهم بين المـوت او اتباعها .. ثم سلطت الطوفان على من جحدك فابتلعه .

ـ وهذا ايضا ماذا يدهشك فيه .

ـ اولا .. لا أكراه فى العقيدة .. ثانيا من آمن بك عن خوف من الموت فهو على كفره لأنك لم تغير مفهومه حول عقيدته كل ما فعله أنه سـايرك خشية الموت .. ثالثا من غرق على كفره وفضل الموت فقد فشلت فى اقناعه بعقيدتك .. وهذه الصورة لا تخرج عن شخصية الفترة الذى يفرض أتاوات على الأغنياء ليعطيهـا للفقراء ويخيرهم بين الدفع أو المرمطة ولحس التراب الهدف لا ينكر أحد سـموغايته .. تحقيق المساواة .. العـدل .. الا ان الوسيلة يرفضها العقل .. وهذا ما يدفعنا للتساؤل هل يمكن أن يصـبح الاله طرفا فى مؤامرة لقتل الانسان .. حتى ولو كان هذا الانسان قد عصى اوامره .. وهل قانونه ناقص الى الحد الذى يجعل من الثأر والانتقام واحد من أعمدة شريعته .. لا أظن .

ران الصمت .. مسافة طويلة من التساؤلات تفصلنى عنه .. غريب عنى لا أفهمه وهو يسألنى :

ـ الى أى شيء تهـدف .

ـ قصـتك غير مقنعة .. لاتتفق احداثها مع التفكير المنطقى لذلك

فلا مناص امامنا سوى ان نضعها فى جعبة الخيال .

ــ كل هذا لأننى خيرت الناس بين الموت أو الدين .

ــ أيضا لأنك صورت الاله فى صورة بشرية مجردة .

ــ غبى .

ــ الذى هو أنا .

ــ الذى هو انت وامثالك .

ــ لماذا ياسيدى تسبنى .

ــ لأنكم حولتم المعنى الى حدث والرمز الى واقع .

ــ كيف .. خبرنى ؟

ــ السفينة ياصاحبى ليست سوى رمز لدعوة الخير .. من أيد دعوتى فقد ركبها الى بر الأمان جبل السلام ومن انكرها فمصيره الغرق فى طوفان الشر .

ــ وابنك ؟

ــ احد الغرقى فى بحار الرذيلة .

ــ ومفهوم من كل زوجين أثنين .

ــ رمز لمكاسب الانسان المزدوجة على مر السنين .

ضاقت بى نفسى .. تملكنى الغضب صحت زاعقا :

ــ كلكم تتحدثون بالشفرة .. أين أذن الحقيقة المجردة ؟

رد على بابتسامة نوويه . مرعبة جبارة .. ازلية .. قديمة ..

اجابنى :

ــ يا حفيد احفادى اراك تبحث عن الحقيقة فى مملكة الخيال خذها نصيحة .. ثدى الخيال لايدر أبدا لبن الحقيقة .

تركته وأنا ازعق :

ــ أين أذن الحقيقة المجردة .

- ١٦ -

على ان ابحث عن الحقيقة فى مكان آخر .. بدأت اخطو خارج الوادى الدروب كثيرة والمنحنيات متعددة والطرق متفرعة .. متقاطعة .. تهت وسط الاحراش . رأيت شابا جميلا .. خصلة من الشعر تزين جبين يشع منه العظمة والسلطان .. جالس فوق الأرض الخضراء .. أمامه أربعة عشر بقرة .. سبع سمان .. وسبع عجاف لعب صنعها من الصلصال .. يحرك العجاف لتأكل السمان .. فتولول السمان وتصرخ وتندب حظها حتى اذا ما أكلتها عادت لسيرتها الأولى .. اقتربت منه سائلة :

— اين الطريق الموصل الى الخارج ؟!

بهرتنى وسامته .. كلماته المرتبة المنقمة :

— غريب عن الديار .

— نعم زائر قضى اكثر اليوم فى واديكم ويريد الخروج ليبحث عن الحقيقة .

— مرحبا .. يامرحبا .. اردت الحقيقة .. وها هى أمامك .

— تقصد بها هذه البقرات المصنوعة من الصلصال .

— نعم .. حقيقة التاريخ والحضارة .. أيام قحط تعقبها فترات ازدهار .

— لكن كيف تأكل العجاف السمان ؟!

— عندما يأتى القحط .. فلا يصبح أمام الناس من وسيلة الا استنزاف ما ادخروه فى أيام الرخاء .

— ولماذا سبعا .. لماذا لا تكون ثمانية .

— سبع سموات .. سبع ألوان .. سبع طبقات واسئك !!

ضحكت .. قلت فى دهشة .

— حتى الاعلانات تعرفها !!

بدات استريح لصحبته .. لنكتته .. قلت له فى مودة :

ـ هل تعلم ياسيدى انهم أطلقوا اسـمك على انحر الفواكة واحلاها

قال مبتسما كما الوردة عندما تتفتح اوراقها :

ـ احقا ما تقـول ؟

ـ ولكن ليست فى ملاحتك .

ـ صـدقت فما أن ترانى فتاة أو امرأة حتى تنتابها حالة من الهوس الجنسى والتوهان العقلى .

ـ رغبة منها فى تذوق اليوسفى .

ـ انظر الى كل هاته النسوة أنهم يطلبون شـمولهن بنظرة او حتى اشارة .. دون جدوى .

ـ التقل صـنعه .. لكن ماحدث مع امراة العزيز لا يتفق مع هـذا الدلال والتدلل .

ـ الحب يصنع المعجزات .

ـ احبتك .. وظلمتك .

ـ حبا جارفا .. وظلما كبيرا .

ـ وأنت ؟!

ـ الحب لم يحرمه دين أو شريعة .

ـ احكى لنا كيف اختليت وهممت بها ثم كيف جاءك البرهان فتركتها على نار « تقرمشى » .

ـ هذا اتهام ظالم .

ـ رموز أخرى .. لقد زهدت الحديث عنها .

ـ مثل هذا الاتهام يصـمنى فى رجولتى فكيف اكـون فى سرير مع امراة جميلة منتشية تعشقنى .. واهم بها .. وتهم بى ثم أتركها هاربا .

ـ تقصد أن القصة لا تستقيم مع الواقع .

ـ بل قصد بها تشوية سمعتى واظهارى بمظهر الضعيف جنسيا .

ـــ اذا كنا سنصـــدق انك لم تختلى بها .. وأنــك لم تهم .. فما اساس تلك الرواية .

ـــ بنيان بلا اســاس ليس لة وجــود .. فكيف تبنى بيتا دعائمه فى الهـــواء .

ـــ تقصد دعائمه فى الوهم .

ـــ صـــدقت .

ـــ ومع انكارك هـــذا فقد دسست لأخــوتك مكيال الذهب واتهمتهم زورا بالسرقة .

ـــ ياحفيدى .. ماذا تعتقدون فى الأنبياء .. أنهم بشر يخطئون .. ويطلبون المغفرة ويذرفون الدمع ندما وحسرة . منهم من عصى ربه .. ومنهم من قتل نفسا بغير حق .. ومنهم من اســتعبد الناس .. وقتل الآلاف .. وشرد المئات .. واتهم زورا .. انهم غير معصومين .

ـــ كم تعجبنى صراحتك .

ـــ المشــكلة أن تقديســكم لنا وصــل الى حد التاليه .. وضـــعتم الأنبياء فى بروج عاجيه .. لا يدنســها الشر ولا تمســها الغرائز . حولتم الأنبياء من بشر الى آلهه أو أنصــافها معصــومة عن الخطا لا يستطيع أحد أن يتناول اخطائها .. أو يشــوه كمال ســيرتها تجدون الأخطاء وسرعان ما تصنعوا لها المبررات .. القاتل برىء رغم انه قتل .. العاصى لا يعاقب رغم أنه ارتكب معصــية .. مع اننا نملك ما تملكون من غرائز .. من حب البقــاء للتملك .. للجنس .. كل الغرائز نشــارك البشر فيها .. لكنكم تصرون على وضع الأنبياء داخل اطار صاعق لا يستطيع أحد لمســه أو حتى الاقتراب منة .

ـــ أنهم رجال الدين .

ـــ تقصـــد بهم هؤلاء الذين يرتدون القلنســوه الســوداء والثوب الاحمــر .

ـ بلـــى .

ـ وهؤلاء ألا يملكون العقل ؟

ـ العقـــل مغلق .. مقفل على كثير من الخرافات .. باتت معهــا الحقيقة نقطة صغيرة فى بحار الوهم .

ـ تقصد بالوهم سير الأنبياء .

ـ ما تعارف عليه الناس ليس سوى مجموعة من التهويمات لا تصلح لبناء حضارة فأين الحقيقة ؟

ـ سمعت من يتحدث عن الوجود المطلق .. والحقيقى .

ـ زدنى علما ياسيدى .

ـ الوجود المطلق يبقى غير معلوم .. مبهم طالما لا تؤيده حقيقة .. فاذا حدث تحول الى وجود حقيقى ..

قلت زاعقا :

ـ آخر اختراع لكشف حقيقة الأنبياء .

- ١٧ -

خروف ناصع البياض .. لا مثيل له .. فى أذنيه قرط ذهبى .. حول عنقه حبل علق عليه سبيكة (ماشاء الله) من الذهب الخالص .. وبأرجله خلاخيل من الفضة .. يسير بها وسط الحيوانات .. يبصـــق عليهم .. يبول على رأس كل من يعترض طريقتـــه .. يتهـــادى فى مشـــيته .. والحيـــوانات تحسده .. تنظر اليه فى حسرة .. فهو الخروف المقدس الذى ضحى بالثمين الغالى (جسده المكتز) عندما سيق للذبح .. الحوت (يبلبط) فى الماء تنظر اليه الحيوانات شذرا .. أنه هو الآخر ملك الماء بلا منازع .. فقد حمل يونس اياما وليالى فى معدة تطحن الزلط دون أن تؤذيه بل أوقف كل عمليات الهضم وأرسل اليه نافورة من الهواء يتنفس بها داخل ســجنه المظلم .. أيام وليالى بات يفترش نسيج معدته الاسفنجى .. ينام على وســادة هائلة من الأســماك

والأصداف واللآلىء حتى تم الافراج عنه .. انه هو الآخر يهز ذيله الضخم الأسود تيها وغرورا .. يقول للخروف كلما كثيرا .. أنت أنقذت الابن المعجزة وأنا حملت النبى داخل بطنى .. أياما وليالى وهنا على وهن .. فما احرانى بالتتويج على مملكة الحيوان . وهذه النملة هى الأخرى تتراقص بفكيها ووسطها الرقيق وقد دارت عورتها من العيون المتلصصة ترتدى بذلة رقص صنعت خصيصا لها فى مصانع الحاج سليمان .. لا يظهر منها غير الرأس والعينان .. أما الأطراف والبطن والأرداف فحرام أن تزفها العيون وان تلمسها الأيادى فهى من المحرمات .. وجزاء مرتكبها النار خالدا فيها أبدا .. وأبدا هذه تعنى مدة طويلة جدا .. جدا .. لا نهاية لها ..

وقفت النملة « تردح » بأعلى صوتها لهذا الخروف « يادهوتى .. يادهوتى .. حط ايده على سوعتى» !! قالت ذلك وضربت على صدرها تأوهت من وقع الضربة « أى » ثم عادت ترقص .. وتغنى .. أنها الأغنية التى كانت تغنيها امام الحاج سليمان .. الوحيد الذى كان يفهم لغتها وهى تمشى فى الأرض مرحا .. تخرقها .. تكاد أن تبلغ الجبال طولا .. لأنها هى الأخرى فهمت لغة الحاج سليمان .. وهو يتقدم بحذائه الضخم وحذرت عشائرها من النمل أن تبتعد عن طريقه حتى لا تدوسها الأقدام المتوحشة .. وسمعها سليمان .. فابتسم ابتسامة .. مجرد ابتسامة .. زلزلت الأرض بعدها زلزالها .. واندفعت براكينها .. فما بالك لو ضحك .. اكيد ان القيامة ستقوم قيامتها .. لو عن له وغامر وضحك .. قنبلة نووية سليمانية .. ضحكانية !! النملة مازالت ترقص وحولها الحيوانات المقدسة يصفقن ويطربن على أنغام خلاخيل الخروف وتصفيق ذيل الحوت فى الماء .. ونباح مبروك كلب الكهف .. الكلب الذى راح فى النوم بقدرة قادر بلا ذنب ولا جريره .. ثلاث قرون من الزمان وهو فى غيبوبة النوم وعندما استيقظ .. وجد الحال غير الحال . الكلبة « لاكى» التى كان يحبها ويعشقها ويطئها دون باقى الكلاب ماتت بالذبحة الصدرية .. ذهب اليها حيث دفنت وكان حزنه عاصفا شديدا .. لا لأنها دفنت (سكيتى) بلا زيطه أو صوان أو مقرىء على روحها الطاهر .. ابدا بل لأنهم لم يضعوا لافتة على قبرها

توضح عمرها .. وسنة موتها .. وسبب وفاتها ·· بات تلك الليلة مهموما حزينا وهو بجوارها لا يفارقها ·· وعندما قرصه البرد أخذ ينبش الأرض .. وصدم عندما هز جثتها .. سمعها تتأوه وتقول :

ـ اتركني ·· فأنا مازلت أحلم بحبيبي الذى هجرني ..

وفتحت عينيها .. لتجد أمامها حبيبها الكلب مبروك . عجبا للسماء ·· وللأرض ·· وللهواء ثلاثمائة عام تستيقظ بعده الهوام لتدب فيها الحياة !! والآن هذا « مبروك » وخلفه « لاكي » يصفقون للنملة بكل مالديهم من ارادة للحياة .. والكل يصفق ويغني ماعدا ذلك الهدهد المنطوى للذى وشى بملكه سبأ .. أنه حزين منذ هذا اليوم .. فمنذ لقائه الأول معها ·· وترحيبها به وهدهدتها له وهو واقف على فخذها الطرى ممنيا النفس أن تستبقيه في ضيافتها خاصة بعد أن كشفت له عن جمالها البض الفتان وهي تتعرى من ثيابها في مخدع نومها مع عشيقها الذى نقره في مقعدته العارية فهب فزعا يسعى للخارج .. يصرخ متألما والدم يسيل منه :

ـ مؤخرتي ·· مؤخرتي .

لقد ندم أشد الندم أنه وشى بها .. وهو الآن فوق غصن شجرة يغني أغنيته الحزينة .. « كان مالي ومالها وقعت في حبها وجمالها » ويذرف دموعه في نهر الندم . فجأة انشقت الأرض عن رجل طويل .. عريض المنكبين .. قوى البنيان، فوق كتفه الأيمن صقر .. وعلى كتفه الأيسر بومة .. وفوق رموشه تقف حدأة .. تزحلقت على الأرض وهو يهشني كما يهش ذبابة خلفه .. لا ادرى رجلان أم وحشان .. أم عملاقان ·· تقدما نحوى حملاني سأله أحدهما ؟

ـ هل نسقطه في الفضاء ياмولانا .

صرخت :

ـ لا .. لا .. ياسيدى فقد دخلت بجواز مرور معتمد من ادارة جنتكم الموقرة لتسمعوني .

ـ اجابني :

ــ لكن الا تعــرف ان هــذه الحديقــة مقدســة امتلك حيواناتها وانك ارتكبت اثما كبيرا بدخولها دون اذنى .

قلت وانا اقدم له المستند :

ــ ما هو ياسيدى .. وعليه خاتم النسر الذى تملكونه .

ــ آه .. آه تذكرت .. اجلس اذن واسترح .

ــ كيف .. وقد أفزعتنى .

ضحك .. مددت راحة يدى الى فمه .. اغلقته .. قلت :

ــ كفى .. اتريدها زلزالا .

سكت .. اجلسنى بجواره .. سألته وانا ارى ورائى نفس الوحشان :

ــ هذان الشحطان .. ماذا يعملان .

ــ حارساى .. الجن الأحمر (زغبوط) والجن الأزرق (عطموط) لا تقلق فانت فى أمان معهما .

ــ اشكرك .

ــ انظر لهذه الحيوانات .. لقد دبرت لثورة كادت تهدم مملكتى .. ولكن (زغبوط) و (عطموط) اجهضا الثورة فى بدايتها .

ــ أيضا فى غمضة عين وانتباهتها .

ــ مازلت تذكر .. كانت أياما عظيمــة .. ما بقى منهــا ســوى اطلال .. كل هذه يا ابنى اطلال العظمة والسلطان .

ــ أيضايقك لو أخبرتك اننى لم اصدق قصتك .

انخفض .. افترش وجهى بعينيه زعق .. (لماذا كلهم يزعقون هكذا)

ــ اى قصة تعنى .. أن قصصى كثيرة .

ــ حديثك مــع النملة .. وحديث النملة معك اذا صــدقت أن لديك قدرة على فهم أصــوات الحيوانات .. فهل مثل هذه القدرة يملكها النمل ؟!

أشار الى زغبوط وعطموط .. انحنيا اليه .. همس اليهما .. خفت أن

ينلنى سوء احتوانى الصمت .. واذا به يقول :

ــ اكمِل .. اكمل .

قلت ومازال الرعب يسيطر على وجدانى :

ــ ليس قبل أن تؤمنى على حياتى .

عادت الثلاث رؤوس تقترب ثم تنفرج تبع ذلك صوته الجهورى :

ــ لك الأمان .

ــ لقد اذهلت العلمـــاء .. ودوخت العباقره بخيالك الدافق وجعلت العلم أمامك قزما صـــغيرا بعد أن نقلت عرش الملكة بأسرع من الضـــوء .. فكيف بالوسيلة ؟! أم أنها حواديت كتلك التى سمعناها عن أمنا الغولة .. والجنية ذى الشعور الخضراء التى تذهب بحبيبها الى مملكتها فى قاع البحر تلقمه الثدى الخيالى .. أم فارس بنى أوهام الذى يغرز رمحه الأسطورى فى بطن التنين الموغل فى الاسوداد لينزف دما أسودا !! ران الصـــمت .. واذا به يقـــول :

ــ اكمل .. اكمل .

ــ وجنودك من الجن أين كانوا يقطنون .. هل كانوا مع جنودك من الانس (ســـوا ــ ســـوا) أم فى مكان آخر تناديهم فيلبـون .. تطلبهم فيسجدون .

اقتربت رؤوس الثلاثة .. بعدها رأيت أربع سواعد عملاقة تحملنى الى اعلى وانا أصرخ ..

ــ لقد امنتنى على حياتى .. أين العهود .. أين المواثيق .

وجدت نفسى مفترشا الأرض ملتحفا الفضاء مصابا بارتجاج فى المخ .. وكسر فى عظام الساعد الايمن .. يعالجنى رجل وخط الشيب راسه .. يسألنى بعد أن وضع جبيرة على ساعدى .

ـ من أنت وماذا تفعل ؟

ـ انا المستقبل كنت أريد التحدث مع الماضى .

ـ لماذا ؟

ـ لاصرعه قبل أن يصرع الملايين .

ـ لماذا ؟

أجبته قائلا :

ـ الخرافات ياسيدنا .

ـ لماذا ؟

كأنه علق على (لماذا) هذه سألته أنا الآخر :

ـ لماذا ماذا ؟!

أجابنى :

ـ لماذا تحارب الخرافات ؟ .

ـ أنها آفة الآفات .. علينا ان نتخلص من شرورها قبل فوات الأوان .. وغدر الزمان .

ـ أتركها فى حالها فهى الواحة التى يجد فيها الانسان حلمه الذى يترقبه كل ليلة قبل نومه .. يرى من خلاله الشجاعة والاقدام .. القوة والغرابة والخيال .. فما أجمل الخيال وما أحوجنا اليه .. به تتفتح المشاعر .. وتستيقظ الأحاسيس .. تستمتع معه بكل ما تفتقده من مساواة وحرية .. وعدالة .. ترضى بما كتب عليك .. الحاكم الظالم .. والرزق اليسير .. يصبح معها الصراحة مرض والجراة غباء .. تعيش فى جنة خيالية تعثر عليها

بين انقاض العقل .. واطلال العلم وسحابة الغموض والحيرة فاترك هـذه الخرافات لحال سبيلها .. تمضى الى غايتها تخفف آلام الفقراء ترفع عنهم معاناتهم .. تعدهم بالراحة بعد العناء بالجنة بعد الفناء :

ــ اريدها جنة حقيقية .

ــ يكفى أن يحلم النـاس بها .

قال ذلك .. بعدها ران الصمت .. عاد يحدق فى وجهى يسألنى :

ــ لكن من أنت ؟

ــ أنا زائر .

ــ اخشى أن تكون مثـل هذا المجنون الذى شـــويناه على السـيخ منذ اســبوع .. هلعت .. اخذتنى لجة الشك .. اين أنا ومن هؤلاء .. ابدا .. ليسوا الأنبياء .. بدأت اســترجع حديثى معهم .. لديهم القدرة على التلاعب باللفظ .. لسانهم يقطر عسلا أشهى من بول ملكات النحل .. ولكن معلوماتهم عن أنفسهم استقوها من الكتب الصــفراء .. ابدا ليسوا الأنبياء .. العبارة الأخيرة تدق على عقلى .. « مجنون شويناه على سيخ » ليس ببعيد أن يفعلوا بى مثله احترت .. هل أكمل مســيرتى أم اعود من حيث اتيت .. انهالت على الذكريات ..

ــ مستشفى للأمراض العقيلــة .. ونزلاء.. ومجمــوعة من الخبراء والمتخصصين يسألون واحد من النزلاء أمى لا يقرأ ولا يكتب .. السؤال تلو الآخر .. عمليات حسابية معقدة ..جمع وطرح وقسمة وضرب .. عمليات يعرفون نتائجها مقدماً .. لم يخطىء النزيل فى عملية واحدة يومها أدعى أن انشتين حل فى جسده .. جسد عبد السميع العايق وآخر ادعى أنه نابليون اجاباته صحيحة .. سـليمة حتى فى أدق اسراره .. نابليون فى مخدعه .. مع عشـــيقاته .. يتحـدث الفرنســـية بطــلاقة رغم انه لم يتعلم حرفا منها .. ولم يدخل مدرسة والاغرب من هذا ذلك الذى أدعى أنه تقمص روح المسيح .. يشفى المرضى .. ويعالج باللمس لعل ماأراه الآن ليس ســوى تكرار لما أتذكره .. سرادب من الشك أسير فيه وحدى .. شـــعاع من نور

يضيء ظلمته الكئيبة سرعان ما تنطفأ شعلته .. وأنا اسأل الرجل عن مصير هذا الانسان الذى شوى على النار اجابنى ضاحكا :

ــ كان وليمة شـهية .

فى تلك اللحظة قررت العودة .. الا أنه جذبنى من يدى بقسوة تمتم :

ــ الا تريد أن ترى خروفى المقدس .

ــ لقد رأيته منذ لحظات .

ــ ما رأيته هـو النيجاتيف أما الحقيقـى هنا عنـدى احتفظ به فى كوخى .. اعتنى به .. اسقيه من ماء الورد .. ارعاه .. واحنى عليه .

قلت له :

ــ لكننى أريد العودة لكوخى حتى لا تقلق على عشيرتى .

ــ هنا لا يقلق احـد على احـد .. سـايرته .. داعبنى هـذا الهاتف .. وبدأ يؤرقنى .. ماذا لو رشقونى فى السيخ وشوونى تبعته الى الكوخ .. رأيته .. خروف عجوز وهنت عظامه .. وتكسرت اسـنانه . « ماما » فور أن رآني .. والرجل يعلق :

ــ لقد سر برؤيتك .. انه يرحب بك .

داخلى يحدثنى دون أن أسـتطيع الافصـاح « أنت الآخر تعرف لغة الحيوانات .. « هاصت » لكنه حديث لم يخرج من حلقى .. اخرجت علبة سجائرى أخذت واحدة .. اعطيت له أخرى .. سألته :

ــ هل يضـايقك أن أعفر سـيجارة فى تواجد حضرتكم المقدسـة

اشتم السيجارة .. قضمها .. بلعها .

صرخت :

ــ سيدى أنها ليست للأكل ولكنها للتدخين ..

ــ وكيف تدخنها ؟

ــ هـكذا .

اشعلت السيجارة بدأت ادخن وهو مندهش كيف تتحول السيجارة من الحالة الصلبة الى الحالة الغازية فى صورة دخان يصعد من « النخاشيش »

اعطيته اياها ... قلت :

ـ دخن .

جذب نفسا عميقا .. بدأ يسعل .. لكنها استهوته قال فى حسم :

ـ ساطلب فورا من امين المخازن أن يدرج هذا الصنف فى ميزانية العام القادم .. ماذا تسميه . فليكن أسمه من اليوم سرائر .

مرت فترة صمت قصيرة خلتها دهرا .. قلت بعدها :

ـ هل يأذن لى سيدى بالانصراف .

ـ ليس قبل أن أسألك .

ـ عن ماذا ؟

ـ الحلم .

ـ أى حلم تعنى .

انــــه يســـــتدرجنى .. يريد ان يوقــع بى .. على آن اهادنه .. اسايره .. حتى لا أقع فى الشرك .

اجابنى :

ـ الحلم اياه .

ـ آه .. كدت أن تذبح أبنك لولا الخروف الملائكى .

ـ وما رأيك .

احترت .. ماذا يمكن أن اقول له .. هل انكر القصة .. فيقضى على القضاء المبرم أم اعترف بصـــدقها .. وانا لا أعرف موقفه منها اجبته وانا احاول أن أمسك العصا من نصفها :

ـ الله أمرك بارتكاب معصية عندما أمرك بذبح أبنك .

ـ حقا .. كيف فات على ذلك .

ـ ومن أجل سبب غامض غير مفهوم .

ـ وهل اختبار الله لطاعة رســله والاســـتياق من إيمانهم ســـبب غامض غير مفهوم .

ـ اذا تعارض مع كماله وتنزهه .

ـ كيـف ؟

ـ هل يمكن للكمال أن يامر أحد اتباعه بارتكاب جريمـة لا يختلف حول تجريمها اثنان بدلا من النهى عنها .. فضلا عن هذا .. التنافر الحاد بين الالزام والالتزام .. فالالزام لابد وأن يترتب عليـه التزام .. فالزام الانسان بالامتناع عن معصـية يسـوتجب معها التزام الآمر بعدم الاتيان بها .. لانهما امران يرتبطان ببعضهما وجودا وعدما .. والخروج عن هذا يعنى الفـوضى ليس فى عـلاقات الكون بل فى عـلاقات الانسـان بأخيه الانسان .. حاكما كان أو محكوما .. بل هو اشارة خضراء للحاكم الذى يلزم المحكوم بقانون أن يخالف هو نص هذا القانون ضـاربا عرض الحائط بالتزامه .. .. لأن الزام الحاكم المحكومين بقانون ما يسـتلزم بالضرورة التزام الحاكم به .. فاذا خرج عنه يعتبر خروجه .. انتهاك للالتزام .. وبالتالى انهاء لعقد الالزام والالتزام الذى يربط بينهما .. وسـقوط حقه فى البقاء حاكما ..

قال الرجل بحماس دافق :

ـ ليس هذا فحسب .

سـألت فى دهشـة .

ـ ماذا قلت ؟

ـ دعنى أكمل .

ـ على العين والراس .. تفضل .

ـ يا ابنى ان الموضوع كله لم يتجاوز نطاق الأحلام .. ولكن الناس هم الذين نقلوا هذا الحلم من جعبة الخيال الى دائرة الحقيقة ..وتداولوه .. حتى أصبح احـدى حقائق الكتب .. وهذا ما يحزننى فالسـماء لا تمطر خرافا .. ومن المسـتحيل أن يقوم الأب بذبح ابنه لمجرد حلم ارتآه الا أن يصـمه الناس بالجنـون .. ثم ماذا تضـيف تلك الرواية اذا آمنـا بها كحقيقة .. الاله يطلب من انسان ارتكاب معصية .. ويشرع هذا الانسان فى تنفيذها طوعا لاثبات ايمانه .. وابنه لا يعترض على رغبة ابيه .. رغم

انف قاعدة جوهرية انه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق حتى ولو كان هذا المخلوق أبواه .. مثل هذه الرواية تحمل كل مقومات امراض الفكر المتخلف ولم تكن سوى حلم .. حلم أتانى وسردته على الناس فتطوعوا ليجعلو منه حقيقة فى الاذهان .. ماذنبى .

ـ وهذا الخروف الذى تحتفظ به فى كوخك .

ـ ذكرى تمنيت أن اذبحهـا لتسـيل دماء الوهـم علـى ارض الحقيقة ..

ـ ولماذا لم تفعـل ؟؟

ـ الكهنة .. الكهنة .

ـ ١٩ ـ

هل هؤلاء هم حقا أنبياء الأديان بعد أن بعثوا ؟!! عدت استدرج أفكارى الى الحقيقة .. الى النقاط المضـيئة من جديد .. دون جدوى .. واذا بى امام رجل ضخم الجثة .. أعملت فيه النظر من اسفل الى اعلى .. صعدت اليه بنظراتى .. مجعد الشـعر اشـعث اغبر .. عينان امتزج فى حدقتهما الفحمية لون الدم .. والنار .. أخذنى على غره .. وهو يقهقه .. متجها نحوى يهش براحة يده فوق كتفى .. صوته نقيق ضفدع :

ـ أهلا .. وسـهلا .

ـ لا أهلا .. ولا سـهلا

سـألنى :

ـ ضقت بجنتنا .

ـ بل ضـقت بكم .

ـ وقاحة غريبة لا تجدها الا فى الغرباء .

ـ دعنى وشـأنى .

ـ حططت علينا كالطائر الجارح .

ـ ماذا تعنى بكلماتك ؟

ـــ علينا نتف ريشك قبل أن تخطف الكتاكيت وتعلو بها فى الفضاء .

ـــ اى كتاكيت وأى ريش ؟

اخذ يدور حولى .. يرقص .. يغنى وهو يشير على اشارات مبهمة « الحداة .. الكتاكيت تبكى .. انتفوا الريش » صيحات الرجل تتوالى فى غناء ردىء .. حقا ان لأنكر الأصوات لصوت الحمير .. بعدها بلحظات كانت تحيطنى شرذمة من الرجال يرقصون حولى .. يزعقون .. يرددون نفس الكلمات .. زعيمهم يرتدى قلنسوة سوداء .. ورداء أحمر .. يتقدم نحوى يتحسس عجزى .. جسدى .. يتمتم :

ـــ جسده طرى كجسد النساء .

ثم يستطرد قائلا :

ـــ وقعت فى الفخ يابن اللئيمة .

أنهم يرقصون حولى كما يرقص أكلة لحوم البشر .. مجموعة من المجانين . جنة مجانين .. مهاويس .. رفع زعيمهم عصا فى الهواء ثم أخذ يرتل كلمات منظومة غير مفهومة وهو يهزها بعنف وانفعال بعدها انقض على رجلان زنة الواحد منهما طن !! الأيادى تحاصرنى تشج ثوبى .. تحملنى عاريا الى ساحة كبيرة .. حولى المجانين يتغنون « الحداة .. الكتاكيت تبكى .. انتفوا « الريش » جموع من الهمج تلتئم فى دائرة ضيقة حولى .. والخاطر يتمكن منى وزعيمهم يزعق :

ـــ أوقدوا النيران .

النار ترتفع السنتها .. يسكبون الزيت فوق جسدى .. الخاطر يتمكن منى أكثر وأكثر وزعيمهم يعلن :

ـــ جهزوا السيخ .

أين مناع .. هل تبخر .. أين أتباعى .. زعقت .. لا احد يسمعنى يريد أن يسمعنى .. صخب .. تتخلله كلمات السخرية والازدراء أين الهاتف .. قدراتى .. معجزاتى . لقد تبخرت هى الأخرى .. كم أود ان أحولهم الى قردة .. ان اذبحهم .. ولكنى لا اقدر لا استطيع .. هباءا منثورا .. ما أفكر فيه .. لماذا !! قلتها مرات ومرات دون أن أجد اجابة ..

ان هؤلاء القوم لا يؤمنون بى صيحات الاستنكار والسـخرية والازدراء وانا اصـيح فيهم :

ــ هل خبلتم .. ألا تعرفون مولاكم ورب نعمتكم .

لا فائدة .. لا جدوى .. وأحدهم يأتى بسيخ ضخم .. يتقدم نحوى وزعيم القوم يصدر أوامره :

ــ هيا لنرشقه من دبره ليصل الى فمه .

قلت فى سـذاجة وبلاهة :

ــ ولكنه سـيخ ضـخم .

زعيم القوم يقترب منى .. يقول فى سخرية :

ــ لن تشعر بشىء .. مجرد وخزة بسـيطة يغوص السـيخ بعدها فى أحشـائك .

فى تلك اللحظة واتتنى قوى خارقة .. انها قوى الخلاص من الشر .. كنت فى داخلها اشبه بعصـفور تمضـغه انياب ذئب .. بفأر مذعور يلفظ أنفاسه الأخيرة بين براثن قط .. رغم هـذا الضـعف .. وهذا اليأس فقد كنت اشـعر أننى أمتلك العالم كله .. املك كل هؤلاء الناس اسـتطيع ان اعلـو بهم فوق اقدارهم .. بدأت ارتجف وزعيم القـوم يقترب بالسـيخ منى .. وكلماته كلها سخرية :

ــ حانت لحظتك .

فى لحظات كنت أحتوية داخل قوتى .. أصبح أمامى شيئا من الاشياء أسيره كما أشاء .. نظرت اليه .. أحسست ان ارادته تخور كليا مستسلما أحركه بطوق فى رقبته .. على أن أهجم بشراسـة .. بقـوة .. قلت له متسـائلا :

ــ ماذا تنـوى ؟!

ــ ألا ترى هذا السيخ .. سامزق به احشائك .

ــ أى سـيخ ؟!

دهش الرجل وهو يجيبنى :

ــ هـذا الذى فى يدى !!

ــ ما معك ليس سوى ثعبان ضخم !!

تردد الرجل قليلا .. وهو ينظر الى السيخ .. فجأة قذف به وصرخ :

ــ الثعبان .. الثعبان .. انقذونى .. انقذونى .

الزعيم يتلوى .. يحاول انقاذ نفســه من قوى مجهولة .. لقد تحول السيخ الى ثعبان ضخم يحيط برقبته .. الناس تنظر اليه فى دهشة .. لقد خبل زعيمهم .. انه يستنجد :

ــ انقذونى .. انقذونى .. الثعبان يعصرنى .

اقترب منى .. ســجد .. قبل قدمى .. ابتهل .. خلع قلنســوته السوداء .. عفر راسه بالتراب .. صرخ :

ــ انقذنى يامولاى .. انقذنى فانا لست سوى عبدك الذليل .

الناس دهوش .. هاموش .. لا يفهمون مغزى مايحدث .. ولكنهــا الحقيقــة مارآها زعيمهم . الســيخ يتحول الى ثعبان يحاول قتله . حــل الصمت .. علا الوجوه الوجوم .. التساؤل .. وانا أسأله :

ــ ماذا تظن انى فاعل بك ؟

ــ مولاى وربب نعمتى .

ــ اذهب فانت طليق .

الصمت من جديد يطبق على الساحة .. لا تســمع فيها سوى همهمة الحيوانات المقدسة .. النار تخبو .. قلت والدهشة تحتوى الجميع :

ــ اشــعلوا النيران .

اســتطردت بعدها قائلا :

ــ عليكم بالحيوانات المقدسة .. تخيروا منها ما شئتم .. ارسلوها الى النار .. أكلا شــهيا للقاطنين .. فاليوم هو عيد الضــحية الأكبر .. عيد الانقاذ .

تعالت الهتافات .. الصرخات .. وانا استطرد قائلا :

وهذا الوادى المقدس الذى حرم على الناس ان يطئوه .. واســتاثر فيه الخاصــة بالنعم والخيرات .. واستمتعــوا فيه باكل « البغاشــة » و « البقلاوة » !! من اليوم يصبح مشاعا للجميع .. ملك لكل شــعبى من

اقاصى الأرض ومغاربها .. بكل مافيه من متسع طعاما كان أو شراباً امرأة او ولدانا لا فرق بين الخاصة والعامة .. الكل سواء . صرخات التاييد .. عبارات الثناء .. صلاة شكر طويلة .. تعالت فيها كلمات المساواة .. الحق .. العدالة .

- ٢٠ -

شردت افكارى .. ذلك المعبد الذى يتوافد عليه الناس فرادى وجماعات .. يطوفون حوله .. يتزاحمون ليقبلوا جدرانه .. يبصقون فى وجه الشيطان .. يصرخون طالبين المغفرة .. انهم يتألمون بلا دموع .. بلا مشاعر الم الحيوان .. عذاب القرود .. رجال الدين يرتدون الرداء الأحمر والقلنسوة السوداء .. يطوفون معهم يصرخون صرخات الألم والعذاب .. يتطوحون .. يترنحون فى سكرة .. كسكرة الموت .. وفى داخل المعبد حيث تمتد ساحته آلاف الأمتار .. يتسكعون .. يتجالسون .. يعاقرون الخمر يأتون النساء والاطفال .. يعربدون انها الجنة .. كل شيء مباح .. سالت مناع الشكوك تزاحم عقلى :

— الى متى يا مناع هذه الطقوس ؟

رد على فى ريبة :

— سبع أيام وسبع ليالى .

— لماذا يا مناع ؟

— النقيضان يا مولاى عندما يجتمعان .

— تقصد الحب والكراهية .

— نعم يا مولاى .. النور والاظلام .. سبع أيام وسبعة ليالى .

— ولماذا سبعا ؟

— الارض خلقت فى سبع ويوسف حلم بسبع والالوان سبع .. والسموات سبع هذه مشيئتك ..

الشـكوك مازالت تزاحم عقلى .. تقهـره .. هل هذه هى الجنـة حقا .. مجموعة من البلهاء يقبلون الحائط .. يبصـقون على الشـيطان

سألت منـاع :

ــ اين هذا الشيطان يا مناع ؟

ــ مسـجون فى قمقمه .

ــ خذنى اليـه .

اتجه بى الى بباب فولاذى ضخم .. فتحة على مصراعيه لأجد أمامى فوق قاعـدة من العقيق صـندوق من الذهب صـنع ببراعة .. وقد طوقته السلاسل والأصفاد .. ضحكت .. استطالت ضـحكتى .. دمعت عيناى قلت بعد أن سكنت ضحكاتى :

ــ فى هذا الصندوق يسكن الشيطان .

ــ هل تشك فى هذا يا مولاى ؟

ــ وتطوقونه بالسلاسل خشية أن يهرب .

ــ تسخر من عقيدتنا التى أوحيت بها الينا .

ــ خرافة .. خرافة يا منـاع .

ــ تقصـد الشـيطان !

قلت له فى حسم :

ــ آتنى ببلطـة .

حملت البلطة الى قمقم الشيطان .. رفعتها فى الهواء .. صرخ مناع :

ــ لا تفعل يا مولاى .

توقفت وجسد مناع ينطرح على القمقم وأنا أحذره :

ــ أبتعد يا منـاع .

مناع يستجدى .. يقبل قدمى .. يتضرع :

ــ سيتحرر الشيطان من سجنه الى عقول الناس يوسوس لهم .

دفعته بكل قوتى صرخت وأنا أشـق الهـواء بالبلطـة أهوى بها على القمقم :

ــ لن تجد فيه سـوى الهواء العفن .

الجموع التى صمتت منذ دقائق وهى تسمع حوارى مع مناع ..
تجرى مذعورة .. تصرخ :
ــ الشيطان .. الشيطان .
توجست خيفة خامرنى الشك للحظة قصيرة فى جدوى ما أفعله .. فى حقيقة هذا الشيطان .. ترددت قبل ان أهوى بالضربة التالية .. حسمت ترددى وانا أهشم الصندوق الى شظايا صغيرة .. وصيحتى تسبقنى :
ــ أنظروا مابداخله .
ايقونة وخرقة باليه خيطت جيدا بداخلها بقايا قضيب رجل متهرئ .

* * *

حادثت مناع .. سألته عن الأرض الملعونة الححت فى السؤال ..
استعصى على .. أسواره محصنة بالرفض والاصرار أجابنى :
ــ أنك تبحث عن الفناء يا مولاى .
ــ لماذا يا مناع ؟
ــ لأن الحقيقة تعنى الموت .
ــ وصفوة القوم الذين ارسلوا للضياع .. كيف نستردهم ؟
لم يرد على .. نهض فجأة من مكانه .. اختفى .

- ٢١ -

زحام .. هتافات .. اصوات غاضبة متناثرة .. جماعة من النسوة يقتحمن على القصر فى غضب جامح .. فزعت من نومى .. اسرعت خارج الحجرة .. مناع وقد علا وجهه الشحوب .. يحاول وقف التيار العاتى ..
يصرخ فى فتاة جميلة :
ــ ما دهاك يا يسمينة ؟!
النساء .. ساخطات .. شققن الثياب فبانت الصدور والنهود ..
والبطون .. عبثا ما يفعلون ياسمينة تصرخ فى وجه مناع :

ـــ خلى بنا المكان نرى مولانا .

تقدمت نحوى .. تمتمت :

ـــ جئنا نستعيذ بك من الشيطان .

ـــ اى شـــيطان ؟

ـــ الرجل يا مولاى .

ابتسمت .. غمغمت :

ـــ بات الرجلُ شـــيطانا .

ـــ ولسنا له سوى سقط المتاع .

ـــ تناوشـــين القـــول .

ـــ مولاى .. ما نصيب المرأة من الجَنة .

ـــ الكثـــير .

ـــ بل اقل القليل .

ـــ كيف وانتم تشاركون الرجل فى كل المتع .

ـــ مولاىَ .. للرجل أن يختار المرأة التى يشـــتهيها ولة منها آثنان واربعون جارية .. اما المرأة فمســـلوبة الارادة والحقوقَ .. ليس عليهـــا الا أن تقنع بامتاع الرجل والطاعة العمياء .. قلت بحسم :

ـــ ماذا تريدين ؟

ـــ العدل يا مولاى أن يكون للمرأة مثل ما للرجل .

ضحكت .. استرابت يا سمينة .. وأنا اسالها :

ـــ تريدين أن يكون للمرأة اثنان واربعون رجلا محظياً .

تغامزت النســـوة .. خبّط منـــاع كفا على كف تعالت الهمســـات واحداهن تعقب :

ـــ وماذا تفعل المرأة اذا رغبها كل هذا العدد فى ليلة واحدة ؟

شـــهقت الثانيـــة :

ـــ يا وليتاه كيف ولا تملك سوى ثقب واحد !!

قالت ياســـمينة بذكاء :

ـــ لَيس هذا مقصدى يامولاى .

ـــ اوضحى .

ـــ نعود الى قانون الأرض .. امرأة لكل رجل .

ـــ وماذا بعــد ؟

ـــ المطلب الثانى .

ـــ تكلمـــى .

ـــ الأمومة يامولاى .

ـــ تقصــدين المطب الثانى .

ـــ نريد ان نعود لطبيعتنا الأولى .. نحمل ونلد .

تساءلت فى دهشـــة :

ـــ لكن الأمومة تعنى عودة العذاب .

ـــ وماذا تقول عن العمل .

حلت فترة صمت قصيرة .. قبل أن تستطرد ياسمينة قائلة :

ـــ لم ننسى غرائزنا يامـــولاى .. نريد أطفـــالا نشـــقى بهم .. نســـعد معهم .

ـــ لكن الا تعلمين أن الانجاب يعنى الموت .

الأصوات تتعالى .. تتحد فى حزمة الاصرار :

ـــ نريد الأمومة .. نريد الموت .

تزاحمت الصرخات .. تداخلت الآهات :

ـــ الموت .. الموت .

قلت بضـــيق مكتوم :

ـــ جنة قاطنوها مجانين وأنا لست سوى واحد منهم .

ـ ٢٢ ـ

البسطاوى متهم بالسرقة .. أول سرقة تحدث فى تاريخ الجنـــة .. أتانى مكبلا .. سألته فى لين :

ـــ الا تعلم أن السرقة جريمة .

ـــ ليس بعد للجوع شىء يامولاى .

ـ ولماذا لا تعمل حتى تأكل ؟

ـ وعدتنا بالجنة التى لا عمل فيها وأخلفت وعدك .

ـ كل ما أريده لكم هو الجنة الحقيقية .

ـ الناس راضون .. سعداء .. بجنتهم .

ـ رضـــاء مؤقت بالتخلف .. لأنهم لم يعرفوا الحضـــارة .. فاذا مارسوها لم يعد فى استطاعتهم العودة الى قانون التخلف .

ـ دعهم وشـــأنهم يامولاى فهم يأكلون ويشربون وينامون ويتمتعون بمتعهم الحســية ..

ـ من اجل هذا فقدتم الابتسـامة .

ـ الابتسامة تعنى العذاب والعمــل يعنى العذاب .. ارحل عنا .. فمنذ أن حللت ديارنا .. حلت علينا الفــوضى والخــراب وودعنا ســفينة الســلام .

ـ ما تسميه الفوضى والخراب هو نتاج التحول .. هو آلام الوضع .

ـ لماذا .. وقطوف الجنة دانيــة .

ـ ضاق صدرى بنقاشك .. فقد جئت الينا متهما بالسرقة والامتناع عن العمــل .

ـ للمتهم الحق فى الدفاع عن نفسه .

ـ بماذا تدفع تهمتك .

ـ اننى لم أخرق قانون الجنة .. فكل شىء فيها مباح .

ـ الاباحة مرتبطة بالعمل .. ومن يرفض العمل ليس مكانه هنا .

ـ اى مكان أفضل من هذا الجحيم .

ـ اننى لن أســجنك .

قال بســخرية :

ـ اذن فاقتلنى !!

ـ بل سأرسلك للأرض الملعونة .

فى تلك اللحظــة .. جثا على الأرض .. قبل قدمى عادت انظــاره

لتفرش وجهى .. انه يرتجف ارتجافات الخوف .. يبتهل يستجدى :

ــ لا .. لا يامولاى .. اننى امتثل لقانونك .

* * *

عـدت الى سـفين الخاطر .. بعد أن فككت عن بسـطاوى قيوده وافرجت عنه .. كيف حوله الرعب من موقف العناد الى استسلام كامل ..

ما هذه الأرض الملعونة التى يرفض الجميع الحديث عنها .. لماذا يخشى الناس منها .. سفين الخاطر بلا ربان بعيدة عن الشاطىء عن بر الامان .. تتلاعب بها الأمواج يظلل سـمائها الغمـوض .. تهب عليهـا اعاصـير الفضول .. لا تجد من ينقذها .. يساعدها ليصـل بها الى بر الحقيقة .. معى الأيقونة التى عثرت عليها فى صندوق الشـيطان .. أطالعها علنى اعثر على اجابة شافية لما يعتمل داخلى من اسئلة .. هذه الرسوم ماذا تعنى ؟ ! الجمجمة تعنى الموت .. المصـباح يعنى المعرفة .. ولكن هذا الوجه الذى اراه محفورا بعناية ماذا تعنى رموزه انه وجه قرد فى جسـد انسان .. فهل هذا تنبؤ لمستقبل الانسان هل يستحول الانسان الى قرد ؟! وذلك النهر الى أين ينتهى .. انه ينتهى الى الجمجمة .. الى الموت .. هل الأرض الملعونة هى نهاية هذا النهر .. وتلك الشمس التى تتسع فوق صـفحة المياه .. تحرقها كيف ؟! الأسئلة تحاصرنى دون أن اعثر على اجابة شافية .. ولكن هناك فى هذا الوادى الملعون ينام السر تحت قشرة من الغموض .. سر هؤلاء الناس .. سر وجودهم .. خلودهم .. كلهم يخشـون الحديث عن هذا الوادى الملعون .. على أن اعثر على الحقيقة ..

حاول مناع أن يثنينى عن عزمى دون جدوى فقد قررت الرحيل .. اعددت كل شيء الطعام والماء .. ومعدات التسلق والحفر .. تدفعنى ارادة المغرية لتخطى هذا المجهول الجاثم على بعد أميال .. وفى فجر أحدى الأيام .. حملت أمتعتى فوق بغلين وبدأت رحلتى .. وقبل أن اصل الى نهر الشيطان وجدت شبحا فى انتظارى .. لم يكن سوى ياسمينة سألتها اجابتنى :

ـ اريد صحبتك !!

أصرت .. استسلمت لاصرارها .. بدأت معها مسيرة رحلة المجهول .. سألتنى فى فضول :

ـ الى أين يا مولاى ؟

ـ الى الحقيقة .

ـ الحقيقة لن تجدها .

ـ حتى اذا عجزت عن العثور عليها .. فهى تستحق المحاولة .

ـ مولاى .. أنك تبحث عن الحقيقة فى اعماق الوهم ..

* * *

وصلنا مجرى الشيطان .. ثلاث أيام .. نواصل فيها الليل بالنهار .. مجرد سويعات قليلة نقضيها فى الراحة نعود بعدها الى السير .. اقتربنا من دغل كثيف استطلعت المكان .. مستنقعات هائلة .. فى عمق مياهها يحوم الخطر .. الثعابين والتماسيح عدت الى مكانى .. رأيت ياسمينة تنتفض .. تتمتم « اللعنة .. اللعنة » على مقربة منها البغل « أرقم » يهتز اهتزازات الموت .. وعلى مسافة قريبة ثعبان ضخم يتلوى مبتعدا عن المكان .. ربت على كتفها .. أخذت رأسها فوق صدرى ..

ـ لن نحتاجه بعد الآن فطريقنا الماء .

بدانا في صنع قارب بدائي .. بعض فروع أشجار ربطناها جيدا .. سفينة نوح .. قذفنا بها الى مجرى الشيطان فوق سطحها احمالنا واجسادنا .. البغل « انشراح » ينظر الينا في عتاب لفراقنا له والموج يحملنا الى المجهول .. يومان والموج يلاطم القارب .. أخرجت الأيقونة .. ارتعدت ياسمينة فور رؤيتها صرخت !

ـ أيقونة الشيطان .

سألتها :

ـ ماذا تعني بكلماتك ؟

اجابني :

ـ طريقها طريق الشيطان يامولاى .

* * *

احسست بالرغبة في النوم .. رسوت بالقارب على الشاطيء .. ياسمينة تعد مكانا بجوارى .. وضعت جسدى .. رحت في نوم عميق .. قمت من نومى مفزوعا .. صوت فيه بحة ألم ورعب .. يردد .. « ملعون .. ملعون » فرشت بعيني المكان .. ياسمينة تنام بجوارى نوم الملائكة .. نهضت من مكاني ر يت شبحا يجرى كأنه الشهب .. ترددت وأنا احاول اللحاق به .. أسرعت أعدو خلفه .. توقف عندما اقتربت منه عاد يمتطي الرياح .. والسؤال الحائر .. ما هذا الشبح .. لماذا يدفعني الى تعقبه ؟! صرخت بأعلى صوتي :

ـ من أنت وماذا تريد مني ؟!

ما سمعت سوى الصمت .. وهمسات الريح المجنونة .. الشكوك تساورني .. هل ما أراه حقيقة أم أنها خيالات .. اضغاث احلام .. ماهذا الشيء الذى أعدو خلفه .. انسان .. حيوان .. شبح .. طيف مجرد

سراب ؟! وفى اللحظة التى قررت فيها العودة .. اقترب الطيف منى .. ازداد اقترابا .. التصاقا .. حاولت تبين ملامحه .. خطوت نحوه .. انتابنى الذعر ارتجفت .. وأنا أراه يرتفع فى الفضاء لسان من لهب يحرق فى طريقه الاشجار .

بدأت أتحسس طريق العودة .. لقد ضللت الطريق .. درت دورتين .. عدت من حيث بدأت .. حل الظلام .. صرخت .. « ياسمينة .. ياسمينة » صدى الصوت يتردد .. لا أسمع سوى زفرة الريح .. حفيف أنفاس الكائنات قبل أن تغفو .. أحسست بالأعياء .. الحمى تجرفنى الى بؤرتها جسدى يشتعل حرارة .. رأسى تنفجر .. لم أستطع الوقوف .. تهاوى جسدى .. ارتطمت بالأرض غبت عن الوعى .. أفقت .. رأسى تتوسد فخذ ياسمينة .. نظرت اليها من خلال سحابة داكنة .. سألتها :

ـ كيف عثرت على ؟

تمتمت .. لم أسمع كلماتها فقد رحت من جديد فى غيبوبة .

* * *

اجتزت مرحلة الخطر .. بعد أيام كنا نستقل القارب من جديد .. فوق موج مجرى الشيطان .. بدأنا نجدف .. ياسمينة تسألنى ؟

ـ مولاى .. ان الالهه لا تصيبهم علة .. ولا مكروه .

ضحكت .. استرابت .. وأنا اجيبها :

ـ اذا كانوا حقا آلهة يا رفيقتى .

ردت متسائلة والدهشة تعصرها :

ـ قلت رفيقتك يا مولاى .

ـ مهلا يا يسمينة ما قصدت بك سوءا .

ـ مولاى .. فداك نفسى وحياتى أن تشرفنى بكل هذا المقام الرفيع فكيف للعابد أن يرتقى للمعبود . ضممتها الى .. رغبتها .. قبلتها

استسلمت ليدى .. همست لى :

ـ خذ من أعماق البحر كنوزه .

قلت لها وأنا اغطى جسدها العارى :

ـ الاله لا يسطو على نفائس البشر .

القارب المتسكع ينحدر فوق صفحة المياه بسرعة مجنونة نحو شـلال هادر .. بدأت استجمع ارادتى .. خيوط أفكارى .. انه الموت .. وهذا الشيء من جديد .. لسان اللهب على بعد أمتار يتراقص فوق الشلال .. يجذبنا .. يشدنا .. سألت يا سمينة :

ـ هل ترينـة .

أومأت بالنفى .. صرخت :

ـ انقذنا يا مولاى قبل ان نضيع فى الأعماق .

لا أدرى هل هى الصدفة عندما تلعب دورا مهما فى حياة المخلوقات .. أم انها صرخة يا سمينة .. أم انها احد معجزاتى وفرس النهر يحمل القارب فوق جسـده الضخم الى الشـاطئ .. الى بر الامان .. ويا سـمينة تقبل قـدمى :

ـ احدى معجزات مولاى .. انتشيت .. سرى بداخلى اعتقاد أننى هذا الاله .. ابتسمت وياسمينة تستطرد قائلة :

ـ كم أحب مولاى .

كم هو رائع ذلك الشـلال نقاط من الفضة تتسـاقط فوق مياه النهر الزرقاء .. تذوب فى بحيرة واسعة .. نهاية نهر الشيطان .. الأرض أمامى منبسطة .. شاسـعة .. أين اذن هذه الأرض الملعونة .. لاشىء سـوى السماء وهى تنطبق على الأرض .. وقول مناع مازال يتردد فى أعماقى عندما تصل اليها تفقد اثرها .. كيف أصل اليها ثم أفقد اثرها ؟! بدأت اجـول الأرض .. ثلاث ليالى ونحن نتخبط فى ارجائها .. وصلنا جبل شاهق .. ياسـمينة تصرخ :

ـ جبل الشرود .

بدأت اصـعده .. ابيض اللون .. على قمته تتراكم كتل الجليد ..

الياس ينشب مخالبه وانا اعتلى القمة .. لا شيء خلفها .. كثبان رملية تحيطها من كل جانب .. هبطت الجبل .. خطواتي حذرة فوق سطح الجبل الأملس .. فجاة تقفز الى دائرة رؤيتي ظبيا ابيضا ... دهشت .. ازدرت ريقى .. لم اذق اللحم منذ ان حللت الأرض .. اقتربت من الظبى .. او اقترب منى .. لا ادرى .. لم يجفل لرؤيتى سحبت السكين من غمده .. ازددت اقترابا منه .. التصاقا .. امسكت برقبته هويت بالسكين عليه .. رفع راسه نحوى ذعرت فقد كان راسه يحمل وجه انسان .. حاولت السيطرة على مشاعرى والظبى يختفى من امامى .. يذوب فى شعاب الجبل .. للحظات قصيرة تسمرت قدماى .. لم استطع التقدم خطوة واحدة .. اسال نفسى .. هل ما رايت حقيقة ام هو التعب والارهاق .. مجرد خيالات .. لكن الظبى كان حقيقة لمستها .. وهذا السكين الذى شهرته ومازال فى قبضة يدى حقيقة .. وتلك آثار حوافره فوق الصخور الجيرية الملساء ايضا .. حقيقة .. اذن فاين هو الوهم ؟!

عدت الى السفح .. ياسمينة فى انتظارى .. الشحوب والقلق باديان على ملامحى .. سالتنى .. لم اجبها فالاله لا يشكو .. ولا يعترف بضعفه وقلة حيلته .. فى تلك الليلة بت افكر .. اين تلك الأرض الملعونة .. الأيقونة .. نعم الأيقونة .. بتلك البحيرة الصامتة التى يصب فيها النهر وهذه الأصابع الممتدة التى تقبض على شعاع الشمس الساقطة فوق المياه .. ماذا تعنى تلك الأصابع .. هذا الشعاع الساقط ؟!

كيف يعجز الاله عن تفسير سر أيقونة الشيطان .. لا يمكن ان يكون مثل هذا العجز لاله .. ضقت بنفسى .. ياسمينة تواسينى .. تخفف عنى :

— مولاى لا تحمل هما .

— ياسمينة انها هموم البحث عن الحقيقة .

استيقظت من نومى .. حاولت النهوض .. لم أستطع .. لم أقدر .. تبضات قوية غير مرئية تشل حركتى .. ساقى .. قدمى .. يدى .. تعوقنى عن الحركة .. عن التقدم .. وطنين فى اذنى .. لا تطأ تلك الأرض الملعونة ـ حاولت التخلص من تلك القبضات القوية .. بلا جدوى .. أصفاد كبلت بها أطرافى .. صرخت صرخة مدوية :

ـ كيف تفعلون هذا يالهكم !!

انفكت القبضات .. ورياح عاتية تقتلع الأشجار .. أعقبها دوى هائل .. فرقعة .. فرقعات . الأرض تميد بى .. تهتز .. تنشق .. ما هذا .. ماذا أسمع ؟! صليل سيوف .. ضربات خناجر .. أزيز سهام .. قوى هائلة تحيطنى .. تحمينى انها معركة بين قوى الخير والشر .. غير مرئية ولكنى أحس بلهثات المحاربين .. بالحركة تموج حولى .. بسنابك الخيل اعتليت ربوة .. صرخت :

ـ قاتلوهم .. اذبحوهم .. هيا جنودى .. الموت للشياطين .

احتدمت المعركة .. علت صرخات الموت وصوتى مازال يحث .. ويشجع :

ـ تعقبوا فلولهم .. لا تتركوا شيطانا واحدا يفلت من عقابكم .

بعدها هدأت الأصوات .. عم السكوت .. احتوى المكان الصمت .. ياسمينة تقف مشدوهة .. والسماء تنزف قطراتها .. لم تكن سوى قطرات دم !!

انها نهاية المعركة .. والطنين من جديد :

ـ مولاى .. نحن جندك المخلصين .

أحسست بنشوة غريبة .. جند متخفى .. تذود عنى .. تصون ذاتى .. ترفع رايتى تستشهد من أجلى .. بات الكون ملكى .. تحت قدمى .. طوع ارادتى .. أسيره .. أحركه .. صرخت بأعلى صوتى :

ـ أنا الإله .. أنا الإله .

لن تستطع بعد اليوم أى قوة على الأرض مهما عظم شأنها أن تتحدى ارادتى او تنال منى وتلك القوى الخفيـة تحمينى .. وهذه الجنـود المؤلفة قلوبها على حبى تدافع عنى .. صرخت من جديد :

ـ الاله يناديكم .. انصتوا جيدا فلتخشـع الكائنات .. وليسـجد الوجود .. للاله الأعظم . فى تلك اللحظة سمعت أنشودة شكر .. سيمفونية رائعـة .. صـوت الريح وهفهفة الأشـجار وزقزقة العصـافير وهمس المجهـول .. كلها فى حزمة صـوتية واحدة .. خلعت على الكون ثوبا من الألفة .. من المحبة .. من السعادة .. تراقصـت أفانين الأشـجار .. سجدت الكائنات فى صـلاة صامتة .. اتجهت بانظارى الى السـماء .. رفعت يدى شددتهما الى أعلى .. قفزت قفزة هائلة .. صرخت :

ـ لقد ملكت الكون .. لقد ملكت الكون .

انزلقت قدمى .. لم أدر بعدها الا وجسدى يتدحرج لسفح الجبل .. الألم ينشب أظافره فى جسدى .. لقد التوى كاحلي ولأول مرة أرى ياسمينة وقد كلل وجهها الحزن والألم تتمتم :

ـ كنت قلقه عليك يا مولاى .

أخذتها فى أحضـانى .. طفرت الدموع من عينيها .. صحت مهللا :

ـ ياسمينة أنت تبكين !!

قفزت فوق الأرض .. ترقص .. وتغنى .. وتزغرد .

* * *

جاءنى للهاتف .. الطيف من جديد :

ـ عد الى قومك .

سـألته :

ـ لمـاذا ؟

ـ ساء حالهم .. وتبدلت أمورهم .. انظر .

استيقظت ويد ياسمينة تهزني .

ــ مولاى .. مولاى أنك ترتجف .

هدات انفاسى تمتمت :

ــ ما رايته افزعنى .

ــ ماذا رايت يا مولاى ؟

ــ كان كل شيء حطاما .

* * *

تجادلت وياسمينة .. شقت على عصا الطاعة .. اغوتنى .. اتهمتنى بالخنوثة .. صرخت محتجة :

ــ لماذا ترفضنى .. الست فى جمال تلك المرأة التى اختليت بها وانجبت منها طفلا !!

ازدادت حدة ثورتها .. حاولت تهدئتها .. لكنها رحلت عنى وهى تهدد .. وتتوعد ..

الهاتف من جديد يأتينى فى صورة لم أعهدها .. جسد انسان ورأس طائر له شفتان .. وعشرات من الأجنحة تحمله وهو يفهفه بها فوق رأسى !!

تعجبت فكيف للطيف هذه الابتسامة الغريبة .. أنه يبتسم لا أدرى سخرية أم رثاء .. وقد قبض باحدى يديه على شيء لامع .. أثار انتباهى .. وهو يهمس لى :

ــ انظر ..

ــ أنظر الى ماذا ؟

ــ الى هذا اللوح المكتوب .

فك قبضته .. لم تكن سوى الأيقونة .. استيقظت منزوعا .. لأبحث عن الأيقونة .. انها مازالت معلقة حول عنقى .. حقا انها تحمل سر الملكة الملعونة .. نهضت من مكانى .. مازلت ارتعد .. همس المجهول يتحول الى صرخات .. زعقات داخلى .. « أنت منقذ الناس .. » خفف عنهم

آلامهم .. امسح عنهم احزانهم » تمكن مني هذا الهاتف .. لست سوى الاله في ثوب بشرى .. حل بك .. وخلطت به .. انت هو .. وهو أنت .. صانع المعجزات القاهر .. القادر .. الماحق .. أرتقيت ربوة عالية رفعت يدى الى أعلى زعقت :

ـ يا شمس اغربى .. ويا سماء أمطرى .. كررتها مرة واثنتين وثلاث .

احتوتنى الدهشة .. لا الشمس انصاعت لأوامرى ولا السماء نفذت ارادتى .. أن الطبيعة تتمرد على الهها .. ليس أمامى الا أن اعاقبها .. صرخت من جديد ألقى باوامرى :

ـ أيا فرسان النار الى السحاب اذيبوه .. بددوه .. حتى لا يتمرد مرة ثانية .. ايا فرسان الظلام الى الشمس اظلموا افقها .. فتتوا اجزائها وانثروها فى الكون .. عقابا على غرورها ..

بعد أن هدرت كلماتى فى الفضاء .. رايت الرعد يدوى .. والبرق يأتى .. والشمس تختفى خلف السحاب .. والمطر ينهمر .. ثيابى يبللها الماء وانا اقفز فرحا .. وأصرخ :

ـ عفوت عنكم .. عفوت عنكم

* * *

فككت الأيقونة عن عنقى .. تجولت عيناى فوق نقوشها .. تلك الأشعة التى تخترق المياه .. هل هى المعرفة .. هل تخفى تلك المياه سر الملكة الملعونة وعلى المعرفة أن تصل لأعماقها .. ثم ماذا تعنى تلك الأصابع التى تقبض على الشعاع .. هل هو العقل .. أم هى الارادة .. وتلك البحيرة الراكدة التى اراها الآن امامى أليست هى هذا المخطوط المحفور بعناية فوق الأيقونة ؟؟ . لهفة المعرفة ترفع راياتها .. وأنا اتزحلق حول شطئان البحيرة .. أين حدودها .. الى أين تنتهى ؟! انصرم النهار ومازلت أتجول .. الشمس ترسل أشعتها الى البحيرة .. المياه راكدة .. على بعد أمتار ابصرت نافورة ضخمة المياه تتدفق منها .. تذكرت .. أننى رأيت تلك

النافورة على الوجه الآخر من الأيقـونة .. فحصـتها بدقة .. حقا أنهـا هي .. ساءلت نفسي وقتها هل أنا في الطريق الصحيح ؟!

* * *

استيقظت على أصوات ولولة .. وبكاء .. نظرت حولي .. بجواري امرأة عجـوز .. ضـاعت ملامحها وقد حفرت السـنون خطوطهـا فوق وجهها .. ارتعدت فرائصي وصوتي يضج بالسؤال :

ـ من أنت ؟!

لم تجبني .. بكت .. عاودت سؤالها وأنا ابتعد عنها .. أجابتني بصـوت وهن :

ـ لا تذهب هناك يا مولاي .

ـ أي مكان تعنين ؟ .

ـ المدينة الملعونة يا مولاي من وطئها ملعون ومن عاد منها ملعون .

قلت وقد احتواني الذهول :

ـ انت ياسـمينة .

ـ لم أعد كذلك بعد أن واريت الخلود قبره .

شقّ علي أمرها وهي تبكي .. تولول .. تستعطف :

ـ انقذني يا مولاي .. أعد لي صـباي .

سألتها في نهم شديد بالمعرفة :

ـ أين .. أين تلك الأرض الملعونة .

تبخر تسـاؤلي وهي تبتعد عني مسرعة يذوب طيفها في جوف الآفاق تصرخ وقد احتواها اليأس :

ـ لست سوى أكذوبة .. أكذوبة .

في تلك الليلة لم يغمض لي جفن .. وفي اللحظـة التي قررت فيهـا العودة الى شعبي .. أتاني الهاتف يهمس لي :

ـ انهض .. انهض . فقد حان ميعاد الرحيل .

وعنـدما سألته :

ـ الرحيل الى اهلي وعشيرتي ؟

اجابني :

ـ بل الرحيل للحقيقة .

سـألته من جديد :

ـ اية حقيقـة ؟!

اجابني في رقة ونعومة :

ـ لتباركها وتطهرها من لعنتها .

تجادلت مع نفسي .. جدالا شرسـا .. عنيفا .. قاسيا .. معركة احتدمت فيها الحجج والأسـانيد سـاحة صراع بين العودة والبقاء رغبتي الجارفة في الوصول الى الحقيقة .. ياسمينة التي تحولت الى عجوز شمطاء بعد ان وطئت الأرض الملعونة .. عجزي عن اعادتها لشـبابها .. خشيتي أن اصبح مثلها .. لكن الآلهة لا يعتريهم الوهن ولا تصيبهم الشيخوخة .. وقبل أن تنتهي لحظات الصراع .. سمعت صرخة .. صرخات .. أسرعت أتعقب صدى الصوت .. انها ياسمينة تنزع شعر راسـها تلف وتدور حول نفسـها .. تمسـك بحجر تهشـم به راسها .. اسرعت نحوها أحاول منعها صرخت :

ـ دعني وشـأني .

لقد خبلت ياسمينة .. حاولت من جديد تطويقها فكت قبضـتي عنها ابتعدت .. صرخت من جديد :

ـ أكذوبة .. أكذوبة .. كل الآلهـة أكذوبة اندفعت ترتقي قمـة الجبل .. بعد ذلك بلحظات رأيته جسدها يتدحرج في الهواء الى سفح الجبل وصـوتها يردد :

ـ أكذوبة .. أكذوبة .

* * *

اخيرا .. داسـت قدماى الأرض الملعونة .. نثرت ترابها .. جلت ارجائها .. ابحث عن حقيقة تهديني لسر اللعنة .. تطلعت الى وجهي على صفحة مياه جدول مازلت كما أنا لم يعتريني الوهن أو الكبر ابتسمت .. هكذا الآلهة لا تصيبهم اللعنة .. بدأ الظلام يكسو كلشيء بردائه الرمادي وصمته المهيب .. انتحيت ركنا فى سفح الجبل لاقضى فيه بقية الليل وقد ملك الياس على نفسى أن أعثر على سر هذه اللعنة .. عدت بذاكرتي الى الأحداث التي مرت بي .. الأيقونة وياسمينة والهاتف الذى خاصمني منذ ان حللت الأرض الملعونة .. لم يعد يأتيني .. غفوت لعله يحادثني دون جدوى .. وعندما استيقظت .. كنت أحمل هما ثقيلا .. انتابني فزع هائل .. بريق يخطف بصرى .. على بعد أمتار .. الأرض تشع ضوءا كيف .. اتجهت الى الضوء .. أين مصدره .. هل هي حيوانات فوسفورية !؟ أمسكت بحفنة من التراب .. نثرتها .. تناثر عنقود من الضوء فى الفضاء .. ضحكت بهستيريا .. اهتز جسدى .. وجداني .. صرخت :

ـ حتى الأرض تحتفى بالالة .. وقبل ان تسكن كلماتي فى فضاء الصمت رأيت أمامي كهفا .. بنلية .. مسحت عنها التراب .. نفس رسم الأيقونة .. للشعاع النافذ الى الأعماق فى هذه اللحظة .. تأكد لدى .. ان الأعماق باطن الأرض .. وليس .. أعماق البحيرة .. بدأت من فورى فى فتح باب الكهف .. صخور مدببة تغلق عني الحقيقة .. أحاول بالمعول أن افتح ثغرة .. يوم كامل وأنا اكرر محاولاتي .. اخيرا نجحت .. وقبل ان اعبر الى داخل الكهف لملمت حاجياتي وأشيائي المبعثرة .. المؤونة والماء والمعدات .

مسيرة يوم داخل الكهف دون ان أصل لشيء تعودت عيني على الظلام .. بدأت أتبين معالم الطريق الذى اسلكه .. انحدار هائل .. تشبثت بالصخور .. تدحرج جسدى .. الى أسفل الى الأعماق .. فوق سطح بحيرة آسنة .. صحت فرحا وأنا أسبح الى شاطئ البحيرة .. وشعاع يفيض بضوئه على سطح مياهها لقد قاربت الحقيقة .. لكن

ما عثرت عليـــة .. أصـــابني باليأس .. بالاحباط .. فلم أصـــل لنبع الشماع .. ولم اســـتطع ترجمة رســـم الأيقونة لأصـــل للحقيقة وسؤالى الحاضر .. وماذا بعد .. اى طريق أســـلك وامامى عدة سراديب .. بدأت استطلع المكان بعين فاحصة علنى اهتدى الى سرداب الحقيقـــة .. خارت قواى وانا اطعم بعض الاعشاب بعد أن تبعثرت مؤوننى فى شـــعاب الكهف ولم استطع العثور عليها .. احساس غامض ينتابنى أننى صريع هذا المكان وانا اعثر على جماجم بشرية وســـؤال يهز وجدانى .. كيف بالعودة .. والى متى ساظل صامدا ؟! .. فى الليل جاءنى الهاتف مبتسما .. ســـعدت برؤيته .. فقد هجرنى فترة طويلة .. طمأننى :

ـــ لا تخشى فكلنا فى حراستك .

قررت بعدها ان أخاطر .. أن اكمل مسيرتى بلا طعام او ماء فالقوى الخفية تحرسنى حتى من الجوع والعطش .. بدأت اتحسس طريقى .. نعم هذا هو الطريق الذى على أن اسلكه .. خطوات سريعة .. واثقة .. التعب بدأ يحل بى .. الجوع والعطش ينشبان مخالبهما فى جسدى كم أريد قطرة ماء تروينى .. لم أعد استطيع التقدم خطوة واحدة .. أنها النهاية لا ريب فى ذلك .. صرخت قبل ان تحتوينى الغيبوبة :

ـــ كيف تتخلون عن الهكم !!

ـ ٢٥ ـ

صور غريبة مشوشة تمر بى .. رجل وقد ثبت فوق جبهته مصباح كهربائى .. صاح لزميله :

ـــ أنظـــر ماذا وجدت .

زميله يرد عليه ســـاخرا :

ـــ جئنا نبحث عن الآثار والمخطوطات لا عن بقايا القرود .

قال وهو يسلط على وجهى شعاع مصباحه :

ـــ هل رأيت هذا الوجه من قبل .. او هذا الشعر الكث .. هيا احمله

معى . فقد يفيد معامل الأبحاث . الصور تتابع .. سيارة اسعاف تحملنى بسرعة رهيبة الى احدى المستشفيات .. أودعونى فى احـدى حجراتها .. جرعات قوية من العــلاج .. فقد كنت فوق قارب الموت .. وعندما استفقت رايت جسدى مشدودا الى سرير .

***

ســألت :

ــ لمــاذا ؟ ؟

اجابنى أحدهم :

ــ انت الانسان القرد .

ضحكت .. دهشت المرضـــة .. استدعت الطبيب ... ســألنى أن اضحك مرة ثانية .

ــ غرقت فى الشكوك .. أين أنا ؟ وما هؤلاء الناس ؟!

انهم من عوالم متقــدمة .. فكل شىء لديهم يدار بالأزرار .. حركة الأبواب .. النوافذ .. الجدران .. الاثاث ... ما على الانسان الا أن يضغط على زر ... فيلبى طلبه فى الحال زر للطعــام .. للشراب ... بل أكثر من هذا نوع الطعام أو الشراب .. او اسلوب الترفية .. المستشفى كله يعمل بالكمبيوتر والانســان الآلى .. لا يوجد فى المســتشفى من البشر ســوى ثلاثة .. المدير ومساعداه .

فور لقائى بالطبيب الح على أن اضحك سألته :

ــ لمــاذا ؟ !

اجابنى والفضول يعصره :

ــ كيف للقرد القدرة على الضحك ؟

ــ لا أدرى من منا هذا القرد !

لم يعر لأهاننتى انتباها .. سألنى من جديد :

ــ حاول أن تضحك فقد يفيدك هذا عند محاكمتك .

امامى ممرضـــة جميلة .. رفعت طرف ثوبها .. مثل ما كنت افعل عنـــدما كنت نزيل احدى المستشفيات .. ساعتها كانت ضـــحكتى ترن .. لكننى اصبت بالدهشـــة فلم ار سوى كمبيوتر بين فخذيهـــا .. أصـــابنى الوجوم .. كيف هي بهذا الاتقان وتلك الدقة فى الصـــناعة .. للدرجة التى لم اكتشف أنها امراة آلية .. صاحت الممرضة معلقة :

ــ أنظر يادكتور ماذا اعترى القرد ؟

فى تلك اللحظـة انفتحت كوة صـــغيرة فى جدار ذاكرتى .. حقا اى مستشفى تلك التي كنت أمارس فيها هوايتى المفضلة .. فى أوقات ينحسر الثوب عن فخذان لا يسترهما سروال .. ويتحول وجه الفتاة الى قطعة من اللحم الأحمر خجلا .. وفى مرات أخرى أرى سروالا كله ثقوب .. مهلهل .. لينفذ منه الهـــواء والماء !! وتلطمنى كلمات الســـباب .. والتحقـــير .. بلا جدوى .. لقد اصبحت احدى عاداتي السمجة عندما أكون نزيل أحـــدى المستشفيات .. الكوة تزداد اتساعا .. نوال الحكيمة عندما اختليت بها فى حجرة بالمستشفى .. كنت وحيدا .. أتت الى تعرض بضاعتها .. خلعت ملابســـها أخذت تخطـــو امامى عارية .. رائحة غلاية .. جسدها قـــوى البنيان ..رائع التقاسيم بالونتان لم تتهدلا بعد .. الشعر يكسو أســـفل البطن .. شعر اســـمر داكن .. اغرتنى .. ثم بدأت تربت على جســـدى بيدها الرقيقة .. تهمس لى :

ــ كم أنت عنيـــد .

يدها تتزحلق الى اسفل .. الى أسفل .. وأنا اغوص الى الاعماق .. الى أسفل .. الى الحظة التى انفتح فيها الباب لنرى أمامنا مدير المستشفى وهو يقف متأملا للجسدان العاريان جسدا واحدا لا يسترهما سوى فضـــاء الحجرة .. وضجيج تأوهات نونو الخليعة .. الكوة تزداد اتساعـا .. نوال فصـــلت من عملها .. اتت الى باكية .. تطلب الثمن .. رفضـــت زواجها انتحرت .. استيقظت والممرضة تصرخ :

ــ انه يبكى يادكتور .. القرد يبكى .

عادت الكوة تنغلق من جـــديد .. والدمــوع تنهمر .. لا ادرى لم ..
ولكننى كنت فى حالة من اليأس غريبة .

***

بعد ايام وبعد ان اســتردت عافيتى بدأت الابحاث .. تحليلات ..
واجهزة .. وصور أشعة .. وعينات من كل جسمى حتى الشعر أخذوا منه عينة لتحليلها .. كنت اشــبه بفأر التجارب وهم يجرون على ابحاثهم ..
ويدرسون عن قرب كل ظواهرى الانسانيــة .. من ضــحك وغضــب ..
وابتسام .. وكلام .. وانفعالات حزن أو فرح .. وانعقــدت المؤتمـرات العلميــة للحديث عن هذه الظاهــرة الفريدة كيف لقرد كل هذه الظــواهر الانسانية ؟! كيف لقرد أن يتكلم ؟! افردت الصــحف والمجلات صــفحات للحديث عنى .. وبث التليفزيون والراديو برامج تتحدث عن تطــور القرود الى هذه الحالة التى شق عليهم تفسير ظواهرها .. وأسلوب حياتى .. كيف انام .. وآكل .. وأشرب .. والهــو .. اعتبروها معجزة المعجزات التى عجزوا عن تفسير أسبابها .. شهور وأنا تحت الملاحظة الدقيقة .. الى ان بدأت الشــكوك تنتابهم .. فقد قاموا بتحضــين حيوان منوى مأخوذ منى داخــل رحم قردة .. وآخر داخــل رحم امرأة وكانت النتيجــة مذهلة غير متوقعة .. فقد نجح زرع للحيــوان المنوى داخل المرأة بينما مات مثيله فى رحم القردة .. وقتها قامت القيامة .. وخابت معظم التوقعــات وبــدأت افتراضات جديدة .. تضمنتها مانشيتات الصحف .. « زائر من كوكب آخر » « جاســوس من كوكب متقدم » « القرد الانســان » « اين الحقيقة فى القرد الآتى من السماء ؟ ! »

أخيرا وقفت متهما أمام محكمة الحقيقة .. أو كما اطلقوا عليها محكمة التاريخ .. رئيس المحكمة يســاعده قاضــيان .. وكمبيوتر تغذيه أقوالى واقوال الأدعاء واسئلة هيئــة المحكمة .. واجاباتى .. ليساعد القاضى فى اصــدار الحكم .

سـألنى المـدعى :

ـ من انت ؟

ـ انا زائر من الجنة .

ـ وأين الجنــة ؟

ـ خارج هذا الكهف .

ـ وكيف أتيت ؟

ـ بمساعدة جنودى .. للقوى التى تحرسنى !!

ـ وكيف هى ؟

ـ قوى خفية .. لا يمكن وصفها .

ـ وأين هم الآن ؟!

ـ معـى !

ـ هل تستطيع ان تدلنا عليهم ؟

ـ نحسهم لكن يتعذر علينا رؤيتهم .

ـ اذا كنت لا تستطيع رؤيتهم .. فكيف عرفتهم ؟

ـ الاله دائما له حراسة وجنوده .

ـ كـلامك غريب .

ـ والاغرب منه حديثكم .

قال المـدعى :

ـ ان ما تقوله تهويمات وخرافات .

ـ بل ما أقــوله حقيقة .

ـ أنت اذن الاله .

ـ أنا هو .. وهو أنا .

عاد الصمت يطرق ابواب المكان .. وأنا اسأل :

ـ لكن ما هى تهمتى ؟

ـ التخلف والبدائية .

ـ اذن لماذا هذا السجن الزجاجى ؟

ـ ليس سـجنا .. بل صـندوق زجاجى نقى به الناس احتمالات

العدوى التى قد تنتقل منك .

ــ ولكنكم قضيتم على كافة الفيروسات التى كنت احملها بتعقيمى .

ــ معظمها .. وليس كلها .

ــ ومتى يتحدد مصيرى ؟

ــ بعد انتهاء المحاكمة .

قلت ســاخرا :

ــ اعددتم اذن مسودة حكم الاعدام .

فى تلك اللحظــة ارتجت ارجاء القاعة .. عدة انفعالات متباينة تنتاب الجمهور وهيئة المحكمة .. شعور بالغضــب بالازدراء .. بالدهشــة .. بالحيرة . مرت لحظات كانها دهر .. خلت بعبارتى تلك أننى قد أتيت امرا فريا والمدعى يسألنى يستوثق من كلماتى الفائته :

ــ ماذا قلت ؟

ــ قلت أنكم اعددتم مسودة حكم الاعدام .

فاجأنى بقــوله :

ــ الاعدام كلمة شــطبت نهائيا من قاموس قانون مملكتنا منذ آلاف السنين .. بل اكثر من هذا لقد شطبت نهائياً كلمة العقاب .

ــ تقصد أنه لا عقاب على جريمة .

ــ المجرم عندنا مريض نعالجه ونقومه ولكن لا نعاقبه .

ــ وتتركون عقابه للاله

ــ أى أله تقصــد ؟

ــ لكل عقيدة الاله يذود عنها ويحميها .

ــ الهنا هو القانون .

ــ أذن فلا ثواب ولا عقاب ولا بعث .

ــ الأثابة احدى المبادىء الأساسية التى تقوم عليها حضــارتنا .. وكذا البعث .. لكن ما نقصــده بالبعث هو بعث الانســان أثنــاء حياته لا بعد الموت .

ــ والشياطين والملائكة والجن الصالح والطالح .

ـــ وهو ما تعنية بجند الله .. خرافات دفنت منذ ثلاثة آلاف عام .

ـــ والجنة والنار ؟

ـــ الجنة هى ما تراها امام عينيك .. حضارة شعبنا .. والنار هى التى نشوى عليها اللحم .

ـــ وهذه الحضارة كيف وصلتم اليها ؟

ـــ بالعلم واعمال العقل والارادة والاستفادة من عبر التاريخ .

ـــ رغم انكم تعيشون فى باطن الأرض .

ـــ لهذا المكان تاريخ وحضارة وذكريات مريرة .

ـــ كم أود أن اســـمعها .

ـــ هجرنا الى باطن الأرض هربا من الموت .

ـــ مثلكم مثل نـــوح .

ـــ شتان مابين الأثنين فنوح هذا أشهر على الناس تهديده ليبتز منهم ايمانهم .. اما نحن فلدينا اختيار تام تؤيده وثائق ومستندات .

ـــ لكن انكار الاثابة والعقاب بعد البعث يعنى الفوضى .

ضحك بسخرية أعقبها قولته :

ـــ كما تراها الآن فى مجتمعنا !!

ـــ قد تكون حضـــارتكم مؤقته .. كالبرق الذى يومض فجاة لينطفا بعد ثـــوان .

ـــ تقصد بحديثك حضارة الأرض .

تفكرت قليلا فيما قاله .. سألته فى ريبه :

ـــ وهل هى كذلك ؟

ـــ يا اله القرده .. أن أنكار فكرة الاثابة والعقاب يوم البعث العظيم وحتى أنكار وجود الاله لم ولن يهدم مجتمعا .. انما الانحلال ياتى من داخل المجتمع نفسه بتحلل خلاياه .. فالحضارة بعناصرها الأســـاسـية من ارض وشعب وارادة عمل لا صـــلة بينها وبين الاعتقاد بوجود الجنـــة أو النار أو انكار وجودهما .. بمعنى أنه لا ارتباط بين الحضـــارة وبين هذه المعتقدات فقد توجد حضارة بين شـــعوب لا تؤمن بهذه المعتقدات .. وبالعكس قد تجد

البدائية والتخلف فى شعوب تتمرغ فى وحل هذه الخرافات . والدليل على ذلك أنتم ونحن .. وبعض الشعوب القديمة التى كانت تمثل قمة الحضارة رغم انها لم تكن تعتقد فى وجود الاله كما صورته الأديان فالثواب والعقاب بعد البعث لم يعد حافزا للمجتمعات على الأخذ باسباب الحضارة .

بل وانقلب لضده وأصبح الوسيلة لاجترار الظلم ، الحمار الذى يمتطيه الحاكم وحوله حوارييه من رجال الدين يخوض به برك الفقر والجوع ممنيا قاطنيها بالجنة بعد الموت .. طالبا منهم الصبر على بلائهم انتظارا للآخرة التى سيجدون على جنتهما الراحة التى افتقدوها فى حياتهم والتى سينعمون فى ظلها بكل متع الدنيا التى حرموا منها .. من لم يتزوج سيجد الحور العين .. ومن لم يعثر على حظيرة يسكن فيها سيقطن الجنة .. وتدفع هذه الآمال الكاذبة قطعان البشر للاستسلام للظلم والاستبداد والقهر والاستذلال والجوع والحرمان أملا فى جنة أخرى غير أرضية يقطف ثمارها الانسان بعد موته وكان هذا هو الحادث عندنا قبل أن نثور .. الحكام يمتطون شعوبهم .. يهزون أرجلهم وحولهم حوارييهم يتشدقون بالجنة دون أن يسألهم سائل « ولماذا لا تحرمون أنتم أنفسكم من متع الدنيا .. أملا فى تلك الجنة العذراء » . والغريب أن الناس صادقو وصدقوا من كان يطعنهم من الخلف بكلمات المواساة والتى تحمل فى ثناياها كل الغش والخداع .

هل قرأت أو سمعت عن مجتمع إنهار لأنه لا يؤمن بوجود يوم البعث والحساب ؟!

لم أرد .. استطرد قائلا :

ـ المجتمعات تنهار عندما تنهار أخلاقياتها وتسمو عندما تسمو .. الأنهيار والحضارة مرتبطة أساسا بارادة الشعوب فى البقاء ومقومات الحضارة ليس من بينها هذا الاعتقاد ومع ذلك فان فلسفة العقاب والثواب لا يمكن انكارها فى القوانين الوضعية فهى التى تضع حد المسموح به والممنوع .. وعن فلسفة العقاب الدنيوية هذه أخذت الأديان فكرة العقاب الى مابعد الموت وأخذت أيضا ما ارتبط بفلسفة العقاب تلك .

قلت متسائلا :

تقصد القانون والحاكم الذى ينفذ القانون .

اجابنى :

ــ هذه بديهيات .. بل اقصد بعض الأمور التى يشترك فيها الحاكم مع الاله حق العفو المقرر للحاكم ويقابله حق المغفرة لله .. الحاكم يملك الأرض ومن عليها .. ويقابله الله ملك السموات والأرض .. الحاكم يرى بعيونه (جواسيسه) والله يرى ويسمع هو الآخر واحدى وسائله ملائكته .. الحاكم يخرج عن طاعته خوارج .. والاله خرج عن طاعته ابليس .. وفى نهاية المطاف نجد تطابق غريب مع تحوير ذكى فى الأديان . وهذا ما يدفع للتساؤل لماذا فشلت فكرة الاثابة والعقاب فى دفع الانسان للتحضر .. أن الذى ينتظم تصرفات الفرد باعتباره أحدى الخلايا فى نسيج مجتمعه ليست فكرة الجنة والنار .. بل الاختيار .. فعندما يمتنع الانسان عن ارتكاب جريمة فليس مبعث هذا الامتناع الايمان بفكرة الاثابة والعقاب يوم البعث .. بل مبعثه الآختيار الممنوح له من خلال التفكير فى آثار الفعل والمحاذير والضوابط والممنوعات التى وضعت على هذا الاختيار .. قد يكون الأحساس الدينى فى بعض المجتمعات البدائية وما يستتبعه من فكرة الجنة والنار .. قد يكون هذا الاحساس احد أسباب الممنوعات .. لكن لا يمكن أن ننكر حتى فى وجود مثل هذا الباعث الأسباب الأخرى التى تدخل فى بلورة صورة الاختيار النهائى .. كوضع الفرد الاجتماعى وقدرته على وزن الأمور والأختيار بينهما .. وقوة الردع الوضعى كالخشية من عقاب القانون .. أو لاعتبارات أخلاقية قد يدخل فيها الشعور بالخوف من الاله أو اغضابه .

قلت متسائلا :

ــ ومع ذلك فتوجد أمور لا يعاقب القانون مرتكبها ومع ذلك فقد اجمعت المجتمعات على نبذها وانكارها فمثلا الكذب والنفاق والغش والخداع والنميمة لا عقاب دنيوى عليها فاذا كنا سنترفض بشأنها عقاب الله .. فما عقاب مرتكبها ؟؟

ــ طرح السؤال بهذه الصورة يعنى فهم خاطىء لمعنى العقاب .. ذلك

انه توجد قاعدة جوهرية علينا ألا نتناساها وهى أن الكذب .. والغش .. والخداع .. والنميمة مسميات قديمة .. الحد الفاصل فيها بين الحلال والحرام حسب صيغة الأديان .. وبين الخطأ والصواب حسب صيغة القوانين الوضعية هو عنصر الضرر .. اذا تحقق ضرر نتيجة الاتيان بهذه الأفعال .. اى نوع من الضرر سواء أكان ماديا أو معنويا يعتبر خطأ .. اما اذا لم يحدث فيتراجع الفعل الى دائرة النية التى لا يعاقب الانسان عليها .. والنميمة التى وصفت فى بعض الاحيان بأنها أكل لحم الميت .. اذا كانت تقييما يدثره الواقع فلا خطأ فيها ولا حرام .. تماما كمن ينعت السارق بوصفه .. فهو لا يخرج عن نطاق التقييم المباح .

ــ معنى هذا أن يفلت المجرم الذى لم ينله عقاب القانون اذا كنا سننكر عقاب الآخرة .

ــ أيها القرد الكبير لو استطعت ان تفهم بعقلك فلسفة الحياة لما وجدت غرابة وأنت تطرح مثل هذا السؤال .. أن أحد نواميسها الصراع بين قوى الخير والشر .. فالشر واحد من أعمدة الحياة لا تستقيم بدونه وجه قبيح له وجه آخر حسن . فالموت شر يحاول العلم الاجهاز على أسبابه بشتى الطرق ومقاومته وتأجيل يومه وهو ايضا خير . فماذا يحدث لو اجهزنا على الأمراض وبالتالى على أسباب الموت فى تلك الحالة لن يكون أمام المجتمع الا خيارات صعبة منع الانجاب او التقتيل .. فما يعتبر شرا قد يكون واحد من أسباب البقاء .. واذا انتهى الشر كواحد من نواميس الحياة .. فلن تستقيم الحياة بدونه .. رغم أنه من ألد أعدائها .. تحاربه وتحاول ان تقضى عليه .. ولكن لا يمكن القضاء عليه لأن فى القضاء عليه نهاية لمعنى الخير .. نهاية لمعنى الصراع .. نهاية لمعنى التقدم الانسانى ولا عجب اذا كانت الزهور تزهر .. والأوراق تخضر على مخلفات الحيوان .

ــ لكن هل تنكر ان الايمان بالجنة والنار كانا من أحد أسباب التقدم الانسانى على مر العصور :

ــ ليس هذا بالضبط .. لكن الايمان بهما كان حافزا للانسان ليموت

من أجل تثبيت دعائم الأديان .. فقد سيطرت هذه الملحمة الفريدة على كل صــغيرة وكبيرة في حياة الناس في حقبيات معينة .. وانبثق من هذه الملحمة اقتناع الناس بالبعد عن المعاصي فاصــبح المحور الرئيسي للمحظور والمباح هو الخوف من نار حارقة أو الرغبة في جنة وارفة وليس من داخل مسببات التحريم أو الاباحة ــ لذلك فعندما بدأت فكــرة الاثابة والعقاب تضــمحل ويقل تاثيرها بدأ موج الدين ينحسر تدريجيا خاصــة بعد أن فقدت فلســفة الترهيب والترغيب والتي كان لها مفعول السحر في العصور المتقدمة تاثيرها في العصور اللاحقة ذلك انه اذا كان منطقيا ترغيب الانسان البدائي المتعطش للماء والجنس والطعام بالجنة التي تجري من حولها الأنهار بقطوفهــا الدانية وجواريها والخمر المعتقة .. لم تعد مثل تلك المغريات تثير اهتمام الانســان المتحضر .. فالماء حتى مثلجا والمرأة حتى عارية والفاكهــة في غير أوانها لم تعد تلك الأمور تجتذب حتى الفقير أو تشحذ ايمانه ليفعل الخير أو ينتهي عن الشر بعد أن دانت له قطوف العلم واختراعاته .. ومع ذلك فالعقل يقف حائرا أمام تساؤلات عدة تنخر بنيان فكرة الجنة والنار التي عششت على العقول وهيمنت على الفكر الانساني خاصــة ونحن لا نجد اجابة شــافية على تلك التســاؤلات لا من خــلال العقل البشري ولا في الكتب .. ولا في الحــواش والهوامش .. العقل يقف أمام باب سد بالاسمنت المســلح يحتاج لعشرات من أصابع الديناميت . أول ما يخطر على بال أي مفكر كيف يعود الانســان للحياة في هذا الفندق الالهي .. ثم ماهي صورة الانســان عند بعثه ؟! ثم ماهي نوعية هذه الاجساد ؟ .. هل ســتخضع لناموســها البشري أم ان قانونا جديدا سيشملها .. ويغير من خصائصها البشرية .. عجينة أخرى لا تحمل من البشر سوى الاسماء ؟؟ ثم ماهي اللغة التي يتحدث بها قاطني الجنة ؟ . وأين يقطنون ؟ . هل في بيوت مؤثثة تأثيثا حديثا بأحدث الأجهزة من تكييف وثلاجات أم أن قاطنيها سيقطنون الخلاء ؟ . ثم ماهي نوعية هذا المجتمع أي قانون ســيحكمه ؟! .. وماذا عن الخــلافات التي تحدث بين الناس .. كيف تحسم .. وماهي أداة الحسم .. شرطة أم قضاء أم حاكم ديكتاتوري ؟؟ وماذا عن حاجة الانسان اليومية من طعام وملبس ومسكن ..

مئات من اللماذات والتساؤلات تختلج بها النفس .

في هذه اللحظة خط على قلبي نسر يمزقة .. ان كل ما يثيره ليس سوى انكارا للجنة التي أعيش بين سكانها !! ان الأجابة على هذه التساؤلات من خلال ما رأيته .. وما اعيشة يعنى أمر واحد انني لست على أرض الجنة .. شردة قصيرة عدت بعدها الى محدثي وهو يستطرد قائلا :

ـ فلنبدأ بصورة الانسان عند بعثة . الاقرب الى التصور العقلى ان الانسان يبعث بالصورة التي مات عليها الطفل طفلا .. والشاب شابا .. والكهل متكهلا لكن في اطار قانون النمو وخاصية الشبوبية .. فلكل شباب رغم أنه ينمو .. ترى على الكهل آثار السنين بتعبيرات وأخاديد بشرته .. لكنه يحمل جسد شاب .. بتوقد ذهنه .. بوميض خاطره .. بقوة جسده المحصن بطبيعته ضد الأمراض والتي لا وجود لها !! وبالتالى سيصبح الطفل لعبته .. وحضانته .. ومربيته ولفه .. ومدارسة .. وللكبار هواياتهم من الطعام والمرأة وضروب اللهو المختلفة ..

قاطعته متسائلا وعقلي تدوسه الحيرة .. وتنهشه التساؤلات :

ـ لكن كل هذا يحتم وجود مرافق من مباني .. وملاعب وأدوات مدرسية ومواد أولية كالأسمنت والحديد والطوب والورق .. فكيف يتسنى ذلك وأهل الجنة لا يعملون بل يستمتعون فقط بملذات الحياة ؟!

أجابني بسخرية لاذعة :

ـ الأقرب الى التصور أن الذى يعمل لخدمة أهل الجنة هم أهل النار هم الكادحون .. ينظفون الشوارع .. ويقيمون المباني .. وينشئون المرافق .. ويجمعون القمامات .. ويطهون الطعام .. ويعملون في المصانع .. كل المصانع من الابرة الى الصاروخ عدت أسأله من جديد علني أضيف الى معارف مايثرى عقلي ويبدد عنه السحابة القاتمة .. للغموض الجاثم :

ـ معنى هذا أن اجساد المبعوثين ستخضع لناموس الطبيعة البشرى بمعنى أنسجة وخلايا ودم وأجهزة وبالتالى مخلفات صلبة وسائلة ..

وما يستلزمه هذا من وجود دورات مياه .. وحمامات للاغتسال من الجنابة ورائحة العرق !!

قاطعني رئيس المحكمة قائلا :

ــ وقد تخضع لقانون آخر غير بشرى .. أجساد بلا مخلفات سائلة او غازية كعادم السيارات .. لذلك فلا ضرورة لأجهزتهـا الداخلية من قلب وامعاء ومعدة . ومن ثم يخضع الجسد لقانون آخر غير قانونه البشرى .. وبالتالى يتحول هؤلاء المبعوثين الى نوع آخر غير انسانى لا يحمل صـفات البشر .. مجرد عجينة اخرى لا تحمل من البشر سوى الأسماء والسؤال من اذن سينعم بالجنة .. ومن سـيتعذب بالنار وقد تحول الانسان الى بديل آخر لا يشترك مع الأصـل الا فى الاسم فقط؟! وبعد أن يتحول الشيء الى نقيضه كيف نثيب هذا النقيض أو نعاقبه على فعل ارتكبه غيره !! ؟

مرت فترة صمت قصيرة .. استطرد بعدها متسائلا :

ــ فهل هذا هو ماعندكم فى الجنة ؟!

لم أنطق .. حل الصمت بالقاعة وهو يوجه الى سؤالا آخر :

ــ واللغـة التى تتحدثون بها فى فندقكم .. كيف يمكن التفاهم بين بدائى لا تصدر عنه سوى همهمات .. وبين متحضر ارتاد الفضـاء .. بين قاطن القمـر وقاطن الكهف .. كيف اسـتطعتم فى جنتكم التغلب علـى تلك الصـعوبة ؟

قلت فى بهجة المكتشف :

ــ اراك تحاول أن تدق بهذا التحليل مسمار الأخير فى نعش جنتنا .

قاطعنى فى حماس زائد :

ــ واين تقطنون .. فى العراء أم داخل كهوف ام فنادق مكيفة أم داخل اكواخ من الطين .. أم فيلات فوق السحاب !!

ثم ماهى نوعية المجتمع لديكم .. أسرة وأولاد أم مجتمع فردى انانى يغيب عنه الاحساس بالتضحية والسـعادة والحب والاخلاص والتفانى .. لأنها معانى مفتقدة لدى مثل هذا النوع من البشر لأنه لا يمكن الاحساس بها الا مع الألم .. وبالتالى يصـبح الانسـان مجرد حجر صـلد أجوف ..

فلا اجهزة داخل تجويف بطنه أو صدره او رأسه .. فهو ليس سوى تمثال من الصلب الأجوف .. ثم كيف يروح الانسان عن نفسه لديكم .. اسرافيل يغنى على أنغام جوكة الملائكة مع رقصات السامبا للجن الأزرق والأحمر وزعقات الشياطين وهز بطن أبليس العاق .. الذى سيمتطيه رواد الجنة كما يمتطى السائحون الجمال .

ضجت القاعة بالضحك والتصفيق ورئيس المحكمة يستطرد قائلا :

ـ والثياب .. هل يمكن اقناع القردة بارتداء الثياب والسراويل .. خاصة وأن احدى المحرمات شديدة اللهجة تقضى على الفتيات بارتداء الملابس « المحتشمة » ثم كيف بتجهيز هذه الثياب .. وتلك السراويل هل لديكم مصانع لتصنيعها .. يديرها الملائكة والجن الطالح !!

لم أرد .. سخريته لاذعة .. عاد الصمت يلف القاعة .. وعاد صوته جمهوريا .. قويا .. واثقا :

ـ لقد قلت ان الانسان لديكم خالد لا يتألم .. فى هذه الحالة ستراه على طبيعته العذرية بعد أن فقد احاسيس الحياة .. من حب .. وخجل والطعام .. الحق يقال أنه لا يمكن أن يقتصر على ثمار الفاكهة فقط فكل ما يطلبه الانسان يجاب فى غمضة عين .. يصفق بيديه فتأتيه الموائد كما فى الف ليلة .. أما كيف فهذا سلم لدنى !! لا يعرفه البشر .. فهل عرفته أنت يا اله القردة وعرفتنا به .. كيف يأتيكم الطعام مطهيا مزخرفا أنواعه .. أم يأتيكم فى الاحلام فقط ؟!

قلت مقاطعا :

ـ خلاصة قولك انك تنكر الجنة .

لم يأبه لسؤالى بل استكمل حديثه قائلا :

ـ ثم اين يقع هذا الفندق الالهى .. اين موقعه فى الاجرام السماوية ؟

أجبته :

ـ فى السماء السابعة .

ـ واين تلك السماء السابعة ؟

ـ يفصلها عن الأولى ست سماوات !!

ـ تقصد بالسماء الأولى تلك التى بنيت بغير عمد .. وعليك أن تعد سبع أسقف بعد البدروم .. لكم نود جميعا رؤيتها .

سألته فى بلاهة :

ـ الجنة أم السماء ؟!

ـ ما أقصده هو الجنة .

ـ اشحذ ذهنك فقد تستطيع ذلك كما فعل الأولون !!

فى تلك اللحظة أضاء الكمبيوتر بعبارة :

ـ « اجابة تدل على عقل بشرى متقدم » .

أعقب ذلك قول رئيس المحكمة :

ـ قم بوصفها لنا .

ـ ليست سوى حديقة وارفة الظلال .. تجرى من تحتها أنهار العسل واللبن والخمر .. ويلبس قاطنوها ثيابا سندس واستبرق ويتحلون بالجواهر ويتكئون على الارائك ويطوف عليهم ولدان مخلدون وتنحنى أغصان الاشجار ليلتقم قاطنوها الفاكهة .. وتجد أيضا قاصرات الطرف لم يطمثهن انس ولا جان كأنهن الياقوت والمرجان وكواعب اترابا اجسامهن من المسك مبرأة من نقائص البشرية وآثامها لم تنقص الأيام ولا الأعمال ولا الموت من جمال أجسادهم .. ولكل رجل من الصالحين اثنتان وسبعون من أولئك الحور جزاء له على ما عمل ..

قاطعنى رئيس المحكمة :

ـ يا اله القردة لسنا فى حاجة لهدم هذا المفهوم الى ادلة خارج مقاطع الحروف بعد أن استكشف الانسان بعقله آفاقا أخرى للاستمتاع الحسى والعقلى تفوق مثل هذه الأوصاف والتى أصبحت نقطة فى محيط الأعاجيب والتى نراها كل يوم فما عاد الانسان يشغله أن يكون طوع بنانه الطعام متمثلا فى الفاكهة والتى تنحنى أغصانها ولا عشرات من النسوة أغفل السلف الصالح عن تبيان كيفية الاستمتاع بهن هل بالقبل والأحضان أم بالمعاشرة أم بالنظرة الزانية .. ولا الجواهر والنفائس التى يمتلكها أهل الجنة .. رغم أن مثل هذا التملك يحمل معنى الردة والأنانية وحب الذات

والصراعات من خلال غريزة التملك والتى تنبع من احساس الانسان بقيمة الشئ الذى يرغب تملكه نتيجة التنافس عليه بعكس ما اذا كان هذا الشئ مباح .. ومتوفر فلا يصبح لاقتنائه معنى أو مضمون ذلك أن قيمة الشئ ترتبط وجودا وعدما بالتنافس على اقتنائه .. ولن يحدث هذا التنافس طالما ان الشئ قد فقد قيمته نتيجة توفره فى أى وقت حال طلبه .. يعنى هذا ان الوعد بالفضة والذهب لن يحمل أى معنى للاغراء طالما أن هذه المعادن تفقد قيمتها نتيجة تلبية حاجة طالبها وقت طلبها دون عناء ..

حل الصمت .. داعبت الحيرة العقول .. وهو يستطرد قائلا :

ـ ان المتفقهين حاولوا سد هذه الثغرات بالالتجاء الى قاعدة نادوا بها حتى بحت أصواتهم من كثرة الزعيق رغم أنها قاعدة تخالف التفكير العقلى وهى الايمان بكل ماق الاديان من نقائص تحت حجة مظلة حظر النقاش لكل أمر يصعب على العقل ادراكه حتى لو خالفت أحكامه البديهيات المنطقية .. وانتهكت حرمة قدسية العقل .. لأن من يجرؤ على مثل هذه الفعلة الشنيعة ماله النار خالدا فيها حيا أو ميتا .. وبالتالى يصبح اليقين فى الخرافات أقوى من اليقين فى المنطق .. وكان أن وقعت تحت هذا البند مئات من جرائم الدعارة الفكرية واستبيح كل ما يرفضه العقل وذبح التقدم بنصل التخلف واريقت دمائه .. واستفحل غول الارهاب الفكرى الدينى محاولا تحطيم البديهيات العقليـة تحت ستار هذا الخطر الالهى المفروض على كل نقاش لأحكام الأديان .. ولكن ماحدث لدينا غريب .. لقد حاول البعض أعمال العقل والفكر والمنطق .. ولكن قوبل من رجال الدين بالاتهام بالكفر والردة .. والسحر الأسود !!

لكن ذلك لم يثنه عن عزمه .. وظل يضرب فى قسوة بسياط العقل على أجساد هذه المسلمات الهشه لاستظهار الحقيقة خلف كل صرخة الم .. وبعدما اختفت اشباح كثيرة من المسلمات فى جب النسيان وبدأنا عهدا جديدا أصبح العقل هو الفارس الوحيد الذى يعتلى صهوة الفكر يقفز به فوق فيافى الجهل وتمم الخرافات .

قلت فى سذاجة عفوية :

ـ لقد انكرت الجنة رغم أننى آت فيها .. فما بالك بالنار ؟

فى تلك اللحظة ضجت القاعة بالضحك .. والتصفيق .. حتى الكمبيوتر علق على شاشته الصغيرة « نكتة ظريفة » ..

المدعى يتصدى للاجابة فى لهجة غرورة :

ـ تقصد احدى المسلمات التهويبية التى أنشغل علماء الفقه منذ مئات السنين فى تثبيت دعائمها وتقوية أساسها لتصبح واحدة من أعتى أساليب الارهاب والتخويف من العذاب فى الدار الآخرة مع أنها تستمد جذورها من فكر بدائى قديم يقوم على التعذيب الجسدى .. انتقلت عدواها الى الأديان بعد أن تحورت فكرتها من التخويف البشرى الى التخويف الالهى .. فقد هيمن هذا الفكر الالهى على الأديان لأن أصحاب الدعوة اليها لم يكن يملكون السلطة او القوة لتطبيق تعاليمهم .. لذلك فلم يكن أمامهم سوى الالتجاء الى الترهيب أو الترغيب الغير منظور .. فتحدثوا عن الحياة الأخرى التى يحياها الانسان .. اعتمدوا على الفكر الخفى ليدعموا دعوة حقيقية لا تسندها سلطة أو قوة على أرض الواقع .. فلجأوا الى التخويف بالنار بعد البعث أو الترغيب فى الجنة بعد الموت .. وكان ان سيطرت فكرة الجنة والنار على العقلية السائدة فى العصور القديمة واستحوذت على كل نبض فيه الى أن خاض الفكر-الانسانى عندنا معركة رهيبة فى مضمار ملعب الحقيقة واستطاع فى النهاية ان يطرح هذه الأفكار أرضا .. ويدوسها بقدميه زاعقا زعقة الانتصار فوق الجسد المحتضر أما عن فكرة النار فهى ليست سوى هرطقة عقلية .

قلت باسى وألم وضيق افق :

ـ كيف ؟!

ـ العذاب بالنار يستلزم لتحقيقة وقوعة على شىء محسوس ، بعد الموت يقع هذا العذاب على الجسد بعد بعثه حيا .. أما داخل القبر فقد اصطدم الفكر الدينى بعقبه كؤود .. كيف يتحقق مثل هذا العذاب المادى على ذرات .. مخلفات بشرية لا تحس الألم !! لذلك لم يكن أمام هذا الفكر سوى الالتجاء للفكر الخفى .. القول بعذاب الروح .. واساس هذه التفرقة

الغريبة بين عذاب الجسد فى الآخرة وعذاب الروح فى القبر .. هو عجز الفكر الدينى عن تفسير مدلول هذا العذاب داخل القبر . فربط العذاب وهو معنى محسوس بالروح وهو معنى خفى غامض من شأنه تمويت القضية . ولتصبح مثل غيرها من الخرافات غير محددة .. وغير مفهومة لكن على العقل أن يقبلها على علاتها دون أن يناقش صحتها مع ما فى هذا القول من خطل .. وخطر كثير فالقول بعذاب الروح وما يحمل العذاب من معانى محسوسة يتنافى مع ابسط قواعد العقل الواعي .. ذلك انه لا يمكن بناء حقيقة على وهم فكيف يقع العذاب وهو « معنى نعرفه جميعا » . على الروح التى نجهل كنهها أو مدلولها مثل هذا القول يدل على هروب الفكر الدينى من مواجهة الحقائق الملموسة والتى يدركها الانسان العادى فهو يرى الجسد بعد أن يوارى التراب والدود ينخر فيه ليتحول بعد ذلك الى رماد وهو يدرك أن الجسد بعد الموت يفقد الاحساس بأية مؤثرات خارجية من زمهرير أوحر أو لفح نار مع هذه الحقائق الملموسة لم يكن أمام الفكر الدينى سوى لم أذيال الخيبة والهروب الى كهف الوهم والمناداة بعذاب الروح حتى لا يصطدم بالحقائق الملموسة والحجج الدامغة .. ثم اذا كان الفكر الدينى قد نفى علمه بمدلول هذه الروح فكيف اذن يتحدث عن النار التى تسوم هذا المجهول ؟ !!

فى تلك اللحظة تملكنى العناد .. التحدى .. رغم أن مايقال لا يخالف العقل ولكنى صرخت بأعلى صوتى .. لا دفاعا عن القضايا التى يثيرونها .. بل دفاعا عن نفسى .. عن وجودى .. عن كينونيتى .. ان كل ما يقال يهدمنى :

— تنكرون علينا عقيدتنا .. وايماننا واسلوب حياتنا .

لم يأبه رئيس المحكمة لتعليقى بل استطرد قائلا :

— واذا انتقلنا الى صورة هذا العذاب البعث العظيم .. الانسان الذى يشوى ويقلى على جنبيه .. ويكوى على جبهته .. ويتغير جلده لتعود عليه الكرة .. الانسان الذى يشرب من ماء النار والوقود الذى هو الناس والحجارة .. والطبقات السبع الذى ينقسم اليها المعذبون .. كل طبقة تتناسب مع الذنب الذى ارتكبه الانسان العاصى .. والزمهرير .. والأحذية

التى تصنع من النار .. كل هذه صور مادية بحتة على الانسان أن يؤمن بها دون أن يناقش صحتها او جدواها بل عليه أن يتقبلها وان يؤمن معها بالبعث والذى ستكون من علاماته ضعف ايمان الانسان وفساد أخلاقياته وكثرة حروبه .. وسيكون الانذار بنفختان فى الأولى يهلك كل الناس ماعدا جبريل وميكائيل واسرافيل وملك الموت والذين يموتون بعد حين .. ثم يحيِّى الله اسرافيل فيأمره أن ينفخ فى الصور النفخة الثانية فيقوم الموتى ويتهيأون للحساب .. فى تلك اللحظة يتجلى الله لعباده تحف به الملائكة يحملون الكتب التى دونت فيها أعمال الناس جمعاء ثم توزن الحسنات أمام السيئات « ولا ندرى أى ميزان هذا الذى يمكن أن يزن الأعمال » .. الا اذا كانت الأعمال ستترجم فى النهاية الى أثقال وموازين !! ثم يحاسب الانسان على ماقدمت يداه .. هل يداه فقط أم ماقدمه عقله ويشهد الأنبياء على الكافرين ثم يسير الأشرار والأخيار على الصراط المعلق فوق الجحيم وهو أدق من الشعرة وأحد من السيف فيسقط فى الجحيم الأشرار ويجتازه الصالحون الى الجنة .. كل هذه الأوصاف المادية لو أخضعناها لميكرسكوب العقل لوجدنا آلاف الفيروسات التى تقضى على الفكر قضاء مبرما ..

أول هذه الفيروسات .. هو غياب الحقيقة العقلية من خلال ماورد من أوصاف لا تتفق والعقل لغياب الحكمة التى تكمن وراء هذه الأوصاف .. ثانيها اذا ما حاولنا ربط كل هذا بقضية الوجود المطلق والوجود الحقيقى لما وجدنا حقيقة تؤيد هذا المجهول أو الموجود المطلق ليتحول الى وجود حقيقى لذلك فيبقى مجهول غير معلوم لا يمكن تصديقه .. ثالثا أن فلسفة العقاب من اختراع الانسان .. فاذا ما تغيرت تلك الفلسفة على أساس أن المجرم مريضا وليس مخطئا تبدلت جهنم لتصبح مصحات للمرضى والخطائين .. كما هو عندنا .

سكت محدثى .. اتجه نحوى .. ابتسم . سألنى :

— الآن جاء دورنا لاكتشاف حقيقة تخلفك من خلال أسئلة نوجهها لك :

بلع ريقه .. أخذ نفسا عميقا .. استطرد متسائلا :

ـ الانسان .. ماذا كان قبل أن يصبح انسانا ؟

ـ للاجابة على سؤالك توجد نظريتان متعارضتان متصارعتان ..

الأولى الانسان ليس سوى مخلوق أرضى جاء نتيجة تطور مذهل فى عالم مادى عمره ملايين السنين نتيجة تفاعلات كيميائية منذ اللحظة التى انقسمت فيها خلية الامبيا ليشملها التطور الى الانسان أرقى الحيوانات ..

رد المدعى معقبا : « برافو .. برافو » ورايت بعدها على شاشة الكمبيوتر عبارة (تفكير علمى مطلق) .

قلت مستطردا :

ـ اذا كانت تلك النظرية صحيحة فالانسان ليس سوى نظرية مادية بحتة .. وجد بالصدفة وسيموت بالصدفة وبموتة يصبح مجرد ذكرى فى اروقة الحياة فلا اله ولا ثواب لا عقاب ولا جنة ولا نار ولا جن ازرق او احمر ولا ملائكة بيضاء أو خضراء تهفهف بأجنحتها والرسل ليسو سوى مجموعة من الدجالين .. والأديان صيغ بشرية ذكية .. والانسان ابن الطبيعة .. خلق نفسه . هو الأوحد والأقوى والافضل والجبار والمتكبر وبالتالى فقد وجد بالصدفة .. وسيفنى جنسه البشرى ايضا بالصدفة وعلى البشرية فى هذه الحالة الأخيرة أن تبدأ للمرة الثانية من نقطة الصفر .. اى من نقطة البداية .. وقد يختلف شكل المخلوق القادم عن الانسان المندثر بعد فناء العالم .

علق رئيس المحكمة قائلا :

ـ ومن ادراك قد يكون هذا الانسان الذى يسيطر الآن على مقدرات عالمنا خليفة فصيلة من البشر سبقته اقل حضارة واندثرت هى الأخرى بعد أن قضت عليها الكوارث نتيجة فشلها فى تحقيق رسالتها على الأرض .. اكمل .. اكمل .

استطردت قائلا :

ـ ما قلته هو الفرض الأول أما الفرض الثانى هو وجود ارادة عليا ترسم لهذا الكون تابلوهاته الرائعة وتخطط وتهندس له مشاريعة وان الانسان ليس سوى صورة من الصور التى ارتضاها هذا الرسام الماهر

لتحقيق مبادئة وان صلة الله بالانسان هي تماما كوصلة تيار الكهرباء من محول ضخم يغذى مصابيح صغيرة .. هذه المصابيح ليست سوى البشر .. تنطفأ وتموت اذا انفصل التيار عنهما .. يرتبط بهذا الفرض الثاني قضية الخلق .. صلصال مبعث للروح فى الصلصال .. فحياة .. فما رأيك أنت .

سحب رئيس المحكمة نفسا عميقا اجابنى فى هدوء غريب :

ـ ما تحدثت عنه ليس سوى حديثا بالشفرة نستطيع حل رموزه من خلال متناقضات عدة أولها أنه تصوير مادى ساذج لخطوات فى الخلق يعجز العقل البشرى عن فهمها صلصال فتمثال .. فنفخ .. فانسان .. كيف يتسق هذا التصور مع حقيقة القانون الكامل أو الوجود المطلق ثم كيف يتفق هذا التخيل مع الحقائق العلمية .. ثم ماهى الحكمة التى تكمن خلف اتباع هذه الوسائل بعينها ثم لماذا لم يخلق الانسان كما خلقت الأرض كما يقال من العدم ؟! واذا كان الانسان قد خلق حقا من قطعة صلصال بعد النفخ فيها .. فماذا كانت الوسيلة فى خلق الحيوان هل صنعت منه اشكالا واحجاما وانواعا مصلصلة ثم نفخ فيها هى الأخرى . فانبتت الأرض سحالي وديناصورات وقرود .. واسود .. وظباء وثعالب أم أن الارادة الالهية تدخلت بصورة من الصور نجهلها فخلقت الحيوان وانبتت النباتات اذا كان هذا كذلك فلماذا حبس عنا كيفية نشوء الحيوان بينما بولغ فى وصف نشوء الانسان .. ثم اين كانت تلك الجنة التى هبط منها آدم .. ثم كيف هبط . ببارشوت أم بصاروخ ؟! القضية فى الحقيقة هى قضية القانون الكامل ..

قضية القانون الكامل تعنى أن قانون الحياة على الأرض قانون صارم وضع بدقة شديدة لا يحتاج من الارادة الالهية التدخل كلما عن لها ذلك .. والا كان ذلك معناه .. نقص أو عيب شاب أحد فروع الناموس الالهى يستدعى التدخل الالهى بين كل آونة واخرى لسد هذا النقص .. أو رتق هذا العيب .. ورواية الخلق التى تحدثت عنها ليست سوى تدخل مباشر من الله لصنع انسان وتعنى فى النهاية أن قانون الله ناقص استدعى

تدخله المباشر لصنع انسان .. مع أن قانون التطور من الامبيا الى الانسان يسد مثل تلك الثغرات وهـذا النقص .. فالكون ليس فى حاجـة لتدخـل مباشر أو غير مباشر من الارادة العليا لعلة اصـلاح ما أفسده الدهر .. لأن القانون الالهى ليس ثوبا يبلى يحتاج بين كل آونة وأخرى الى رتوق تغطى بدنه العارى ورواية الخلق بهـذه الصـورة تعنى أمر واحد فقط عقل بشرى حاول ان يجد لنشـوء الخلق أسبابا مقنعة .. فانتزعها من عادات وتقاليد وأساطير .. وخرافات شعوب سبقته بمئات السنين ثم عاد ليؤكدها بدعوة ألبسها ثوب الهى .. حتى يصـدقها الناس .. ولم يجد بديلا آخر فالبديل تحكيم للعقـل ثم انصراف عن الداعية لها لذلك فقد لجأ العقـل البشرى الى الصاق مثل هذه الروايات العاجزة وغـيرها بالقدرة الالهية حتى يكسـيها حصانة ضـد أى مناقشـة علمية .. منطقية .. وحتى تصـبح الاجابة دائما .. هكذا أراد الله .. ردا على أى نقد أو تحليل او تجريح او استنتاج عقلى يخالف أسـاس العقيدة .. اذن فالقانون الالهى قانون كامل متكامل لا يختلف على صحته اثنان وتعثر الانسان فى رحلته نحو حقيقة هذا القانون وهو يخطىء ثم وهو يصحح ليستكمل مسيرة ملايين السنين .. مثل هـذا التعثر لا ينتقص من القانون الالهى الكامل أو يقلل من قيمته .. فهى عثرات البشرية للوصول الى المعنى الحقيقى للقانون المتكامل .. فاذا ما وصـلت البشرية لحقيقـة معناه .. فلا تغيير ولا تبـديل فقانون كقانون الجاذبيـة الأرضية لا يختلف حول صحته أحد .. ودوران الأرض حول نفسها ايضـا قانون متكامل ومثله قانون الطفو .. كثير من هذه القوانين ثبتت اقدامهـا أمام عواصف البحث والاستقصاء .. وباتت فى سـجل العلم قوانين كاملة لا يعتريها .. ولا يشوبها عيب ..

سكت محدثى يسـتعيد انفاسـه اللاهثة .. عدت انغزه بسـؤالى الحاضر :

— ما حدثتنى به هو القانون الكامل .. فكيف بالوجود المطلق هنا .

— حتى يتحول الوجود المطلق للغير معلوم الى وجود نسبى ملموس يجب أن يستند الى حقيقة علمية او استنتاج عقلى .. وقضـية الخلق كما

صورتها الأديان لا تستقيم مع الحقائق العلمية ولا مع الحقائق العقلية .. لذلك فتبقى هذه الروايات وغيرها فى جعبة الخرافات حتى تؤكدها حقيقة علمية أو تاريخية او انسانية أو يسندها استنتاج عقلى .

ــ ورسالات الأنبياء والرسل .. أو ليست من عند الله ؟!

سكت محدثى قليلا ثم استطرد قائلا :

ــ حتى نعرف اذا كانت تلك الرسالات من عند الله أو من تأليف البشر .. علينا أن نبحث أولا هل ما تثيره الأديان من قضايا تعتبر حقائق كاملة لا يختلف عليها أحد بحيث يمكن أن نطلق عليها القوانين الالهية الكاملة .. ثم هل هذه القضايا تسندها حقيقة أو استنباط عقلى .

ــ الأجابة بالنفى على السوالين معا . ومع هذا فالبعض ينكر وجود الله .. فهل ينفى هذا الاختلاف وجوده ؟!

ــ قضية وجود الله .. ليست قانون سنة الله لدوام بقائه .. واستمرار حيواته على مر العصور .. بل هو قانون لا ينفصل عن ذاته .. بمعنى أنه اذا كان لا يوجد خلاف حول وجود قانون يحكم الكون بدقة شديدة .. وان خلف هذا القانون ارادة منظمة .. امتزجت به حيث يمكن القول ان القانون هو الله .. والله هو القانون .. وأن البديل لغياب هذا القانون هو الفوضى .. اذا قلنا بذلك وقلنا أيضا ان محاولات البعض لتصوير الاله بالصورة البشرية لتقريب مفهومة للعقل البشرى قد باءت جميعها بالفشل ونتيجة لهذا باتت صورة هذا الاله غامضة .. تناولتها الشكوك .. واذا كان الاستنباط العقلى هنا تتوفر اركانه من حيث قيامه على حقيقة حتمية وهى وجود القانون الذى يحكم الكون وارتباط الله بهذا القانون وجودا وعدما .. بحيث يمكن القول انه تعبير لمضمون واحد سمه ماشئت الله .. القانون .. الوجود .. فهى كلها أسماء بشرية لا دخل للاله فيها لكنها تعبر عن فكرة جوهرية .

قلت مقاطعا :

ــ نعود الى موضوعنا الرئيسى .

اكمل محدثي بنفس الهدوء الغريب :

ـ نستطيع القول بلا لف او دوران ان القانون الالهي قانون متكامل غير منتقص يصلح دائما لكل زمان ومكان .. لا يحتاج لتدخل مباشر أو غير مباشر لتبديله أو تغييره لأنه يحمل فى ثناياه الكمال الدائم .. والحل الأمثل . والرسالات ليست قانون الله لأن ذلك يعنى اذا اعتبرناها قانون الهى امر واحد فقط أن القانون الالهى منتقص غير كامل .. يقوم الله بتعديل نصوصه ونسخ أحكامه كلما تبين له خطأ فى المنهج الذى وضعه لتسيير دفة الكون .

ـ خطير كلامك .. خطير .

المدعى يحاول استدراجى من جديد فى شرك صنعه ببراعة :

ـ نعود الى سؤالنا الذى سبق ان طرحناه وخاب ظننا فى اجابتك حتى اننا اعتقدنا أنك احد القردة .

سكت قليلا ثم استطرد قائلا :

ـ قلت أنك الاله ؟

ـ نعم .

ـ وكيف اصبحت كذلك .

ـ الناس نصبونى الها .

ـ تقصد ملكا !!

ـ لا .. بل الها .

ـ وما صفات الاله ؟

ـ الآمر الناهى .. أمره لا يرد .. وكلمته نافذه .. وله حق الموت على البشر فى تلك اللحظة اضاءت شاشة الكمبيوتر « ما يتحدث عنه جاء فى صحائف التاريخ الاله من البشر ثم انتقلت عدوى هذه الفكرة لصحائف الأديان .. الاله الخفى القادر الماحق والذى لا يحد سلطته قانون ولا يقف فى طريقه بشر » .

عاد المدعى يستكمل اسئلته بهدوء شديد :

ـ لكن كيف للبشر بفكرة الاله ؟

اجبتــه :

ـــ الله يحل فى اجســـادهم فاذا هم مثله او ابنائه يحملون صــفاته وقدراته .

ـــ حدثنى عن تلك القدرات .

ـــ بعضـــهم احيى الموتى وشـــفى المرضى والبعض الآخر قاد ثورة فى الفكر والعلم والسياسة والنظريات الاقتصادية والفلسفية ..

ـــ وانت ؟

ـــ احرك الريح والمطر واخسف بالشمس واعيـــد الحياة للانســـان والطـــير !!

ـــ الله قانون .. فهل انت هذا القانون ؟

ـــ انا الكل داخل الجزء .. وانا الجزىء داخل الكل !

ـــ ازاهد انت !!

قلت وقد تملكنى الضيق :

ـــ الى اين تتجهون بمحاكمتكم ؟!

ـــ الى الحقيقة .

ـــ وما شان التهمة بما نتحدث عنه .

ـــ انهـــا ليســـت محاكمة لشخصـــك .. بل محاكمة لعصرك .. فالحضارة تحاكم التخلف .

ـــ والنهاية ؟

ـــ قبلها تعطيك المحكمة فرصة اخيرة لتثبت فيها صدق دعوتك .

بعد لحظات كان رئيس المحكمـــة يقبض بيده على طائر .. ذبحه ثم اعطانى اياه وهو يتمتم ساخرا :

ـــ هيا اكشف لنا عن قدراتك .. ارنا كيف يطير الذبيح .

فشـــلت .. بكيت .. اول مرة التقى بالدموع والعجـــز والاحبـــاط ورئيس المحكمة يرفع الجلسة بعد ان اصدر قراره ..

ـــ يسمح للمريض بزيارة المدينة ومعالمها .. ليتعرف على اســـباب حضـــارتنا .

سيارة لا تسير على الأرض بل على وسادة من الهواء سمكها نصف متر تتحرك فى الشوارع .. الأطفال والرجال والنساء على جوانب الشوارع يلوحون لى بأياديهم . الشوارع نظيفة .. عارية من ثوب القذارة .. مرصوفة بطبقة بلاستيك بيضاء .. البيوت زجاجية .. النوافذ بلاستيك ملونة .. الاشجار والأنبتة تغطى مساحات كبيرة .. الملاعب وحمامات السباحة والحدائق والملاهى منزرعة فى الميادين . أشياء لا يصدقها عقل بشر .. ولا يصل اليها خيال شاعر أو كاتب .. ان ترى الشوارع خالية الا من البشر .. أما كافة وسائل المواصلات .. من سيارات ومترو .. فهى تسير فى الأنفاق .. ان تجد الجو مكيف والهواء الرطب يداعب وجهك .. أن ترى الابتسامة دائما على الوجوه .. لا غضب ولا حزن ولا الم !!

السيارة تتوقف أمام بناية ضخمة .. مرافقتى تفتح باب الزنزانة الزجاجى .. تطلب منى ارتداء بذلة .. كبذل رواد الفضاء .. فجأة انفتح كهف ذاكرتى عن كوة صغيرة ثلاثة رواد أنا واحد منهم يسبحون فى الفضاء داخل سفينة احدهم يصرخ « لقد انقطع اتصالنا بالارض » الكوة تزداد اتساعا والسفينة تحط على ارض ذلك الكوكب .. نعم ذلك الكوكب الغريب الذى استقرت عليه السفينة بعد أن فقدنا نهائيا الاتصال بالارض .. ولكن كيف ولماذا ؟؟

بدأت الكوة تزداد اتساعا .. ازيز الصاروخ .. ابتسامات اصدقائى أياديهم تلوح لى قبل ان ارحل فوق السفينة .. والكوة تنغلق .. أحاول أن افتح الثغرة من جديد .. بلا جدوى .. لقد توقف كل شىء حتى قطار الذكريات على محطة المجهول .. وأنا اسأل نفسى أسئلة لا أستطيع لها اجابة .. كيف رسوت على ارض الجنسة .. هل هو بعث جديد بعد أن انفجرت المركبة وقضى على لأبعث من جديد فى ثوب حياة هذا الانسان الذى اكونه الآن .. حاولت مرارا ان أحرك قاطرة ذكرياتى .. بلا جدوى فقد نفذ كل مالدى من طاقة .. ميسورة تطلب منى بأدب جم أن ارتدى الرداء

الفضائي .. وبعد ان ارتديته همست برقة ونعومة :

ــ هيا معــي .

ســـألتها :

ــ الى اين ؟

ــ ارشيف الحضــارة .

هبطنا من السيارة الى بناية ضخمة .. دلفنا من بابها .. مجرد ان تمتمت ميســورة بكلمة السر انفتح الباب على مصراعيه .. ميسورة تسألني :

ــ بأى جناح تبــدأ ؟

أجبتهــا :

ــ العلــم .

تحركنا .. ميســـورة تسألني ونحن ندخل لقاعة هائلة .. ارشــيفا هائلا تنتشر فيه شاشات الكومبيوتر . ميسورة تهمس لى وهى تضغط على احد الازرار :

ــ هيا اطرح ما تشاء من اسئلة .

قلت بلا اكتراث :

ــ نيل ارمسترونج ؟

ذهلت والأجابة تضيء فوق شاشة الكمبيوتر « عام ١٩٦٩ أحد رجلين مشيا فوق سطح القمر .

سألت من جديد :

ــ نيكولاس ؟

ــ الأجابة تضيء حروفهـــا فوق شاشـــــة الكمبيوتر .. نيكولاس كوبرنيكس .. اول من نادى بان الشمس مركز للكون .

ــ اورانوس ؟

ــ كوكب يبعــد عن الشـــــمس ٢٨٧٠ مليون كيلومتر طول قطــره ٤٧١٠٠ كيلومتر .

سألته من جديد :

ــ هل صعد اليه رواد فضاء ؟

اجـــاب :

ــ اربعة بدأت رحلتهم فى يناير ١٩٩٠ .

قلت بلا تفكير وبتلقائية غريبة :

ــ ليسوا اربعة بل ثلاثة .

الكمبيوتر تضىء كلماته :

ــ حقا .. ثلاثة .. لكن كيف استطعت تحديد هذا العدد بهذه الدقة ؟

ســـألته من جديد :

ــ متى وصـــلوا ؟

ــ لا اجابة .

ــ ما مصـــيرهم ؟

ــ لا اجابة .

بدأت اوجه له كل ما تخايل على ذاكرتى من اسئلة والاجابات تصلنى دقيقة .. حاسمة .. الى ان سألته :

ــ اينشـــتين ؟

دهشت وانا ارى امامى فوق الشاشة فراغ .

ســـألت من جديد :

ــ كيف تجهلون انشتين، وهو مكتشف نظرية النسبية ؟

ســـألت من جديد :

ــ التفجير الذرى الانشطارى .

ــ لا اجابة .

سألت ميســـورة اجابتنى :

ــ كل هذه معلومات تعمدنا اسقاطها من ارشيف العلم .

ــ لـــماذا ؟

سألتنى هى الأخرى :

ــ كيف لك بكل هذه المعرفة ؟

اجبتهـــا بصـــدق :

ـــ لا ادرى !

تمتمت ونحن نتوقف داخل جناح التاريخ :

ـــ انك تخفى سراً .

عاودت الاسـئلة وأنا اقف مبهـورا أمام ما يحتـويه الجنـاح من معلومات .. واجهزة .. وامكانيات .. بدأت بسؤالى :

ـــ التاريخ ؟

اجابنى :

ـــ كمادة أم علم ؟

ـــ كمـادة ؟

ـــ وقائع حدثت ودونتها الاجيال .

ـــ الملائكـة ؟

ـــ خيـال بشـر .

ـــ للشياطين والجن ؟

ـــ خرافات .

ـــ الجنة والنار ؟

ـــ لا دليل عليها .

ـــ البعث لحياة أخرى ؟

ـــ تنبـؤ .

ـــ الكتب السماوية ؟

ـــ الهـام .

ـــ الحرب العالمية الثالثة ؟

لم أكن أقصد من طرح هذا السؤال سوى المزاح .. الا اننى فوجئت بشاشة الكمبيوتر وقد نقش عليها :

ـــ ما بين سنة ٢٠٥٠ حتى ٢٥٠٥ !!

للحظات تسمرت فى مكانى .. كنت أشبه بقطعة جماد .. صخر .. قذف بها من قمة جبل الى السطح فتحولت الى شظايا صـغيرة .. للحظات

احسست فيها بالعجز .. بالضـــعف .. بالهوان وانا أعجــز عن فهم كل ما يدور حولى هل حقيقة ما قرأته على شاشة الكمبيوتر .. هل حدثت هذه الحرب ؟ وكيف انتهت ؟ خرجت من شردتى وميسورة تســـحبنى من يدى الى الخارج .. الى السيارة .. لحظات توقفت بعدها السـيارة غادرناها الى مكان فسيح .. أمام بناية ضــخمة .. تحيطها الاشــجار وتنمو فى ثنايا ساحتها أزهار .. ورياحين .. وياسمين .. فى تناسق غريب .. وفى رسم هندسى بديع .. دلفنا الى الداخل ميسورة تتمتم :

ــ احدى المصـــحات .

ــ احدى المصـــحات ؟!

استطردت ميسورة بعدها :

ــ سنبدأ بزيارة الحالات الصعبة ثم نتبعها بالحالات البسيطة .

سرنا فى سرداب طويل .. انتهينا الى حجرة .. انفتح بابها على شاب بشـــوش يبتســـم لنا وامامه كمبيوتر يحـــرك مفاتيحه يلعب علية مباراة كرة قدم ..

سألت ميســـورة :

ــ ما جريمته ؟

ــ تقصد ما مرضـــه .. لقد تأخر من عمله دقيقة .

سألت فى دهشـــة :

ــ من أجل دقيقة واحدة تودعوه مصح ؟!

ــ الثانية لها حساب عندنا .. لقد ترتب على تأخيره تشابك الدوائر الكهربائية وانصهار احد الصهاريج التى تغذى المدينة بالماء .

ــ وكيف يعالج ؟

ــ أولا نتقصى الاسباب التى دفعته للتاخير .. ثم نوصى له بالدواء المناسب .

ــ وهل وصلتم الى اسباب المرض ؟

ــ ارهاق عصبى .

ـ والدواء !

ـ جبـــال الباهاما .

ـ عقاب هـــذا أم اثابه ؟!

ابتسمت عادت وأكدت على قولها :

ـ كم أنا معجبة باسلوبك الفريد فى الحديث .

قالت ذلك ثم استطردت قائلة :

ـ هناك فوق هذه الجبال فندق عشرة نجوم يقضى فيه المريض فترة نقاهتـــه .

واجهتنا حجرة أخرى .. اســـتقبلتنا فتاة جميلة .. ما رايت أجمـــل منها قدا .. ولا أهيف منها جسدا .. ميسورة تسالها :

ـ كيف حال مريضتنا اليوم ؟

لم تجب .. ابتعدنا عنها وميسورة تجيب عن تساؤلى :

ـ لأنها صرخت فى وجه حبيبها بعد أن اشتهته ورفضها .

سألت فى دهشـــة :

ـ وهذه ايضا جريمة .. اقصد مرض ؟

ـ نعم فالصراخ واحد من الامراض البدائية .

قالت ذلك .. اخذتنى من يدى .. استطردت قائلة :

ـ هلم معى .

سرت خلفها الى احدى الحجرات .. رايت جثة رجل ضخم تنام على سرير .. غطيطه عال .. سألت مرافقتى :

ـ ما جريمة هذا السجين ؟

ـ بصق فى الطريق .

ضحكت .. مال جذعى الى الوراء .. قلت معقبا :

انهم يبصقون على الناس .. ويضربوهم بالبرطوشة .

ابتسمت ميســـــورة :

ــ اعجابى يتزايد بك .. هيا الى الحالات البسيطة .

جناح دخلنا اليه .. رجــل وامراتان .. جلســنا قدموا الينا مشروبا ساخنا .. سألت مرافقتى :

ــ ما بالهم ؟

ــ هذه المرأة الجميلة تشكو من ســوء معاملة زوجها وذلك الرجل زوجهــا .. وتلك الفتاة طبيب تحاول رأب الصدع بينهما ..

اسرعنا الى الخارج .. الى حجرة اخرى .. شــاب نحيل يجلس وفى يده كمان يلعب عليه لحنا شــجيا .. بقينا دقائق نستمع وفور ان انتهى صفقنا له .. ابتسم .. تمتم فى حزن :

ــ اشــكركم .

قلــتُ :

ــ لحن جميل ولكنه حزين .

ــ هيــا .

اخذتنى مرافقتى من يدى وهى تبتعد .. سألتها :

ــ وما جريمتــه ؟

ــ نافق رئيسه .

خذينى الى الخارج .. قبل ان يغمى على .

وفى المساء كنت فى احضان ميســورة ارتشف اللذة .. نصــف ساعة واذا بها تنتفض فى حزن وأسى .. سألتها :

ــ ماذا دهاك ؟

ــ لقد انتهى الوقت المحدد .

ــ لكننى لم انتهى بعد معك .

ــ سنزودك بفتاة ميكا آلية فافعل معها ما يحلو لك .

ارتدت ملابسها .. تركت الحجرة على عجل .. فى نفس اللحظة التى شرفت فيها الفتاة الآلية .. رفعت طَرف فستانها .. قالت :

ــ شبيك لبيك انا فتاتك بين ايديك .. كيف تريدنى ؟!

ضحكت .. اول مرة اضـــحك من كل قلبى .. تمنيت فى قرارة نفسي ان ابقى .. وصوتى يرن فى ارجاء الحجرة :
ــ لا اريدك .. ولكن كل ما اريده فنجان شاى يافتاة الجيشا ياحلوة
اختفت من الحجرة وصوتها يسبقها :
ــ اشـــكرك .

- ٢٧ -

فى قاعة المحكمة من جديد .. القاضى والمدعى والكمبيوتر والناس .. تقاطر الناس فى ذلك اليوم تقاطر الذباب على عســـل امتـــلأت القاعة عن آخرها والمدعى يسألنى .. لا ادرى لقد تغير أسلوب استجوابه .. بعد أن انتحى به منحى الاتهام :

ســـألنى :
ــ من أين اتيت ؟
ــ من الجنـــة .
ــ وأين هـــى ؟
ــ فوق هذه المدينة وعلى بعد أميال قليلة .
ــ فوق هـــذه المدينـــة وعلى مدى آلاف الأميال لا يعيش احـــد فمن أين أتيت ؟
ــ سبق ان اجبتك .
ــ تصر على اقوالك .
ــ لأنها الحقيقة .
ــ وكيف وصـــلت الى هذه المعرفة العلمية .

أجبتـــه :
ــ لا ادرى !

ـ. هل اتيت من كوكب آخر ؟

ــ لا .

ــ اذن فكيف عرفت كوكب اورانوس ؟

ــ لا ادرى !

وكيف استطعت تحديد عدد رواد ذلك الكوكب ؟

ــ ايضـــا لا ادرى .

ــ لقد غذينا الكمبيوتر بمعلومات خاطئـــة عن عدد رواد ذلك الكوكب حتى نعرف هويتك وكان تصــــحيحك للعد ســـليما .. فكيف وصـــلت الى هذه المعرفة .

فى تلك اللحظة دهمنى خاطر .. حقا كيف تسنى لى تصويب الخطأ .. كيف عرفت أنهم ثلاثة رواد .. وليسوا اربعة .. والكوة من جديد تنفتح فى جدار ذاكرتى .. نعم ثلاثة حطوا على كوكب اورانوس .. أنا واحد منهم .. لكن كيف والوصول اليه يستغرق عشرات السنين .

المــدعى يردد ســـؤاله من جديد .. دون أن يعثر على اجابة .. عاد يسألنى من جديد :

ــ هل كنت احد الرواد الذين حطوا عليه .

همهمات غريبة .. الرؤوس تتقارب ثم تتباعد .. والكمبيوتر يضىء بعبارة « احتمال قوى » .

ــ لكن كيف استطعت الحياة هذه للحقبة الطويلة دون أن تموت ؟!

أجبتـــه :

ــ لا ادرى !!

الكمبيوتر يرد على السؤال :

ــ قد يكون لأسباب خارجة عن ارادته أو لأســـباب علمية .. ولكن لا توجد اجابة حاسمة .

فى تلك اللحظة فجر المدعى اتهامه :

ــ هل أنت جاسوس ؟

ضحكت .. شر البلية ما يضحك اجبته :

ــ انت تخـرف .

حل الصمت والمدعى يضغط على زر .. أمامنا شاشـة صـغيرة .. بعدها .. كان صدى صـوتى يتردد فى ارجاء قاعة المحكمة وصـورتى أنا وميسورة عاريان على الشاشة .. صرخت فى حدة :

ــ اوقفوا هذه الخسة والدناءة .

صوت رئيس المحكمة يعلن فى حسم :

ــ على المتهم أن يلزم الصمت ..

الصورة على الشاشة الصغيرة .. ميسورة تتقلب فى أحضـانى .. تبتعد والرعب يسيطر عليها وهى تتملى جسدى تهمس :

ــ انت لست فى حاجة الى فتاة بل الى بقرة !!

ــ لا تخشى منى فانا قوى كالثور ناعم كاللحن .

الصمت يطبق على القاعه .. ذابت حتى الهمسـات وانا اطبق عليها بجسدى وصوتها وقد دغدغته الرغبة :

ــ ليس هكـذا .

ــ ذوبى فى احضانى حتى ينقشع عنى ضباب الماضى .

ــ اريدك كما انت بحاضرك وماضيك .

ــ أنا رجل بلا ماضى .

ــ ايا كان فانت رجل لحظتى .

الجسـدان يتلامسان .. يتلاصـقان .. يتداخـلان .. وصـوتها ندى رطب :

ــ انت تؤلمنى هكذا .

ــ الم اللـذة .

وتتوه معى .. واتوه معها .. وهى تغمغم فى غنج :

ــ كم ارغبك رغم أنك تمزق احشـائى .

لحظات وصوتها يصلنى فى حيره :

ــ من انت ؟

اجبتهـا ضاحكا :

ــ انا الحاضر اعانق المستقبل .. استروح عطره ونسماته .. ولذعة لذته .. كم أريد أن التهم كل شطيرتك !!

ابتعدت عنى متألمة وهى تتمتم :

ــ لقد اصبتني بنزف .

تعالت الضحكات والتعليقات .. والكمبيوتر يعلق على شاشته الزجاجية :

ــ اتهام الجاسوسية يحتاج الى اسانيد وأدلة جديدة ؟!

صرخت محتجا :

ــ عمل حقير .. حقير .. فليست هذه هي الحضارة .. بل التخلف .. الردة .

رئيس المحكمة يسألنى :

ــ ما أوجه دفاعك ؟

سألته ؟

ــ فى مواجهة أى تهمة ؟

ــ الجاسوسية !

ــ اتهام بلا اسانيد .

ــ ودخول المملكة عنوة ؟!

ــ انا لم ادخل فقد نقلني جنودى اليكم بعد ان أصبت بالأغماء .

ــ تقصد عمال الحفريات .

ــ لم يكونوا سوى اداة فى يد جنودى .

تعالت الضحكات من جديد والمطرقة فى يد القاضى تدق بعنف وهو يعلن :

ــ الحكم بعد المداولة .

سبع ساعات وهيئة المحكمة داخل الحجرة المغلقة .. بعدها خرج القاضى ليصدر القرار :

ــ يتأجل اصدار الحكم مدة ثلاث أيام .. يزور المتهم خلالها أرشيفا للتحضر والحضارة .. يتعرف على أسبابه .. فقد يساعده هذا على التعرف على الفصيلة التى ينتمى اليها .

* * *

عشـت فى ذهـول .. وميسـورة تطوف بى ارجاء الارشـيف ..

وسـؤالى لها :

ـ أو ليس هذا ما مررنا به .

اجابتنى مبتسـمة :

ـ هذا ارشيف التحضر .

ـ وما الفرق بين ارشيف التحضر والحضارة ؟

ـ ارشيف الحضـارة تاريخ .. أما التحضر .. فعلم .. اسـباب واسانيد وادلة .

امامى كل ما يشـغل الانسـان .. تطـوره من الامبيا الى القـردة الى الانسـان بالصـورة .. بالكلمة .. بالحفريات .. اسـانيد وادلة ومقارنات واسـتنتاجات ارشـيف هائل .. به من ثمار المعرفة الكثير .. وميسورة تشرح لى الغامض من الأسـباب .. أمامى التحضر أنهل من مائدة العـذب .. ادب وفن وعلم واختراعات وفلسـفة ومنطق .. الاسـئلة تتزاحم .. تتراص وميسورة تجيب على كل خاطره .. شاردة فى ذهنى .. سألتها فى نهاية جولتنا :

ـ هذه حضارة ثلاثة آلاف عام .

ـ نعـم .

ـ وكيف وصلتم الى هذه الحضـارة .. اقصد نقطة البداية .

ـ سـؤال يدل على ذكاء .. أعنى ذكاء القردة .. ويدل على خواء أقصد خواء العقل البشرى ..

ـ الحضـارة تعتمد على ثـلاث الانسـان والأرض والعمـل .. أما التحضر فيعتمد على فكره .. على دعوة .

ـ وأنتم كيف وصـلتم .

ـ بدعـوة التنوير .

ـ من صـاحبها .

ـ نجهل صاحبها .. فقد اختلفت الروايات بشأنه .. فمن قائل انه أتى من السـماء ثم اختفى .. ومن قائل انه دفن فى مكان مجهول ومع ذلك

لقد بقى فكره على مدار السـتين محفـوظا لا يتغير ولا يتبـدل .. تلقفه تلاميذه لينتشر بين الناس انتشار النار فى الهشيم .

مرت فترة صمت قصيرة قبل أن تستطرد قائلة :

ــ هل تريد أن تسمع المزيد .

ضـغطت على زر .. اضـاءت الحجـرة كلها بالأنـوار ثم عادت وانطفأت .. وهى تهمس لى :

ــ انظر الى الشاشة .. وسترى مفكرنا بالصوت والصورة .

سألتها مندهشا :

ــ لقد قلت منذ لحظات أنكم تجهلونه .

قالت فى سخرية :

ــ انه تسجيل للأحداث يا اله القردة اسمع ماذا يقول .

فور أن القت ميسـورة بتلك الكلمات بدات الصـور تتتابع فى هوادة ورفق .. وانا إسمع واتامل .. وارى .

* * *

افقت من غيبوبتى لأجد نفسى فى العراء .. الشمس تصهرنى .. الرمال تحرقنى .. فى مكان لم اطأه من قبل . ساورتنى الشكوك .. اين انا .. وماذا حدث بدأت أستعيد الأحداث الفائتة .. آخر ما اتذكره اننى مثلت امام المحكمة .. واصدر القاضى حكما بابعادى عن المدينة مبعوثا الى قومى انقلِ اليهم ما بثوه اياى من علم ومعرفة .. لكن كيف اتيت هنا .. بدأت استعيد الأحداث منذ اللحظة التى دخلت فيها الكهف .. اين ذلك الكهف .. بدأت ادور حول الجبل .. لاشىء .. لا أحد .. تحسست لحيتى .. ملساء ناعمة .. الشكوك من جديد تزاحم عقلى .. والشريط يمر بطيئا .. هل كنت احلم .. اهذى .. كيف !!

الشكوك تهز شجرة يقينى من جذورها . وأنا احاول ربط الأحداث هل ما مر بى كان مجرد حلم .. وميسورة .. والمدينة الفاضلة بشوارعها وانفاقها واناسها .. لا .. لا .. لم يكن حلم .

بدأت استجمع ارادتى .. استنهض نفسى من خلال عشرات الأسئلة التى تناوبت على وانا إرى على ذراعى آثار حقن .. ومع أمتعتى كتاب .. تصفحته .. أنه كتاب «التنوير» الذى أهدتنى اياه ميسورة .. حملت أمتعتى لأعود الى ديارى وعشيرتى .. لأجد فى انتظارى نمرود وعصابته يتبضون على يضعون فى يدى الأصفاد .. وفى رقبتى مقود يسحبوننى الى سجن العاصى .. انتظارا للمحاكمة .

* * *

لم يكن الطريق الموصل الى المحكمة طويلا .. باب واحد انفتح على دهليز طويل الى قاعة المعبد الرئيسية حيث تعقد جلسات المحاكمة .. القاعة معدة .. مكتظة بالبشر .. فى الخارج وقف الآلاف ينتظرون

الحكم .. حتى هذه اللحظـــة لم أكن أعرف أعضـاء المحكمة .. وممثــل الادعاء .. دوى النفير يعلن تدوم هيئة المحكمة .. ابتســمت .. بسطاوى فى المقدمة وخلفه سليم والدهل وسليط ودحروج .. وفى الطرف الآخر نمرود ممثل الادعاء . يتجــه نمرود نحوى متباهيا .. طاووس عجــوز أجرب .. ينذرنى بقولته :

ـ ســاعصرك .

لم يكن أمامى سوى أن ابصق عليه .. وانا اتمتم :

ـ سنرى من سيفعل ذلك بالآخر .

بسطاوى ينظر الى شخرا يتمتم فى وقار :

ـ فكوا اغلاله .

ثم يستطرد بصوت جمهورى :

ـ باسم الله .. مولانا .. ورب نعمتنا .. وباســم الحق والعدل تبدا المحاكمة .. المتهم حاضر .

اجبتــه :

ـ نعــم .

قال من جــديد :

ـ الادعاء يتلو التهمــة .

نمرود فى غرور :

ـ انتحال صفة الاله والتجديف .

سألنى رئيس المحكمة :

ـ مذنب أم برىء ؟

أجبت :

ـ مذنب .

اسقط فى يد الجميع .. حجر ثقيل سقط على رءوسهم المقدمم التوازن الصــمت المطبق معبق بالقلق والحذر .. بســطاوى يسـألنى من جديد :

ـ دون أن تبدى دفاعا .

ـ لماذا والحكم قد صدر باجماع الآراء قبل أن تبدأ المحاكمة .

نمـرود يتزحلق من على المقعـد واقفا على قدميـه يروح ويجيء ثم يشير الى وهو يحادث هيئة المحكمة :

ـ سيدى الرئيس .. انها مناورة خبيثـة من المتهم .. حتى يؤلب علينا الناس .. وايضا لأنه لا يملك دليلا واحدا يدحض به الاتهام .. لذلك فانا مصر على استجوابه حتى يثبت أمام الجميع صدق الاتهام الموجه اليه .

بسطاوى يسـأل :

ـ ما رأى المتهم ؟

ـ أريد نقاشا الغلبة فيه للعقل لا استجوابا .

عـوى نمرود :

ـ يا سيادة الرئيس انه شرك جديد يريد المتهم أن يوقعنا فيه .

قلـت :

ـ لماذا تخاف أيها القرد وقد أعددتم مسودة حكم الاعدام .

قال بسطاوى مهددا :

ـ نحذر المتهم من اهانة الادعاء مرة ثانية .

أعقب ذلك فترة صمت .. اقتربت فيها رؤوس هيئـة المحكمة ليعلن بسطاوى بعدها :

ـ المحكمة ترى أجابة المتهم لطلبة بشرط ان لا يخرج بمناقشـته عن موضوع التهم الموجهة اليه .

سأل نمرود فى صفاقة :

ـ حدثنا عن الاله الذى هو أنت .

قلت معقبا والابتسامة لا تفارق شفتى :

ـ انتم الذين صنعتم منى الها .

فى تلك اللحظة هاج نمرود .. صرخ :

ـ سيدى الرئيس يجب منع المتهم من الابتسام وهو يدلى بأقواله .

قال بسطاوى فى ضيق :

ــ على المتهم الامتنـــاع عن اتيان اى افعال تؤثر على ضِـــمير هيئة الحكمة او الأدعاء سواء كان هذا بالابتسام أو الايماء .

سكت بسطاوى يلتقط أنفاسه ثم استطرد قائلا :

ــ الآن تكلم . . ولكن أوجز فخير الكلام ماقل ودل .

قلــت :

ــ تريدون حديثا عن الله .

رد بسطاوى :

ــ نعـــم .

ــ فلنبدأ اذن بماهيته .

ــ نحن منصـــتون .

ــ هذا الاله الذى تتحدثون عنه تنكره الأغلبيـــة بينما الأقلية مازالت تدرس وتتامل لذلك فانا أريد منكم الصمت والأصغاء .

قاطعنى نمرود بصوته المقزز :

ــ لتفاهاتك .. الاصغاء لتجديفك .

اسكتة بسطاوى باشارة من يده وبكلماته :

ــ لك هذا الحق أيها المتهم .

ــ فلنبدأ بلفظ الله . . الذى اختلفت فيه لغات العالم مما جعل البعض يردد انه لو كان الله موجودا لأطلق على نفسه لقبا واحدا تشـــترك فى نطقه كل لغات العالم بلهجاتها المختلفـــة ولكن لفظ الله يختلف من لغة الى أخـــرى ويدللون بهذا على ان الله كجوهر ايضا صيغة بشرية من اختراع الانسان . . اللفظ والجوهر معا . .

قال نمرود فى زهو المنتصر :

ــ البـــداية حرجة .

ــ وحتى تكون لغتى مفهومه لديك ولبـــاقى البشر الأغبياء امثالك فليس امامى الا ان أكون مترجما للقانون الالهى الى اللغـــة البشرية العادية لماذا ؟ لأن الانســـــان لا يســـــتطيع ان يفهم قانون الله الا من خـــلال انسان

آخر .. لذلك كان الوسيط فى صورة انسان .. مخترع .. فنان .. اديب موسيقار .. مصلح .. مبدع وليس مخلوقا من نوع غير بشرى .. ذلك حتى يتمكن البشر من فهم قوانين الاله الأعظم .

قال نمرود :

ـ لقد افترضت هنا وجود اله .. وقانون يضعه هذا الاله .. وبهذا نكون قد اعطينا الحكم قبل الحيثيات .

ـ كل ما ارجوه أن لا تتعجل وتصمت حتى لا تضيع منى الكلمات بثرثرتك الفارغة .

قال بسطاوى بحسم موجها حديثه الى :

ـ لك هذا الحق .

استطردت مستكملا :

ـ قبل ان نخوض فى تعريف محدد لله .. ماهيته وجوهره .. نقول ان الأكوان منظورة او غير منظورة تحكمها انماط معينة من القوانين التى تنظم سيرها ومسيرتها وحركتها . .من هذه القوانين الثابتة على مر الدهور والأزمان ان لكل شىء سببا .. ولو شبهنا الله بخلية ابدية لا تفنى وان مخلوقاته ليست سوى انقسام لهذه الخلية الأبدية ولكن بعد اضافة مواد اخرى كيمائية (مواد بشرية) اكتسبت بها خواص جديدة ظاهرية بالاضافة الى خواص الخلية الأبدية .. اذا قلنا بذلك فنحن لم نبتعد عن جادة الصواب ولكننا فى نفس الوقت لم نقترب كثيرا من الحقيقة ..

ثم اذا اعتبرنا الانسان قبل أن يتوحد بثوبه البشرى جزءا من نظرية الله الهندسية ثم البسنا هذا الجزىء الثوب البشرى بما فيه من غرائز .. فتتغير بالتالى خصائص تلك الخلية الأبدية لتصبح خلية بشرية تحمل صفات جديدة .. هذه الصفات الجديدة لا تمحى الخاصية الجوهرية الالهية بل تمتزج بها .. اذا قلنا ذلك فقد قطعنا شوطا كبيرا نحو المعرفة الكلية لحقيقة الاله .

سألنى بسطاوى بتؤده :

ـ حتى الآن لم تقل لنا ما هو الله ؟

ــ الله هو تلك الخلية الأبدية وكذلك مخلوقاته من انسان وحيوان ونبات وجماد لا فرق فى ذلك بين الشمس والبقرة والقمر والشجرة والنجم الثاقب والطفل الخائب .. كلها مخلوقات الله انقسمت من الخلية الابدية بعد ان ارتدت ثوبها المادى .. كلها حتى الجماد يحكمها العقل الواعى رغم ان ظاهرها الجمود .. وحتى نقترب أكثر من مضمون تعريف الله نسأل اولا ماهو الانسان ؟! هو ذلك المخلوق المتطور الماثل الذى دنس الأرض منذ ملايين السنين والذى هو جزء من هذا العقل الواعى حتى ولو اكتسب ظاهريا صفات لا يحملها الله وهى صفاته المادية التى ترتبط به وجودا وعدما ويختلف بها عن الله .. فالله لا يجوع .. ولا يعطش .. ولا يأكل .. ولا يرتوى ولا يرغب امرأة .. ولا يبول .

سأل نمرود وكأنه امسك الذئب من ذيله :

ــ اذا كان الله فى تلك المخلوقات فكيف يسن القانون الذى يعاقب به نفسه فى مخلوقاته ؟!

قلت فى برود :

ــ مثل هذا التساؤل سطحى ويمكن الرد عليه بالرجوع الى القاعدة الفكرية البشرية وأحد أعمدتها ان القاعدة الصحيحة تستمد وجودها من قاعدة أعم واشمل صحيحة أيضا .. فرع من فروع قانون الاله .. فالأب ينجب الأولاد من صلبه ومع ذلك لا يتوانى عن عقابهم وبتطبيق تلك القاعدة البشرية على الله .. نجد أن عقاب الله لأبنائه من البشر ليس بمستبعد .. ولكن حتى مثل هذا الرد سطحى .. ذلك ان الحقيقة تكمن فى أعماق البحر فى سن العقاب كمبدأ .. هل هو من صنع الله أم صيغة بشرية تداولها البشر بعد أن قاموا على تاليفها .. وبالتالى فلا عقاب فى الآخرة .. ولا جهنم .. ولا نار .

قال نمرود فى غرور .

ــ اراك تقفز على حصان اشهب فوق تلال السحب لتنزلق الى الادانة .

ــ يا صديقى اللدود .. اذا اردت رؤية الله مجسما فتامل الشمس

والنجوم والحيوان والانســـان والنبات .. اما القول بأن الله يجلس على عرش .. وأن له مكانا محـددا يجلس فيــه يمكن التحـدث معه بلســان طلق .. فهذه أوهام صنعت بمهارة وصدقتها عقول تعيش فى دروب الجهالة المفرطة .. ولكن اذا اردت معرفة الله فليس أمامك ســوى أن تعــرف كل القوانين التى تحكم الكون ولن يتســنى لك ذلك الا اذا تحولت لكينونتك السابقة على ارتدائك للثوب البشرى .. وحتى فى هذه الحالة لن تستطيع نقل هذه المعرفة للبشر لأنك لن تكون سوى قانون :

— تقصــد نص قانون .

— اذا قلت لك قانون عاقل فستضرب رأسك فى أول جدار يقابلك .

— قانون وعاقل كيف ؟؟

— فى منتهى البساطة .. القانون يفهمه الانسان ويقوم على تفسيره وشرحه ... والنظرية الهندسية أيضا يستظهرها ويستنتج منها المنطوق . هنا عقل الانسان منفصل تماما عن النظرية الهندســية أو نص القانون .. ولكن فى حالة القانون العاقل فالقانون يمتزج تماما بالعقل .. وحدة واحدة والنظرية الهندسية هى الانسان قبل ان يدخل اطار بشريته المادية .. هنا لا توجد تفرقة بين القانون ذاته وبين العقل فيعتبر قانون عاقل .

— لقد مسحت كل ما تلقنته البشرية اياه عن الروح التى تهفهف على الميت بعد وفاته .

— الروح ماهى الا كلمة تحمل معنيان العجز والتاريخ .

— تقصد التاريخ من خلال العجز عن تفسير كينونة الانسان .

— نجحت فى استنتاجك لذلك لن ابخل عليك بمعلومة أخرى .

— ان كلامك كله يدور حول ماهية الله .. ولكن أما كان من الاجدى ان نبحث عن وجود الله قبل ان نبحث عن ماهيتــه .. فهل حقا يوجد اله ينظم هذا الكون ... أم ان هــذا الكون ينظم نفســه ذاتيا دون ما حاجة لقوة منظمة .. متحكمة .

— أن السؤال المطروح خطير .. والاجابة عليه حرجة ذلك لأنه ليس فى جعبتنا أمام هذا التاريخ الطويل ادلة مادية ملموسة على وجود الاله ..

كل حصيلة الانسانية مناقشة تاريخية مثيرة بين الماديين والدنيين لم تنته الى نتائج حاسمة فكل له حججه القوية .. ونحن ننحي تلك المناقشات جانبا .. لنبدأ حوارا مع أنفسنا حول قضية وجود الله .. والتزامنا فى هذا الحوار الصعب يعتمد على الأخذ بأسباب العقل والمنطق .. بمعنى رفض ما يرفضه العقل .. وقبول ما يستسيغه العقل والمنطق الخلاب .

قاطعنى بسطاوى فى ضيق :

ــ نعود الى سؤالنا هل الله موجود أم غير موجود .

ــ قبل الاجابة على هذا السؤال أود ان اطرح عليك انا الآخر سؤالا آخر .. ماهو مآل الأسرة خلية المجتمع الأولى اذا لم ينتظمها قانون يلتزم افرادها به .

ــ وما صلة هذا بذاك .

ــ من فضلك أجبنى .. ماذا يحدث لو استباح كل فرد فى الأسرة لنفسه أن يفعل مايريد دون ان يحد رغبته قانون .. فيطىء الشاب اخته .. ويمتنع الأب عن الانفاق على افراد الخلية .. وتهمل الأم صغارها ويعبث الاطفال بكل مايقع فى أيديهم .. يحطموه أو يقذفوا به .

ــ انها الفوضى اذن .

ــ واذا انتقلنا من فوضى هذه الخلية الصغيرة الى فوضى أوسع نطاقا .. فوضى المجتمع كله .. عندما يرفض الانسان العمل فى مصنعة أو حقله أو مكتبه .. عندما تضاء اشارات المرور لا تجاهين متضادين فى وقت واحد عندما يزج بالبرىء فى السجن .. عندما يحكم القاضى حسب اهوائه ومزاجه الشخصى .. عندما يقتل القوى الضعيف دون حساب .. عندما تنفث الوساطة والمحسوبية سمومها السرطانية داخل خلايا المجتمع .. عندما تترك السيارات فى عرض الطريق .. ويتوقف المرور .. عندما ترمى القمامة على ارصفة الشوارع .

صرخ نمرود بدهشة :

ــ هل تسمعون حديث الملحد .. والغازه عن المرور والسيارات والقمامة .

ــ أن ما قلته ليس سوى مدخل لقضيتنا العويصة بعد أن انتهينا

الى أنه فى غيبة القانون تحل الفوضى . فلابد لأى مجتمع كبر ام صغر ان ينظمه قوانين ويحكم تصرفات البشر الالتزام بهذه القوانين .. ومن هذا المنطلق نستطيع القول انه اذا كان القانون والالتزام به ضرورة حتمية للأسرة كخلية من خلايا المجتمع ... وبالتالى ضرورة حتمية لجسد المجتمع الذى ينتظم هذه الخلايا .. فما بال هذا الكون الهائل الذى يمثل الانسان داخله احد عناصره .. لقد ثبت علميا أن هذا الكون تنتظمه قوانين عدة تسير حركته يقوم العلماء باكتشافها على التوالى ... وما استطاع العلم اكتشافه رغم ضخامته .. وتنوعه ليس سوى نقطة فى محيط .

ــ انى لم أفهم حتى الآن الصلة بين وجود الله وتلك القوانين التى تحكم الكون .

ــ رويدا .. رويدا .

صاح نمرود :

ــ سفسطه سيدى الرئيس .. سفسطه .

ــ عودة معى الى الأسرة .. الخلية الأولى .. اذا تمعنا نجد أنه يوجد داخل الاسرة ثلاث عناصر اساسية تمثل مثلث الحياة .. قاعدة هذا المثلث الانسان وضلعاه القانون الأسرى ومنفذ القانون . فوجود القانون يستلزم وجود منفذ القانون وكذا من يطبق عليه هذا القانون .. واذا عبرنا خطوة أخرى تجاه تطبيقات تلك النظرية الى الكون نجد ان المثلث ينقصه ضلع وهو منفذ القانون على اعتبار ان الكون احد أضلاع هذا المثلث والقانون هو الضلع الثانى فالقانون لا يختلف عليه احد وهو الذى ينظم حركة الكائنات الذاتية وكذلك ينظم كيفية وجود ونشوء وبقاء تلك المخلوقات .. وكذا علاقتها بغيرها من الكائنات .. فالانسان والقمر والشمس والنجوم لها خصائصها الذاتية وقوانينها التى تحكم حركتها ووجودها .. وأيضا تحكمها قوانين تحدد الصلة بينها وبين غيرها من الكائنات .. لأن حتمية وجود مثل هذه القوانين يترتب عليها انتظام الكون فلا الشمس تقترب من الأرض فتصهرها ولا الكواكب تتناطح كالثيران فيفنى الكون .. ولا الأرض يتوقف دورانها فتضمر فيها الحياة فلو لم ينتظم الكون كل هذه القوانين

لحلت الفوضى ... هذه القوانين ليست وليدة الصدفة .. لأن قانون تلده الصدفة يصبح هشا يمكن أن يتغير بعكسه تماما بين لحظة وأخرى .. وتصبح الفوضى هى قانون الكون .. لذلك فان هذه القوانين التى تحكم الكون قوانين عاقلة ملتزمة .. وكذا الكائنات التى يطبق عليها هذا القانون حقيقة لا خلاف على وجودها .. فبدون الكائنات تنتفى الحكمة من وجود القانون ذاته .

ــ حتى الآن تلف وتدور كالنحلة دون أن تلدغ .. فاين مكان الله فيما أثرته من قضايا .

ــ اثبات وجود الله هنا لن يكون عن طريق القهر الفكرى الذى لا يحتاج لاثباته الا لكلمات قليلة « الله موجود ومن ينكر وجوده فهو ملحد مآله النار خالدا فيها » بل اثباته سيتم بالطريق العقلى .

ــ نحن فى شوق لمعرفة نتيجة هذا التجديف .

ــ اذا كنا قد انتهينا كنتيجة حتمية بوجود قانون ينظم حركة الكون وعمله .. واذا كنا قد قلنا بحتمية وجود أجهزة لتنفيذ القانون .. كالعائل فى الأسرة .. والحاكم فى الدولة واذا قلنا بنظرية تطابق المثلثات نجد أن اضلاع المثلث الوضعى تتمثل فى القاعدة وهى المجتمع الذى يطبق عليه القانون وساقا المثلث وهما القانون والجهاز الممثل فى الحاكم .. وهذا هو المثلث الوضعى اما المثلث الالهى فنجد أنه مثلث ناقص ضلع ويتمثل هذا الضلع فى حاكم الكائنات .. أى الله الذى ينكره البعض . ذلك أن ضلعا المثلث الآخران وهما القانون والكائنات لا يجحدهما أحد .... اذن فالخلاف حول الضلع الثالث هو الحاكم أى الاله .. وسبب هذا الخلاف ... أو الجحود أو الانكار هو الفصل بين القانون وبين الله .. وذلك انه فى المثلث الوضعى القانون ليس الحاكم بل منفصل عنه تماما .. أما الله فى مثلث الكائنات فهو غير منفصل عن القانون .. فالقانون هو الله .. والله هو القانون . وهذا هو وجه الخلاف بين النظرية الهندسية الوضعية والنظرية الهندسية الالهية ... فى النظرية الوضعية ينفصل الحاكم عن القانون .. ويتغير الحاكم رغم استمرار القانون .. بعكس النظرية الهندسية الالهية .. القانون

هو الله وبالتالى لا يتغير الله بل هو موجـود وباق لأن هذه أحدى صـفات القانون . بمعنى آخر هما ضلعان فى ضـلع واحد !! وبالتالى فانه اذا كان الحاكم فى المثلث الوضعى يحتاج لجهاز مستقل لتنفيذ القانون .. كالجهاز التنفيذى والتشريعى فان الحاكم (الله) فى المثلث الالهى لا يحتاج لهذا الجهاز المستقل لأنه مندمج فيه .. وبالتالى لا يمكن فصل الله عن قانون الكون بكل حقائقه والذى يحوى بداخله أجهزة تسييره فالانسان والحيوان والنبات وكافة الكائنات ينظمها قانون له بداخلها اعـوان (أجهـزة) تقـوم بتنفيذ هذا القانون .. هذا القانون ليس سـوى فرع من فروع القانون الاشمل والاعم وهو الله ..

بحيث ننتهى الى ان المخلوقات والكائنات سـواء التى ندركها أو التى لا نعرف عنها شـيئا محكومة فى نشوئها وفى حركتها .. وفى فنائها بقوانين عدة هى فى النهاية احـدى فروع القانون الأكبر وهو الله .. واذا كنا نريد معرفة كنه الله فعلينا أن نحيط بكل افرع هذا القانـون الأكبر وان تتسـع مداركنا للمعرفة الكلية بهذه القوانين صـغيرها وكبيرها لأن هذه المعرفة هى الطريق الوحيـد لمعرفة ماهية الله .. هذه المعرفة معرفة علمية تقـوم على حقائق واستنتاجات .. وليسـت مجرد انشاد فى كتب دينية .. هذه المعرفة تتطلب الالمام بكل أسرار القوانين التى تحكم الكون ..

سألنى بسطاوى :

ـ وهل هذا ممكن .

أجبتـه :

ـ ولم لا .

ـ متـى ؟

ـ هذا هو جوهر المشكلة .. أن الفكر الانسـانى مازال متخلفا .. كما وان الوصول الى مثل هذا الهدف يستلزم تكثيف الجهود العلمية واحتضـان العلم للعقل .. وقد يستغرق ذلك الاف السنين .. والانسان يمكنه اختصار هذه المسافة الزمنية الطويلة اذا ماركز عقله على اكتشاف القوانين التى تحكم

المخلـوقات وربط بينها وخرج بنتائج محددة .. فكل قانون يرتبط بقانون غيره .. بل واعتقد ان العقل البشرى اذا تعمق للعلم وكشف المعرفة واستوعب العلوم الانسانية يستطيع أن يصل الى ما يعتبر معجزة من الصعب تحقيقها وهي صناعة الانسان .. فالانسان اختراع كالطائرة والتلفزيون .. بل يمكن تطوير هذا الاختراع بصورة افضل .. لننقل صناعة الانسان من صورتهـا البدائية الى اخرى صاروخية .

قال نمرود فى غرور وثقة :

ـ سؤال اخير ياسيادة المتهم .. قلت انك وباقى المخلوقات تنتظمون فى قانون هو أحد فروع القانون الاشمل الذى هو الله .

ـ صـــدقت .

ـ اذن فانت لست سوى فرع من فروع هذا القانون .

ـ صـــدقت .

صرخ من جديد :

ـ كما سمعتم أنه يدعى الالوهية .. أو كما قال بعضـــهم ليس فى الجبة غير الله .

قال بســطاوى بتحدى :

ـ حتى الآن لم تجبنى على تساؤلى .. كيف الله ؟؟

ـ للأجابة على هذا الســؤال سنتبع هنا قاعـدة اساسـية تحكم المجتمعـات منذ وجـودها منطقيـة فى نشـوئها وفى اسـتمراريتها على مر الاجيـال هـذه القاعـدة تسـتلزم أن يكـون للحاكم أدواته فى تسـيير دفـة البشر فى المجتمـع وهي ما عبرنا عنهـا بالأجهـزة التشريعية والتنفيذية .. وكذلك الكون لابد أن يكون هو الآخر له أدواته .. هذه الأدوات هي الاجهزة الذاتية التى تسير حركة الكون من شموس واقمار وكائنات والعقل الانسانى ليس سوى واحد من تلك الاجهـزة باكتشافاته واختراعاته وحتى لا نضيع وسط هذا الزحام الهائل المتلاحق من الاسـئلة والاجابات نعود الى السؤال ماهو الله خاصـة وقد جاءت الاديان خلوا من

اجابة مقنعة لهذا التساؤل .. وهذا ما حدا البعض أن يتساءل فى خبث « اذا كانت الاديان من قبل الله والرسل قد تحدثوا الى الله مباشرة أو بواسطة ملائكة فلماذا لم يسر لهم بكينونته .. لماذا لم تصل الينا صورة هذا الاله الأعظم .. ولسنا هنا فى مجال الرد على هذه الاتهامات فانها تحتاج لشرحها مجلدات .. ولديكم والحمد لله شيوخ وكهان يغطون فى سبات الكتب القديمة ويرتمون فى احضان الخرافات والخزعبلات .. ولكن ليس أيضا مستحبا ان يتصف الله بالأوصاف البشرية .. فنطلق عليه أوصاف الجبار .. والمتكبر .. وغيرها وهى أوصاف يمجها الانسان العادى ويرفض اتصافه بها فكيف بالله اذن ؟! الصعوبة فى تحديد ماهية الله ناتجة اساسا من الفكر الذى يسيطر على العقل وهى تحجيم الله بنظرة بشرية لذلك فقد شبهتموه بالملك الذى لا ينلم ويجلس على العرش وحوله أعوانه المخلصين من الملائكة وغيرهم .. لذلك فعندما يوصف الله بأنه قانون الكون .. وأن القانون هو الله يصبح لزاما علينا هدم اسس هذا الفكر ومنها تحجيم الله وكذا ما ارتبط به من اوصاف وبالتالى هجر ما ادمنتة الأديان من وصف الله بالملك القدوس الذى يجلس على العرش ومعه أعوانه المخلصين فى السماء من الملائكة .. وعلى الأرض اعوانه من الأنبياء ينفذون قانونه الذى اوحى به اليهم .. علينا أن نهجر هذا الفكر زلالهاننا نجد فيه تعارضا بين المثلث الوضعى « الانسان والحاكم والقانون » وبين المثلث الالهى « الكائنات والملك والقانون » .. ففى هذا الفرض ينتفى التعارض بين المثلثين بعد أن أصبح الله مندمجا فى (القانون) والقانون مندمجا فى الله وبالتالى لم يعد ثمة حاجة للاعوان من الملائكة والرسل لأن قانون الله ينفذ تلقائيا ذلك لأن بداخله كل مقومات تطبيقه .. أى أدوات التنفيذ .. ويقتصر دور الانسانية على اكتشاف اسرارها .. ويترتب على هذه التفرقة انه اذا كان الله هو القانون فهو قانون ابدى ازلى غير قابل للتغيير والذى يتغير عندما يكتشف العلماء نظرية ثم يتبين خطئها ليست جزئية فى هذا القانون الأبدى الأزلى بل هو تعبير عن عجز الانسان أو هى عثرات للعقل البشرى

فى طريقه للوصـــول الى الحقيقة .. فمتى وصـــل العقل البشرى الى هذه الحقيقة فلا تبديل فيها ولا تغيير .. وهو ما يعبر عنـــه بالقانون الكامل أو القانون الالهى. والله ليس هو أحد فروع هذا القانون . بل ان الله هوالقانون الكامل لهذا الكون الذى نعيش فيه أو نراه .. وحتى نصل لحقيقة هذا الاله علينا ان نلم بكل القوانين التى تحكم الكـــون .. وبالتالى فاذا كنا بصـــدد قوانين تتعدل وتتغير فهى ليست قوانين آلهية وعلى هذا فاذا كنا قد ســـلمنا بوجود قوانين تحكم هذا الكون .. وبضرورة حتمية تلك القـــوانين لانتظام الحياة حتى لا تحل الفوضى .. وسلمنا بهذه الأمور تســـليما لا يقبل الجدل او النقاش واذا كنا قد انتهينا الى أن هذه القوانين التى تحكم الكون ليست من صـــنع البشر .. فهى قوانين سابقة على وجـــوده لها قواعـــد واسس ونظريات يقوم الانســـان باكتشافها واستيعاب مضـــامينها ثم تطويرها أيضـــا من داخل شعاب هذا القانون .. هذا التطوير ليس ايضـــا قانون صـــنعه الانســـان .. بل هو احدى وســـائله فى الوصـــول الى حقيقة هذا الكون او القانون الشامل ... الله .. ولكن تجمد الفكر لحـــد معين يعنى فى النهاية قصور العقل البشرى عن اســـتيعاب الأســـس العلمية والحقائق المنطقية التى تؤدى فى النهاية الى المعرفة الكاملـــة بهذا القانون الأعظم .. لذلك فالاعتقاد الذى يسرى فى عروق أحد الاديان أن كتابا ما او نظاما أو دعوة هو نهاية مطاف البشر وان لا قبله ولا بعده .. ليس سوى دعوة للتجمد .. والجهل .. والعودة الى احضـــان التخلف والنكوص عن السير فى ركب هؤلاء الذين يبحثون بالعلم عن وجود الله حتى ولو لم يكن ذلك مقصدهم .. وعلى هذا فان توقف العقل البشرى على لوح الأديان واعتبار هذا اللوح أمل البشرية المســـتقبلية مع انه فى الحقيقة ليس سوى مرحلة من مراحل محاولات الفكر الجادة التى بذلت على مر العصور لاكتشاف نصـــوص هذا القانون .. والتى كانت فى ذلك الوقت احـــدى الضرورات الحتمية لانقاذ البشر مما هم فيه من معاناة وتخلف .. لم تعد مثل هذه الافكار الوسيلة المثالية والحل الاشمل والأمثل للوصول بها

الى معرفة ذات الله او الالمام بكل قوانينه .. بل أصـبح العلم هو البحث الجديد للوصـول الى تحديد ماهية هذا الاله بعد ان يتم الربط بين النظريات العلمية المختلفة والوصول بها الى الوحدة الواحدة التى تمثل وحدة القانون اى وحدة الله ..

ان نهاية مطاف الأديان لو تقتنا العقل فى مغزاها وضـمونها نجد أنها تعريف للانسان بمضمون الخطأ والصواب .. هذا المضمون الذى يمر بمرحلة احتضار بعد ان هجرت القوانين الوضـعية والعرف السائد أغلب مافيه من أحكام .. وبعد أن طرحت ارضا كثيرا من المسلمات الدينية التى استحوذت على العقل فترة ليست بالقصيرة واستطاعت ان تدفن تحت أرضها فى عصور الظلام بسطوة وقوة الداعين لها نور العقل وضياء المنطق وومضـة العلم .. لم يعد ملائما العودة الى هذا المضمون او الدعوة الى الارتماء فى أحضانه .. مثل هذه الدعوة اذا لم يواكبها فكر مستنير .. وتطور فى المفهوم تصبح مثلها كمثل الرحالة الذى يحاول الوصول الى القطب الشـمالى باحدى الدواب فى عصر الفضاء والمركبات .

قال نمرود فى زهـو :

ــ أنت اذن تنكر الأرواح .

ــ هل تقصد بها بحر الاعاجيب .. البحر الذى لا تجد فية نقطة ماء واحـدة .. والذى مازلنا ندرج على تسـميته بالروح .. أم تقصـد بها « الارواح » (البمبونه) التىكانت تبعينا اياها (أم الرزق) وأنا تلميذ غر أمام المدرسة الابتدائيـة .. أم تلك الارواح الشريرة التى تتقمص البعض فتحيل حياته جحيما .. حقا انا لا أدرى من أين أتت تلك المقولة الدارجة لكنها تعبير شائع ليس له أسـاس علمى .. ورد فى كتب الاديان وسـبقتها الى الميدان بعض مخطوطات قديمة .. ثم تداولتها المفاهيم لتحاول الوصـول بها الى تعريف جامع مانع .. ولكنها عجزت فبقيت تلك الكلمة الشائعـة على مدار القرون سبة للفكر .. حية رقطاء تبث سمومها فى العقـل تعبر أولا عن عجز الانسان عن تفسير مكنون نفسه هل هو مجرد جسد ينطـرح فى النهاية على

ارض او فى أعماق بحر أم ان بداخله قوة خفية جبارة دافعة غير منظورة وهو ما يطلق عليــه الروح .. وتعبر ثانيا عن العجــز البشرى فى فهم ماهية هذه الروح على فرض وجودها .. ويســتدل بها ثالثا عن الادمان المســتميت لتحويل هذا المجهول المطلق الذى لا يعرفه أحد .. الى وجود حقيقى دون أن تسنده حقيقة او نظرية علمية أو استنتاج عقلى .

سألنى بسطاوى خانقا :

ـ وما رايــك ؟

ـ رأيى أن الانسان مازال وسيبقى لفترة بعيدة مخلوق مستغلق على الفهم .. قد تفهم ظواهره .. ولكن تبقى اسبابه سرا يستعصى على عصا موسى تحويله الى حقيقة مرآه ... والمدهش أن هذا المجهــول الذى عجزت الكتب السماوية عن الاتيان له بقبس من نور يضىء ظلمة معانيه .. هــذه الكتب تتحدث عن صعود هذا المجهول الغير معروف الى بارئه وتعذيبه بشتى انواع العذاب فى القبر .. كيف وهو مجهول غير معلوم .. غير معروف ... كيف يصعد الى السماء ما لا نعرفه .. وكيف يعذب ما لا نفهمه ؟؟

ـ اذا كنت ســترفض الروح .. فماذا بقى من الانسان .. جســد ينطرح فى البيداء ..

ـ ليس أمامنا سوى مفهوم آخر يســتحوذ على الفكر بعقلانيته .. فالانسان ليس سوى نظرية هندسية محفوظة فى عقل الله .. وبامتزاج هذه النظرية الهندســية بالنظرية المادية يتكون لدينا مخلوق يسمى بالانســان تماما كالمخترع الذى صــنع الانســان الآلى .. نظــرية هندســية ومادة خام .. النظرية الهندسية لا تختلف من انســان الى آخر .. ولكن الذى قد يختلف هو لدائن الصنع .. وبالقياس نجد ان الانســان يتكون من نظــرية هندسية وكذا مادة .. المادة فى الانسان واحدة .. لا تختلف من شــخص لآخر .. لكن الذى يميز الانسان البشرى عن غــيره من المخلوقات ليســت المادة .. ولكن كيفية صنعها المادى وهو ما يطلق عليه بالنظرية الهندسية ..

وما تحمله من صفات وراثية .. وعندما يموت الانسان .. فالذى يموت فيه الخلايا .. اما نظريته الهندسية فتبقى خالدة .. تماما كما يحدث عندما يتحطم انسان آلى ويتحول الى قطع من الصلب . تندثر المادة أو تدخل من جديد فى صناعة اخرى كما يحدث الآن للانسان فى حالة التجديد الجزئى الذى يستعين فيها بعمليات الزرع لكن فى النهاية تبقى النظرية الهندسية خالدة .. باقية .

ــ هل تعنى بذلك ان الله هو تلك النظرية الهندسية .

ــ بل اعنى أن هذه النظرية الهندسية ليست سوى أحدى فروع القانون الآلهى .. وحيث أن هذا القانون يتوحد مع الله .. أذن فالله هو القانون والقانون هو الله .

قال بسطاوى :

ــ كم نريد ان نسمع مزيدا عن هذا القانون والذى عنيت به الله .

ــ ليس القانون الذى أقصده نصا فى كتاب .. بل هو قاعدة تسير عليها حياة الكائنات وحركة الكون .. بدونها تحل الفوضى .. فاذا قلنا ان الجاذبية يحكمها قانون علمى فليس المقصود بهذا القانون النظرية التى وضعها نيوتن .. لأن النظرية لم يخترعها بل اكتشفها . بمعنى أن قانون الجاذبية كان سابقا على استظهار نيوتن لها .. كل ما فعله أنه استطاع بقدراته وملاحظته الدقيقة أن يكتشف وجوده .

سأل بسطاوى بذكه :

ــ تقصد أن الاكتشاف مسبوق بالقانون .

ــ بل اكثر من هذا ان القانون لابد وان يكون سابقا على وجود الكون والكائنات .. لأن تلك الأكوان لم تنشأ من فراغ .. بل كان سبب نشوئها قانون سابق على وجودها .

فى تلك اللحظة علا صوت نمرود معقبا بسخرية :

ــ ولماذا لا يكون العكس هو الصحيح يا ملهم .

اجبته بحـــدة :

ــ كلامك يعنى أن وجـــود الكائنات ســـابق على وجود القانون مثل هذا الفرض لا يتفق مع مسلمات المنطق فالقانون هو الذىيحكم الأشياء وينظم سيرتها .. لا الأشياء هي التى تنظم القانون .. فضلا عن ذلك فان مثل هذا الفرض يتعارض مع نظرية الســـبب المنشىء .. فلكل شيء سببا .. فسبب نشاة الكون وجود قانون ينظم نشـــأته واســـتمراره .. وزوال الشيء الذى انشاه القانون لا يعنى البته زوال القانون الذى يحكمه .. فالقانون يبقى حتى مع انعدام الشيء أو موته .. كل مافى الأمر ان شروط تطبيق القانون على شيء بعينه لم تعد متوافرة لزوال هذا الشيء او انعـــدامه .. وعلى هذا فالقانون لا يتعرض للموت أو الانقراض أو الزوال أى انه ابدى دائم .

عقب بسطاوى قائلا :

ــ تقصد الله بحديثك ؟

اســـتطردت دون أن اعلق على حديث رئيس محكمة الجزارين :

ــ كذلك نجد ان هذا القانون هو الذى يحكم حركة الأشياء من نقطة البداية وأثناء دورتها حتى النهاية .. يسيطر عليها وهى تتحرك داخل نطاق تطبيقاته وفروعه المختلفـــة .. لكن هل تعنى هـــذه الســـيطرة الغاء ارادة الكائنات .. هل تعنى أنها ليست سوى قطع شـــطرنج يحركها القانون .. لا .. بل تعنى أن الكائنات تســـير داخـــل نطاق هذا القانون لا تتعـــداه ولا تنفصل عنه ولكنها وهى داخل هذا النطاق لها ارادتهـــا وحريتها الكاملة .. أى الاختيار .. فالظواهر الطبيعية من حرارة وبرد وامطار ورعد وحركة الكون من شموس ونجوم واقمار .. وحركة الانسان والحيوان والنبات .. كل هذه الظاهر الطبيعية يشملها القانون بفروعه المختلفة .. وتدور فى فلكه لا تســـتطيع أن تتعدى نطاقه الى الفوضى .. لأن الفوضى لا ترســـم لوحتها الشريرة الا فى غياب القانـــون لكن هـــل يعنى وجود قانون يحكم حـــركة الأشياء ونشـــوئها ونهايتها التزامه بها .. هل يعنى هـــذا التزام القانون بنفســـه ..

صـــاح نمرود زاعقا :

ـ تخريف وتجديف سيادة الرئيس .. يريد أن يقــول أن الله يلتزم مثل التزام البشر .

قلت والابتسامة لا تغادر شفتى :

ـ مهلا يا نمرود .. مهــلا .. والله لو كنت كلبا لبترت ذيلك حتى لا تبصبص به لصاحبك .. ولو كنت قطا لقطعت لسانك حتى لا تموء ..

قاطعنى نمرود فى حده :

ـ هل تسمع ياسيادة الرئيس ؟!

قال بســـطاوى :

ـ المحكمة ترفض البذاءه .. وتطلب من المتهم الالتزام بالموضوعية .

ابتسمت فى اللحظة التى صرخ فيها نمرود من جديد :

ـ أنه يبتسم .. أمنعوه .

قال بســطاوى :

ـ وبعدهالك يانيابة .. خلى عندك قليلا من النظــر .. أكمل يا متهم

أكملت قائلا :

ـ هل يعنى هذا تطبيق قاعدة الالزام والالتزام على المخلوقات والاله بمساواة مطلقة .. فلا يجوز أن يخرق القانون نفسه كما لا يصح أن تخرج الكائنــات عن نطــاق القانون .. بمعنى أن الالزام يقابله التزام .. فالله عندما يلزم البشر بقانون يلتزم هو الآخر بهذا القانون .. ومن ثم فلا يجوز تعديله او تغييره . لأن تعديله يعنى الاخلال الجسيم بقاعدة الالزام التى الزم بها البشر .. فاذا هو خرق القانون .. فليس عليه أن يطالب البشر بالالتزام بالقانون .. أى الزامهم به .

سأل بسطاوى فى هدوء :

ـ اذا كان حديثك صحيحا فلماذا تخرج الكائنات على القانون الالهى

ـ الكائنات لا تستطيع أن تخرج عن القانون الذى وضع بدقة ومهارة لأن هذا يعنى الفوضى .. والانهيار والزوال .

ـ واتيان الشر أليس خروجا على القانون .

ـ أن الخــير والشر اثنان من فروع القانون .. للانســـان الاختيار

بينهما .. فالانسان عندما يسرق يرتكب جريمة .. وعندما يغتصب فتاه يرتكب معصية ... كل هذه تفصيلات .. لكن هل يعني اتيانها خرق القانون الإلهي وانهياره .. لا .. لأن الشر والخير توأمان متصارعان لذلك فمثل هذه الجرائم تندرج تحت نص القانون رغم أنها مرفوضة من المجتمعات .. يتعاقب عليها .. ومحظور اتيانها لأنها تسبب ضررا بالغير .. وبالمجتمع .. اذن فالقانون كامل .. والله لا يغير من كماله .. لأنه اذا فعل فسيتم تعديله لقانون ناقص لأن القانون الكامل لا يتكرر كماله مرتين أو ثلاث في موضوع واحد .

قال بسطاوى :

ـ اذا كنت تقصد بحديثك أن الله يلزم نفسه بنفسه فلماذا لا يلتزم الحكام بالقانون .

ـ صديقى رئيس المحكمة اللدود .. أن الاجابة سهلة يستطيع نمرود أن يجيب عليها .. فهلا وجهت اليه سؤالك .

تصدى نمرود للأجابة :

ـ أولا .. الاله يستطيع أن يفعل ما يشاء .. لا يلزمه قانون وضعه .. يغير فيه متى شاء وكيف ماشاء وبالتالى والحاكم يمثل الاله على الأرض له أيضا هذا الحق .

قلت في استياء ظاهر :

ـ هل يصدق أحد هذه الخرافة .. أن الحاكم الذى لا يلتزم بالقانون يا سيد نمرود لا يفعل ذلك الا مع شعب من الماعز أو الخراف .. شعب لا يعرف حقوق الحاكم وواجباته .. فاذا تجاوز وخرج على القانون .. فرحوا به وهللوا .. بدلا من أن يمزقوه أربا .

فجأة دوت في القاعة صرخة .. اتجهت بانظارى الى صاحبها .. لم يكن سوى مناع :

ـ والخوارق يا مولاى أو ليست خرقا للقانون الألهى .

بسطاوى يصرخ هو الآخر :

ـ اقعد .. اقعد .. انها محاكمة .. وليست ندوة .

اجبته فى هدوء :

ــ يا صديقى قصير القامة أن الخوارق التى يكتشفها الانسان أو تلك التى اكتشفها ليست سوى أحد فروع القانون الكامل .. وتتم فى نطاق هذا القانون وما ندعيه نحن من خوارق كالمخترعات العلميــة .. أو النظـريات الهندسية أو الكيمائية ومعجزات البشر ليست سوى واحد من فروع هــذا القانــون العام الشــامل .. لذلك فلا تعتبر خوارق .. لأن الخوارق معناه خرق القانون .. والعلو عليه بمعجزة ليست فيه وهذا يتنافى أصلا مع وجود قانون كامل يشمل كل شىء حتى ما ندعيه من خوارق ..

مرت فترة صمت قصيرة .. طلب منى بسطاوى استكمال ما أنقطع .

أجبته وقد حل بى التعب والارهاق :

ــ فلنؤجل ذلك للغد يا سيد بسطاوى .

قال بســطاوى :

ــ اذن فلنؤجل القضية للغد .

* * *

فى اليوم التالى انعقدت المحكمة .. الهيئة تجلس خلف المنصــة .. الناس يتابعون وقائع الجلســة بشــغف واهتمام .. مناع يبتسم لى .. الوحيد الذى يستطيع الابتسام فى جنة الشقاء .. رئيس المحكمة يطلب منى وصل ما انقطع .. قلت فى هدوء مريب وانا اقلب صفحات الكتاب :

ــ موضوع الحديث اليوم مختلف يا سيد بسطاوى . بعد أن انتهينا من حديثنا عن الله .

ــ المهم أن لا نخرج بالحديث عن نطاق التهمة . هيا اقرأ تعاويذك !!

الاختيــــــار

ـ قيل أن العقل هو ما يميز الانســان عن الحيوان .. لذلك وصـف الانســان بأنه حيوان عاقل .. هذا التمييز ثوب فضفاض يســع كثير من المعانى .. فماذا يعنى العقــل ؟ .. هــل هو للفهم .. أم الادراك ٠٠ أم التمييز ام القدرة على التصرف .. أم هى تلك المعانى كلها وغيرها مجتمعة ؟!

قيل أيضا أن الانسان حيوان متكلم .. فهل النطق وحده يكفى للتمييز بين الانسان والحيوان مع تصــور هذا المعنى عن اســتيعاب كل أسباب الاختلاف الجوهرى بين الانسان والحيوان .. فضلا عن أن اللغة والتحدث بها ليس ســوى نتاج تطــور طبيعى قد نجد مثيلا له فى لغــة التفاهم بين الحيــوانات التى نكتشــف بصيص نور من المعرفة عنها قد يوصــلنا الى اسرارها ..

لذلك كان الاختيار بمعناه حرية اختيار البدائل هو المعنى الكلى الذى يندرج تحته كل أوجه الاختلاف بين الانسان والحيوان هو البوتقة التى تصب فيها كل العلوم الانسانية .. والاختراعات العلمية عصارة فكرها ..
فمن خلال هذا الاختيار وما يعنيه اختيار البدائل أورقت شجرة المعرفة اوراقها وبات الانسان يستظل بها قرونا طويلة .

وعودة الى التاريخ القديم .. الى الانسان البدائى والذى كان يختار فى أسلوب حياته اليومية بين بدائل كائنة وموجــودة وبين انسان العصر الذى يختــار بكامل ارادته بين بدائل كائنه أو بدائل من اختــراعه هو .. بين هذا وذاك عصور أخرى هبت فيها عواصف الجهل .. تقتلع من أرض المعرفة شجرة الفكر وتقذف بها فى غياهب الظلام وعصور أخرى طرحت فيها بدائل الفكر على ساحة النقاش واستطاع العقل البشرى أن يغزو معاقل الفكر الأسود يحطمه وينحيه جانبا لينهل بعد ذلك من ينابيع العلم .. العلم هذا الامبراطور العظيم الذى اســتطاع وحده ان يســتحوذ على الساحة بكلل راســه تاج

المرئة .. ويزين صدره نياشين النظريات الحديثة فى الطب والهندسة وعلم الفضاء ولكن منذ متى يبدأ هذا الاختيار ؟! .

الاختيار يبدأ منذ مولد الانســان وينمو بنموه ويتدرج حسب مراحل حياته من طفولة .. لصبا .. لشباب .. لكهولة .. هذا الاختيار يدخل فى تكوينه عنصران الشخصية وما يؤثر فيها من صفات موروثة ومكتسبة .. والموقف وابعاده النفسية وردود أفعاله .

ونتيجة لهذا يختلف رد الفعل للحدث الواحد من شخص لآخر .. بحيث يمكن القول أن رد الفعل هو ناتج مزج الموقف بالشخصية واذا ما حولنا هذا الكلام الى أمثلة نجد أن رد فعل الزوج الذى يضبط زوجته عارية فى أحضان عشيقها يختلف من شخص لآخر حسب توليفة شخصيته .. فقد يتمثل رد الفعل فى القتل .. وقد يقتصر على الصراخ أو البكاء .. أو ابلاغ الشرطة .. رد الفعل فى هذا قد يختلف ايضا للشــخص الواحد حسب ابعاد الموقف الذى يواجه نفس الشــخص .. فرد فعل الزوج الذى يجد زوجته عارية تماما فى احضان عشيقها .. غير ذلك الذى يرى فيه نفس الزوج العشيق خارجا من حجرة نومه فقط !!

الاختيــار .. بمعنــاه الدقيــق وهــو اختيــار البــدائل يعنى بالضرورة الحرية فى اختيارها أى أن الحرية احد مســتلزمات قيــام مبــدأ الاختيار لكن هى تعنى تلك الحرية استعمالها بلا قيود أو ضوابط .. بمعنى آخر هل لكل انسان أن يختار ما يشاء وان يفعل ما يريد ؟! .

فهم الاختيار بهذا المعنى الواسع يؤدى الى كارثة فى حالة ما اذا الحق فعل صاحب الاختيار ضررا بالغير .. لأن مثل هذا الاضرار الذى يفرض على الغير قسرا يعنى فى النهاية الحاق الأذى به دون أن يختاره .. وبالتالى فهو هدم للاختيار المكفول له !! فمثلا اذا ســار شــخص عاريا فى الشارع فهو يمارس حرية اختيــاره .. ولكنه فى نفس الوقت يلحق ضررا بالغيــر الذى يتأذى من هذا الفعل الفاضح ويرفضه وبالتالى يضع قيدا على اختياره يتمثل فى عنصر الاجبار الذى يفرض عليه برؤيته عاريا .

ولكن اذا كان ولابـــد أن يمارس حريتــه فى التعــرى فليكن ذلك فى مكان لا يلحق الضرر فيه بالغـــير .. على سرير رغبتـــه مـــع امـــرأته او فى الحمـــام مع الماء الســـاخن او البارد !! ومـــع ذلك فقـــد مر التاريخ بمراحل لم يكن الانسان ليتأذى من منظر العرى وكان الرجال والنساء سواء لا يسترهم حتى ورقة توت وهـــذا ما يدفعنا الى القاء الضـــوء على الموقف وابعاده النفسية .. فصاحب الاختيار عندما كان عاريا فى الحمام أو بجوار امرأته لم يلحق ضررا بأحد .. ومن ثم فينعقـــد له اختيار كامل فى العرى وارتداء امرأة لباس البحر (المايوه) فى احد الشوارع يرفضه المجتمع .. بعكس الحال اذا كان هذا المايوه يحيط جسد امرأة فى أحد حمامات السباحة أو على أحد الشـــواطىء .. فى الفرض الأول اختارت المرأة ارتداء المايوه فى الشارع فاحدث اختيارها هذا ضررا نتيجة تأذى جمهرة الناس من رؤية هذا المشهد .. وفى الفرض الثانى مارســـت المرأة اختيارها الكامل من خـــلال لائحة اجتماعية قبلها رواد هـــذا الحمام او هذا الشـــاطىء .. هذه اللائحة تتيح لها ارتداء المايوه وتوجب على الآخرين عدم استهجان مثل هـــذا الأمر لأنهم بقبولهم اللائحة الاجتماعية يفترض رضـــائهم بكافة النتائج المترتبة على ممارســـة غيرهم أحـــد الحقوق التى كفلتهـــا تلك اللائحة ومنها ارتداء لباس البحر ..

وما يقال هنا ينطبق على مستعمرات العراة .. فليس من المقبول أن يتأذى أحد اعضـــاء هذا المنتدى الخاص من العرى ويرفع شـــعار التحجب للمرأة التى ترتاد هذا المنتدى . وينعكس الحال اذا حدث مثل هذا العرى فى شارع أو زقاق .. لذلك فلا غرابة ان توصف قبلة الحبيبين فى شارع من شوارع بعض البلدان أو فى أحد المركبات العامة قبلة زانية غير شريفة !! بل وتعـــد من الجرائم الوضـــعية التى يجرمهـــا القانون ويســـجن من أجلها مرتكبيها .. بينما تعد مثل هذه القبلة فى مجتمعات أخرى من الأمور المستباح اتيانها .. رغم أن الموقف واحد فى الحالين ويمثل قبلة عاشقين !! فلماذا أذن اختلف الأمر من تجريم لاباحة ؟! السبب فى ذلك يكمن فى الضرر .. فمجتمع ينظر الى مثل هذا الأمر نظرة تحريم وتجريم اخلاقية تسندها تقاليد وعرف

ســـائد يرتب عليهـا ضرر اجتماعى بغض النظر عن صـحة هذه النظـرة التجريبية .. بينما مجتمع آخـر يجد فيه أحدروافد الاختيار يمتنع مع حدوثها الضرر فاذا كنت لا تريد ان تقبل حبيبتك أو لا تستطيع فدع غيرك يفعل !! كما قلنا الاختيار يبدأ منذ مولد الانسان .. أما قبل ذلك فالاختيار كان معقـودا لذكر وانثى فى مواقعة جنسـية ناتجها هذا الجنين الذى يولد نتيجة هذه العلاقة حتى ولو لم يكن قصد الاثنان الحمل والولادة حتى ولو كان ما يحركهما رغبة أو نزوة طارئة أو حتى اغتصـاب مادام الحمـل احد النتائج المحتملة لتلك المباشرة الجنسـية لكن بعد ان يتم التخصـيب ينعقد الاختيـار للأنثى على اعتبار ان الجنين أصـبح جزءا من جسـدها الى أن تلده .. لكن بعد الأنفصال الجسدى بين المولود ومشـيمة الأم يبدأ اختيار الطفل نتيجة استقلاله .. هذا الاستقلال الجزئى الذى تستعمره الأم بتلبية احتياجات المولود تبدأ دائرته فى الاتسـاع رويدا .. رويدا وينمو تدريجيا حسب نمو الطفل .. وتزداد أوجه اختياره .. فيترك ثدى أمه الى لعبه .. ثم يهجرها الى أصدقائه حتى اذا ما بلغ مرحلة الشباب .. شدته المراهقة الى شـباكها فاذا ما تخلص منها بـدأت مرحلة النضـج وتحقيق الذات والاستقلال الكامل عن المستعمر الغاشم .. الأم والأب ..

وحتى يكتمل الاختيار لدى الانسان يجب توفر عنصران التميز والحرية

التمييز أى القـدرة على الاختيار فالمجنـون لا اختيار له .. والحرية أى الحرية فى استعمال هذا الاختيار بحيث يمكن القول ان الحرية أسـلوب ممارسـة .. وليسـت هدف فى حد ذاتهـا .. انما الهـدف الحقيقى هو الاختيار .. كما وأنها شرط لنشوء الاختيار وسبب لاسـتمراره ففى غيبة الحرية لا يمكن للاختيار رؤية النور ولا البقاء حيا .. فالحـرية هى الهواء الذى يساعد الاختيار على الحياة .. بدونها يختفى .. لكن ممارسة الاختيار مشروطة ايضا حتى تحقق هدف الاختيار بعدم الحاق الضرر بالغير .. وقيد عدم الاضرار بالغير هذا شرط جوهرى حتى لا تتحول الحرية الى فوضى .. لكن التوسع فى هذا الشرط بوضع ضوابط كثيرة على للحرية بحجة الضرر .. يعنى فى النهاية الغاء الاختيار والحرية .. لذلك كان لابد من استعمال هـذا

القيد فى أضيق الحدود .. وحصره داخل دائرة الضرر الفعلى الحادث للغير وما يخرج عن نطاق تلك الدائرة فهو حق للانســـان له أن يباشره بحــرية كاملــة ..

والديمقراطية بصورها المختلفة من حرية التعبير الى تكوين الأحزاب.. الى التظاهر ليست سوى صــورة من صور ممارســة حرية الاختيار .. فى غيبتها يتوه المعنى الســـياسى للديمقراطية .. ويتوه الطــريق الى هــدف الديمقراطية وهو ادارة الانسان لشئونه وعلى هذا فحرية الاختيار لها معنيان انسانى فردى وسياسى .. الفردى يقصد به تحقيق الفرد لمطالبه دون الحاق الضرر بالغير .. والسياسى يعنى مشاركة فردية فى صـــياغة مجتمع يضــم مجموعة افراد من خلال لائحة دستورية يشرعها .. لذلك فالنظام السياسى الذى تتقلص فيه قاعدة الاختيار أو تنعدم يطلق عليه نظام ديكتاتورى بعكس النظام الذى يتنوع فيه الاختيار .. وهــذا هو المعيار الحقيقى للتفرقة بين الديمقراطيــة والديكتاتورية .. لهذا فرفض الديكتاتورية كنظام حكم فى أية صــورة من صـــورها ســببه أنها تمثل خرقا لقانــون كامل وهو قانون الاختيار .. لأن الديكتاتورية تعنى القسر والارهاب ولوى ذراع الاختيار من اجل حكم الفرد ..

ضــمنى الارهـــاق داخـــل عبـاءته الســوداء .. الصـــور والاشكال تتأرجح أمام عينى .. أننى اتســـاقط .. تمالكت نفسى حاولت التماسك دون جدوى .. وجه بسطاوى وقد تحول لثلاث وجوه بستة أعين ضغطت على جبهتى براحة يدى .. ساقاى تتخاذلان أننى اهوى .. اتساقط كورقة خريف .. ورئيس المحكمة يعلن :

ــ ترفع الجلسة على أن تعقد غدا .

الساعى يزعق (محكمـــة)

الجميع يقف .. رئيس المحكمة « بســـطاوى » يتخايل وهو يحلف الى مكانه .. يجلس . حوله هيئة المحكمة الموقـــرة . وفى الركن القصى يجلس نمرود بعباءته الحمراء .. رئيس المحكمة يوجه حديثه الى .. يسأل :

ــ المتهم حاضر ؟

رغم انه فى كل مرة يرانى الا انها أصبحت عبارة مألوفة . هذه المرة لم أجبه .. استشاط غضبا صرخ من جديد :

ــ اذا لم يجب المتهم سنوجه اليه تهمة اهانة المحكمة .

ابتسمت .. فى تلك اللحظة صرخ نمرود :

ــ انه يبتسم سيدى الرئيس ..

لا ادرى لماذا تستفز ابتساماتى نمرود رغم انها الصـــفة الوحيدة التى تميزنى عن هؤلاء القردة .

رئيس المحكمة يصرخ غاضبا :

ــ هل انت حاضر يا متهم !!

قلت فى ســـخرية :

ــ نعم يا ســـيد بسطاوى .

ســـأل من جديد ؟

ــ ماذا عندك من الطبخة ؟!

استفزنى بعبارته صرخت :

ــ تطلق على الفكر طبخة يا جرسون الكلب .

حذرنى بقولتـــه :

ــ تأدب يا متهم .. فانت تخاطب من يملك حياتك .

هل اعددت نفسك للقراءة اليوم .

أومأت .. استطرد قائلا :

ـ اذن فاتلو علينا ماجاء بكتابك الملعون ..

امسكت بالكتاب قلبت صفحاته .. صوتى يهدر كأنه الموج .. الطوفان .

ـ هل للانسان قدر .. صفحة أو صفحات مدونة لا يحيد عنها ولا يبتعد عن مضمونها .. ويلتزم بنصوصها .. وينفذها حرفيا دون أن يكون له حرية اختيار النص الأصلح له .

بمعنى آخر هل الانسان مسير .. أى ليست له ارادة فى تسيير دفة اموره .. وأنه ليس سوى منفذ لقدره المكتوب .. فالايماءة والابتسامة .. والغضبة والكلمة حتى تحريك الحاجبين لمغازلة امرأة فاتنة .. كلها كتبت بمداد مجهول فى صفحة مجهولة .. تسمى القدر .. وبالتالى فان محاولات الانسان للتحضر والرقى لن تجد لها صدى سوى ما كتب بمدام هذا القدر المجهول .. بالمعنى الشائع .. « المكتوب على الجبين لازم تشوفه العين » .

ان هذا الكلام مهما اكتسب من قدسية نتيجة تداوله والايمان به باعتباره أحدى القضايا الالهية التى لا يجوز الاقتراب منها أو المساس بها .. لهو اشبه بتلك الألغاز التهويمية من شياطين وجن أحمر واسود واخضر .. وأبليس ورقيب .. وعتيد .. وعوالم ما بعد الموت .. لماذا ؟

اولا لأن القدر يعنى أن الانسان يسير فى فلك اعمال واقوال كتب عليه أن يفعلها .. بل ونتائج حكم عليه بها وهذا يعنى ببساطة شديدة أن كفاح الانسان مهما عظم شأنه فهو مرتبط بنتيجة سبق أن رصدها القدر لا تغيير فيها ولا تبديل .. فالثروة والسلطان باعتبارهما هدفين يصبو اليهما البشر يتأتيان متى شاء القدر ولا عبرة بمحاولات تبذل أو كفاح يدمى .. لأن ما هو مكتوب هو الحادث لا تغيير فيه ولا تبديل .. وبالتالى تصبح محاولات الانسانية على مر العصور فى مجالات الطب والهندسة والفضاء والكيمياء وغيرها فى فروع العلم المختلفة مرتبطة بمشيئة القدر اذا عن له

وكتبها فى صفحته فستؤتى ثمارها والا فلا ؟! وعلى الانســـان قبل أن يخطو خطـــوة نحو التقـــدم ان يعرف مقدما ما هو حظ هذه الخطـــوة فى صـــفحة القدر المجهول ؟! ..

ثانيـــا ـــ أن القدر يعنى رفض علاقة السببية بين الفعل ونتيجته .. فلا ارتباط بينهما بل انفصام كامل (شـــوزفرنيا) فالنتيجة لا تحدث بسبب الفعل .. بل تخضع لمشيئة القدر .. يحددها بالصـــورة التى يرتئيها .. فسقوط المطر ليس سببه نظرية علمية .. بل ارادة القدر والتى يكـــون من احد حوافزها ابتهال الناس ودعواتهم .. وشروق الشـــمس وغروبها ليس منشاة دوران الأرض حول نفسها بل فى المقام الأول هو مشيئة القدر فلو غير القدر تلك المشـــيئة لوجدنا الشـــمس تشرق من الغرب وتنام فى الشرق .. والموت صفحة مكتوبة لا تغيير فيها ولا تبديل .. فمن أتى أجله يأتيه الموت ولو كان فى بروج مشيدة من الصـــحة والعافية .. بلا أســـباب ظاهرة أو خفية .. يأتيه عزرائيـــل يحمحم حوله .. ويلف ويدور .. ثم يطعنـــه هذا الملعون طعنة نجلاء .. فاذا هو جثة هامدة ترفرف كالطير الذبيح فوق الأرض بعد أن يجذب روحه « بماشه » كتلك التى تستعمل فى التقاط جمر النار من « الجوزة » العصماء ،ومن يصاب بمقذوف نارى فى قلبه وينقذ .. ليس سبب نجاته تدخل المشرط ويد الطبيب.. بل لأن القدر يريد ذلك !!! والمريض يشفى لا لأنه عـــولج بل لأنه كتب فى لوحة قـــدره أن يشـــفى !! ونصـــدق من خلالها قصة أيوب الخرافية والذى شفى بعد أن نخر فى جسده الدود !! وننتهى بهذا الى رفض علاقة الســـببية بين الفعل ونتيجته فى كل مناحى حياتنا .. فنتيجة الفعل لا يصيغها سوى القدر .. ومن ثم نعدم علاقة الســـببية على متصلة التخلف .. ليصبح القدر هو صفارة الحكم الوحيدة فى الملعب يوقف المباراة متى شـــاء وينهيها كما يريد لصـــالح اى فريق حتى ولو كان الفريق المهـــزوم ..

ثالثا ـ أن تطبيق تلك القاعدة هكذا بلا ضوابط يعنى فى النهاية غيبة للقانون الكامل الذى يحكم الكون بمعنى انه اذا كان للقدر اليد الطولى فلن يتم ذلك من خلال قانون محدد يحكم الكون تأتى فيه الحيثيات قبل المنطوق بل من

خـلال غيبيات غير مفهـومة .. وبالتالي يصـبح القدر رمز للنتائج التى لا تحكمها أسباب أو مسببات .. فهى تأتى كما يشـاء القدر وفى اى وقت يشاء .. وتصبح هكذا رمزا لفوضى ليس مكانها سطور قانون كامل استنبتت فى ارضـه بذور المنطق .. وشجرة العقل بل تهويمات وخرافات .

رابعا ـ الله لا يتدخل فى حياة كل فرد تدخلا مباشرا ليرسـم له لوحة حياته بما فيها من ألوان باهتة وزاهية .. وخطوط متعرجة ومستقيمة .. وظلال وضباب .. واضواء .. بل الأقرب الى العقل القـول أن الانسان يجرى ويلهث ويأثم ويبتسم ويغضب .. ويضرب فى الأرض بلا هدى ويصل بعقله للنظريات العلمية .. ويحرك السـحب والمطر .. كل هذا من خـلال قانون كامل متكامل .. هـذا القانون ليس قدرا .. ولكنه قانون يحكم هذه الأكوان .. هذا القانون لا يرسم لكل شخص حياته .. ماذا يأكل .. وماذا يشرب .. ومن يعشق .. ومن يكره .. لكنه قانون عام شامل له نظرياته العلمية والاقتصادية والانسانية كل فرد تجرى شئونه من خلال هذا القانون الذى لم يكتشف الانسان بعد من فروعه سوى القدر اليسير .. هذا القانون لا مكان فيه للحظ المطلق .. ولا مجال فيه لتحديد عمر الانسان الا اذا كان من خـلال أحد قوانين العلم .. كمريض السرطان الذى يحدد الطب آفته ووقت موته .. هذا التحديد ليس ناتج القدر أو جنينه بل سببه قوانين العلم التى اصـبح فى مكنتها تحـديد نوع الجنين والذى كان يعتبر فى وقت من الأوقات احدى المعجزات التى لم يسر بها الله لمخلوق !! ومن منطلق تقولات شائعـة « لا يوجد دابة على الأرض الا وعلى الله رزقها » « ربك يفرجها » « تجرى جرى الوحوش وغير رزقك ما تحوش » « لن يصيب الانسان الا ما كتب له » « الاعمار بيد الله » « اعقلها وتوكل » من هذا المنطلق العاجز الكسـيح بدأ بعض الناس يدمن الكسل أملا فى جنة أرضـية تأتيه من حيث لا يدرى .. السماء التى تمطر ذهبا او الأرض التى تفجر ينابيع الثروة .. وسـاعد على تقوية هذا الاعتقاد ما هو الحادث فعلا فى كثير من البلاد .. الثروات الهائلة

التى تتفقت ايضا من حيث لا يدرون فادمنوا الكسل اكثر فأكثر واصبحوا السادة الذين يشترون بملايينهم العمال الفقراء .. وعادت اسطورة ـ العبيد تدق أبواب الحاضر والمستقبل .. فاذا كان كل شيء دان .. المال والعبيد .. فلماذا الكفاح والنضال من أجل التقدم لماذا تعب (الدماغ) وهم يستوردون العلم من الخارج بخبرائه وآلاته.. لماذا العناء فى البحث والابتكار والاختراع والملايين تنفق فى شراء أحدث مخترعات هذا الاله الجديد ..العلم.

لكن كثيرا ما تحدث كوارث كالزلازل والبراكين، والسيول والحروب والأوبئة والمجاعات وهو ما يعبر عنه بالقوى ا ناهرة .. فما حظ تلك الكوارث من القدر ؟ حتى تلك الكوارث رغم أنها قوة قاهرة فالانسان لا يفقد اختياره أمامها .. كيف ؟! لأن له امامها بدائله واختياراته لدرء ضررها .. فهى ليست قدر ولكنها ظواهر لها أسبابها وقوانينها .. والانسان فى تقدمه المذهل نحو الحضارة يحاول جماعيا او فرديا أن يقاوم مثل هذه الكوارث .. جماعيا بعلاج الآثار الضارة الناجمة عن حدوث هذه الكوارث .. أو بالوقاية منها .. بعمل السدود أو الابتعاد عن مصدر خطرها أو محاصرة اسبابها أو التحصين ضدها .. وقد تكون ردود الافعال فردية فيختار الانسان أفضل السبل المتاحة لتفادى مثل هذه الكارثة أو تلك .. فاحتراق عمارة يحدث ذعر كرد فعل للسكان .. ولكن رد الفعل هذا يختلف من شخص لآخر .. لكن ثمة قاسم مشترك يجمع هذه الردود وهو محاولة الحفاظ على الحياة .. فالذى يحاول أطفاء النار .. غير الذى يهرب .. غير الذى يقفز من النافذة .. ولكن القاسم الذى يجمع هذه الافعال هو محاولة الابتعاد عن الموت هذا يعنى أمر واحد أن الجميع كان له فرصة الاختيار بين البدائل المفروضة عليه .. فالكل كان متساوى أمام فرصة اختيار بقائه حيا أما الاختلاف فهو فى كيفية درء الخطر بالقفز من النافذة او الهرب أو محاولة الاطفاء .. وهذا ما يدفعنا للتساؤل هل الناس متساوون أمام هذا الاختيار ..

خلع نمرود خفيه .. صفق بهما .. صاح فرحا :

ــ انه الكفر بعينه .. أنه الالحاد .. لقد دخل المصيدة .. انكر القدر .. انكر قدرة الاله .. الاعدام وليس سوى الاعدام بديلا ..

قاطعته في حدة :

ــ أيها الكلب الازعر .. هلا سمعتني للنهاية .

رئيس المحكمة يرد في ثقة :

ــ وهل بعد الكفر بالقدر شيء ؟

ــ نعم .. بل اشياء .

اذن فاقرا ايها الملعون فقرات كتابك الملعون فقد اقتربت المقصلة من رقبتك او دنوت أنت منها . هيا يا ملعون .. هيا .

صوتي يهدر من جديد . كانه الزمن عندما يفيق من اغماءه بعد ثورة دامية .

١ = ١٠

المساواة أحد دعائم الاختيار .. بها يطمئن الانســـان على حريته ان تنهشها ذئاب القمع .. فالتفرقة يستلزم لاســـتمرارها ذبح أية صــيحة تطالب بالمساواة . ويقصد بالمساواة هنا كفالة الاختيار لكل فرد .. والفرد هنا لا يعتبر فردا مجردا .. بل فردا بما تحيطـــه من ظروف .. اى حالة اجتماعية .. الحالة = الانسان + الظروف .. .

هذه الحالة الاجتماعية يجب ان تكفل لها المســـاواة فى الاختيار بمعنى آخـــر يجب ان تكفل لكل الحالات المتشابهـــة نفس الحقوق التى ترتب على الاختيار .. فلا تفرقة بين حالة وأخرى متشابهتين تحملان نفس الالتزامات لأن المساواة تعنى فى النهاية مساواة فى الحق والواجب ..

لذلك كان سبب التناقضات الاجتماعية غيبة المساواة عن ساحة التطبيق وظهور الاستثناءات .. ففى غيبة المساواة عن أرض الواقع تحفر حمم نارية بقسوة أرض المجتمع كالوساطة والمحسوبية والاستثناءات والرشوة نتيجة لفقـــدان المعيار القانونى الذى يحدد الحق والالتزام لكل حالة على حـــدة .. فيزيط اللعب ويختلط الحابل بالنابل ويعلو من لا يستحق أن يعلو ويطفو على السطح غرقى الفكر والمتزلقين والمنافقين .. ويغوص الى القاع أصـــحاب المواهب والاكفاء والعباقرة .. ونجد الساحة فى النهاية وقد علا ســـقيفتها الضباب وحلت على ارضـــها الفوضى .. .. وغابت عنها اشراقة المساواة هذه المساواة لا تعنى فقط مبدأ تكافؤ الفرص بل ايضـــا المساواة الكاملة منذ ولادة الانســـان حتى موته .. وهذا يعنى أن تكفل له كفيره كافة الحقوق مقابل ادائه لالتزاماته التى تحددها الحالة التى يكون عليها هذا الانسان .. هذه الحقوق والالتزامات ترتبط ببعضـــها ارتباطا وثيقا تصاعديا او تنازليا

بمعنى انه كلما زادت ــ مسئوليات الانسان اتسع نطاق حقوقه ليستطيع من خلالها ان يواجه تلك المسئوليات .. وكلما تضاءلت مسئولياته .. ضمرت حقوقه .. وبالتالى يطرد الحق مع المسئولية اضطرادا تناسبيا .. ليتناسب مع ضخامة او صغر حجم المسئولية .. بحيث يمكن القول ان الاخلال بهذا الاضطراد وهذا التوازن يؤدي الى عواقب وخيمة .. فاذا لم تتسع دائرة الحق لتتوازى مع المسئولية .. فذلك يعنى ضآلة الحق مع عظم المسئولية .. ويعنى أيضا فى غالب الاحوال الانحراف .. واذا انقلبت الصورة وأصبح الحق الممنوح للانسان اكبر بكثير من المسئولية الملقاة على عاتقه فهذا ادعى الى الانحراف بالسلطة .. تماما كمن يرتدى جلبابا فضفاضا يتعثر فى اطرافه .. ويعوقه عن الحركة .. ويدفعه لارتكاب اخطاء . من هذا ننتهى الى أن قاعدة توازى الحق مع الواجب ضرورة حتمية بدونها تحل الفوضى دروب المجتمع .. فالطفل الذى تزيد فيه حقوقه عن واجباته ينمو طفلا مدللا .. وينعكس الحال عندما يحرم الطفل من حقه فى الرعاية والحنان والحب وكلما زاد نماء الطفل زادت رقعة واجباته وبالتالى رقعة حقوقه .. والتى تتغير حسب مراحل حياته وحسب الظروف المحيطة به باعتباره حالة .. فليس من المستساغ عقلا ان يأخذ الشباب حقوق الطفل فقط ويلتزم فى نفس الوقت بأداء واجبات الشاب .. وما ينطبق على الشاب ينطبق ايضا على رب الأسرة فكلما زادت مسئولياته كلما اتسعت دائرة حقوقه تلك الضرورية و اللازمة لأداء هذه المسئوليات .. بحيث يمكن القول انه من احد أسباب التفكك الأسرى هو عدم تحقيق التوازن سواء بالنسبة للزوجة او الزوج .. فالزوج الذى تلتهم امراته حقوقه .. والمرأة التى يستعبدها زوجها كلاهما معول يفتت التوازن بين الحق والواجب .. ففى الصورة الأولى رجل اهدرت كل حقوقه .. وفى الثانية امراة انمحت آدميتها والحاصل فى الأسرة هو ايضا محصلة المجتمع .. فبقدر ما يعطى الانسان لمجتمعه بقدر ما يأخذ . فاذا كان عطاء الانسان اكبر من عطاء المجتمع له فهذا يعنى اختلال التوازن بين الحق والواجب .. فالواجب الذى يؤديه

الفرد لا يحصل على مقابل له .. واذا كانت هذه هى الصورة الأولى للفرد للذى يعطى دون مقابل .

فالصورة الثانية اشد اسودادا واكثر عمقا .. أنها تصنع الأخاديد والحفر فى المجتمعات وتهز البنية الأساسية .. بل وتحيلها انقاضا . صورة هؤلاء الذين ينهشون القطيع المسالم بلا حياء او خجل دون أن يقدموا فى المقابل سوى الموعظة الحسنة والتمنيات الطيبة والوعود الزائفة !! عندئذ يتراكم الاحساس بالظلم .. ليتحول من شعور فردى الى احساس جماعى وتصبح آنذاك الأرض خصبة لانبات بذور للثورة .

لكن فى النهاية يصبح التوازن بين الحق والواجب بين الأخذ والعطاء هو الفيصل فى قضية المساواة فالمساواة ليست مطلقة .. معممة .. بل تأخذ فى الاعتبار لتحقيق صورها العدالة المطلقة فى كل الحالات المتشابهة أو المتماثلة وايضا توازى المسئولية مع الحق ويمكن جدولة هذا المعنى بالصورة التاليـة :

الالتزام اكبر من الحق ناتجه الانحراف

الحق أوسع من الالتزام ناتجه الانحراف أيضا

الالتزام = الحق ناتجه العدالة

١ = ١ ناتجه الانصاف

تلك الجدولة تعنى بقدر ما تعمل الخلية بقدر ما تأخذ من حقوق .. فاذا انكسرت تلك القاعدة نتج عنها شرخ فى بنيان المجتمع .. فيأخذ الانسان ما لا يستحقه .. نتيجة الالتجاء للأساليب الملتوية كالرشوة والمحسوبية واذا عجز .. فينصهر هذا العجز فى احساسه بالظلم أمام الفئة المختارة وفى المقابل اذا حرم الانسان من حقوقه تولد لديه الاحساس بالظلم وخيبة الأمل والانطواء والجمود وهو يرى بعينيه جهده وعرقه وكفاح يومه يسرقهم غيره .. فمن يعمل اقل يحصل على حقوق اكثر ومن يعمل بجد لا يجد الفتات .. وفى الحالتين سخط عام من الاغلبية ضد الاقلية المختارة .. يتحول بمرور الأيام من احساس بالسخط الى تذمر ثم الى تمرد ثم الى ثورة لا تبقى ولا تذر .

لكن هل يوجد حقا ما يسمى بالحظ ؟ اذا كان يقصد بالحظ اختلال فى بنية المجتمع فهذا صحيح اما فى مجتمع منظم فالحق يتوازى فيه مع الالتزام .. ومن خلال هذا يمكن تكوين هرم المجتمع على الوجه التالى على القمة يقف المفكرين يليهم العلماء وفى السفح الرعاع .. من صناع ومزارعين وتجار وحرفيين ومهنيين وعلة هذا ترتيب الهرمى تكمن فى الاجابة عن سؤال لمن يرجع اليه الفضل فى تطور المجتمعات ؟ خريطة الانسانية توضح أن عملاقين تناوبا القيام بهذه المهمة العسرة خلال عصور التاريخ فبدون العلم والفكر لم يكن الانسان ليأمل الخروج عن نطاق الغابة التى كان يتصارع فيها مع بنى جنسه والحيوانات . فطفرة التطور الهائلة التى يعيشها المجتمع مرجعها اكتشافات العلم ومفاهيم الفكر .. هذا الترتيب حتمى .. بمعنى أن الاخلال به يسبب اختلال فى هيكل المجتمع .. فاذا احتل الرعاع القمة وانحدر المفكرين والعلماء للسفح فهذا يعنى الاخلال الجسيم بهيكل المجتمع ويعنى أيضا فقد توازن المجتمع وانهيار قيمه وعقليته الابداعية .. بل أن فكرة بناء المدافن لدى قدماء المصريين على هيئة هرم وليس على شكل مربع او مستطيل قد توحى بتأكيد معنى التدرج الانسانى !! والمجتمعات التى ترفض هذا التدرج كما هو حادث فى الشرق حيث احتل اصحاب رؤوس الأموال ومعظمهم من الأفاقين وقطاع الطرق والجهلاء قمة الهرم .. مثل هذه المجتمعات فقدت الحس والادراك والفهم وأصبح طابعها العجز حتى فى البحث عن حقيقة ذاتها .. وفقدت بالتالى ميزة البحث والتطور والخلق والابداع .. والسؤال أو ليس هذا التدرج يعتبر اخلالا بقاعدة المساواة ؟! الا يعنى هذا التقسيم خرقا لمبدأ المساواة ؟! ابدا .. لأن هذا التقسيم ليس سوى تدوين لخريطة الواقع .. وليس مجرد اقتراح .. فالحادث فعلا ان قاطرة المجتمع لا يدفعها سوى بخار العلم والفكر وليس هذا باكتشاف حديث فقد وصلت الى معناه أكثر الدول تخلفا فأصبحت الآن منارة للفكر والعلم والحضارة بعد أن اعطت اهتماما لعلمائها ومبدعيها ومنحتهم الفرص للتزود من فروع العلم والمعرفة بالاطلاع والبحث والرحلات .. بل يمكن لنا بلا تحرز أن نضع الدول ايضا فى هذا التدرج الهرمى فعلى القمة تقف الدول التى تهتم بالعلم والفكر ..

والتي تزهو بعلمائها ومخترعيها ومفكريها .. بينما تعيش حثالة الدول والتي اهملت مفكريهـا وعلمائهـا ومبدعيها في السـفح تحت الطـين .. ديدان تأكل من روث البهائم . واذا ما انتقلنا من الفرد والدولة الى الحاكم لنناقش حقوقه وواجباته نجد أن الحل الأمثل لممارسـة الحاكم لسلطاته هو توازى الحق والواجب .. فالحاكم الذى يعطى لنفسه حقوقا أكثر من تلك الضرورية لممارسة سلطاته يخل بقاعدة المساواة وينحرف بالسلطة لذلك فالتزام الحاكم بقاعدة توازى الحق مع الواجب التزام اساسى .. والقانون الذى ينص على خلاف ذلك قانون باطل غـير مشروع يجب اسـقاطه .. ان سبب الثورات ليس الفاقه او الجوع التى يعانى منها الفرد .. بل السخط نتيجة كسر قاعدة المساواة في مجتمع يشعر فيه الفرد بحدة الفوارق الاجتماعية مجتمع تحصل فيه الأقلية على حقوق أكبر مما تؤديه من التزامات .. بينما تحصل الأغلبية على حقوق تقل بكثير من التزاماتها .. مثل هذا الاحسـاس هو الذى يفجر الثورات .. فليس سبب الثورات مجموعة مبادىء أو مثل يسـطرها قادة للثورة .. بل أن مفجرها الحقيقى هو الاحساس بالظلم .. ثم تعميق هذا الاحساس بمجموعة من الشعارات والمفاهيم تحتضن هذا الاحساس وتغذيه بأسـلوب منظم .. وهذا هو دور قادة الثورات .. بحيث لا يصـبح أمام الانسان المحروق من بدائل سـوى طريق واحد يحقق له المسـاواة .. الثـورة .

ـ الميراث يعني انتقال حقوق الميت ســـواء المادية منهـا كالعقارات والأموال او المعنوية كحقـوق التأليف او براءات الاختراعات الى ورثته .. ويعنى أن انتقال هذه الحقوق يتم بعد وفاة صاحبها .. ويعنى ايضـا ان للجسد بعد الموت وقبل ان تنتقل تلك الحقوق للورثة يعنى ان لهذا الجسـد الميت حق الملكية . بعض الشرائع لا تعترف بالميراث .. وليس هذا الانكار منصبا على نظام الميراث في حد ذاته بل هو ينبع أساسا من عدم اعترافهـا بالملكية الفردية .. وشرائع أخرى تعتبر الميراث أحد الأعمدة الرئيسية في بنية المجتمعات التي تأخذ به .. واذا ما عدنا القهقرى الى الخلف لنقرا صفحات التاريخ .. نجد ان نظام التوارث هذا سابقا على صيغ الأديان وأن الصورة التي رسمتها الأديان ليست سوى ترجمة غير امينة لما سبقها من تشريعات !! وفلسفة الميراث تكمن في ان الورثة ليسو ســـوى مكملين لحياة مورثهم .. لذلك فهم امتداد له في كافة حقوقه .. وحتى نحدد مدى توافق هـذا النظام مع الاختيار علينا أن نبحث أولا من اتفاقه أو اختلافه مع مبدأ المساواة .. خاصة وقد أدى تشـريع هذه البدعة الغريبة الى تفاوت ضخم في الثروات .. أصحاب الملايين وأصـحاب الملاليم .. مالكي اليخوت والطائرات وقاطني العشش والحفاة والعراة .. صـور نراها في المجتمعات المتخلفة اكثر حدة منها في المجتمعات المتقدمة .. لأنه لا توجد ثمة وسائل لامتصـاص جزء من تلك الثروات الضـخمة لصـالح (الغـلابة) .. تلك الثروات التي أتت لأصحابها بالصدفة من طريق الميراث .. وما يترتب على ذلك من الاخلال بقاعدة المســاواة .. فابن الجنايني العبقري يرث الفقر والعـوز والحاجة ويرسـف في اغلال التبعية .. بينما يرث ابن الثرى عن أبيه المـال وربما الغباء .. فوارق اجتماعية طاحنة ســببها ثروات تأتى دون قطرة عرق .. لذلك كان من المحتم التفكـير في إذابة تلك الفـوارق الاجتماعيـة .. ليس

بالمناداة بالغاء الملكية الفردية .. لأن هذا يعني اجهاض الحافز الشخصي .. وليس ايضا بحد سيف الضرائب الذى ثبت على مدى السنين عدم جدواه فى تمزيق الدخول المرتفعة لصالح الفقراء .. انما تتم الاذابة بثورة داخل النظام الراسمالي لا تقتلعه من جذوره .. بل تحمل مفاهيما جديدة لا تتعارض مع الأساس الفلسفى له .. ثورة أصبحت حتمية حتى لا يتعرض النظام الراسمالى للانهيار بعد أن ثبت فشله فى اذابة الفوارق الاجتماعية .. مفاهيم ينصهر داخل بوتقتها أولا مواهب الانسان وقدراته الخلابة وثانيا المساواة .. لنجد فى النهاية داخل البوتقة .. بعد ان تهدأ النار سبيكة ثمينة يمتزج فيها العدل والحق ..

ــ لكن يبقى السؤال الحائر كيف يمكن الوصول لذلك .. ليس امامنا سوى العودة لحضن الاختيار .. فالاختيار كما سبق أن أوضحنا مبدا شخصى يتصل بالانسان اتصال الجنين بالمشيمة .. ينتهى أو ينعدم بموته .. اى أن الاختيار بهذه الصلة الحيانية لا يورث فلا يمكن أن يرث الابن اختيار ابيه .. أو بمعنى آخر لا يجوز أن تصبح ارادة المورث الميتة المنعدمة شىء يتوارثه الورثة وبالتالى فان اى قرار يتخذه الابن ويعزوه للأب بعد موته يعتبر قرارا باطلا .. حتى على فرض أن هذا القرار قد صدر أثناء حياة المورث .. فان تنفيذه يصبح معلقا على وجوده حيا .. اى أنه يجب أن نفرق بين مكنة اصدار القرار وبين تنفيذه .. فمن حق المورث أن يتصرف فى أمواله بكافة التصرفات القانونية اثناء حياته وهو ما نطلق عليه مكنة اصدار القرار .. ومن حقه ايضا اثناء حياته أن يضع بارادته هذا القرار موضع التنفيذ .. ولكن بعد الوفاة لا يجوز أو يصح أن ينفذ الورثة قرارا اتخذه المورث قبل وفاته هو والعدم سواء ..وهذا منطقى لأن القول بعكس ذلك يعنى ان يصبح للوارث ارادتين .. ارادته وارادة المورث .. أى ارادة الملقى وارادة المتلقى ويصبح له بالتالى استعمال هاتين الارادتين .. وهذا باطل باطلانا مطلقا مثله مثل التوكيل للذى يعطيه الموكل.. لموكله فهو ينعدم بموته ..واذا كان مرفوضا أن يستخدم الوارث حقوق مورثه

مثل حق الانتخاب أو الترشـــيح او التعيين فى الوظائف العامة .. فليس له الحق كذلك فى استعمال حق اختيار مورثه لأنه حق متصل بذاته .. متصل بكينونته فمتى انتهت تلك الذات أو انعدمت تلك الكينونة انعدم الحق الناشىء عنها أو بمعنى كآخر اذا كان فاقد الشىء لا يعطيه .. فما هو الحال اذا كان صاحب هذا الشىء أصـــلا غير موجود .. وعلى هذا فمبدأ الاختيار لا يورث مثله فى ذلك مثل الحرية الشخصية التى لا يجوز ان تنتقل من مورث لورثته لأنها حرية لصيقة بذاته .. بكينونته التى فقدها بالموت .. والموت لا يعنى فقط موت الخلايا بل موت كافة الحقوق والالتزامات .. ويعنى ايضا سقوط كافة العقوبات .. بل والجرائم .. وبالتالى لا يمكن ان يحاكم الفرد أو يعاقب من اجل جريمة ارتكبها أثناء حياته .. واذا كان الحال كذلك فكيف تنفذ وصية للمورث بعد موته رغم أن تنفيذها يعنى رفض كل ما أوردناه من حجج وبراهين ويعنى ايضاء احياء لارادة الميت التى دفنها المجهـــول .. الميراث يعنى فرض ارادة الميت بعد مماته بتقسيم التركة .. والتى يفترض معها ان للمورث بعد موته حق الملكية .. مع أن هذا الحق يعتبر واحد من الحقوق الأساسية التى تتعلق بشخص الانسان أثناء حياته وتنتهى بموته .. قد يقال ان هذا الحق يؤول الى الورثة فور موت المورث وهنا يكمن السؤال .. كيف ؟! وما هو السند القانونى الذى يؤول بموجبه حق الملكية للغير سواء بالميراث أو الوصية لا سند فى هذا ســوى التاريخ .. وهو ما يتناقض تماما مع حرية الاختيار التى تنعدم بموت الانسان حتى على فرض أن هـــذا المورث قد ارتضى أثناء حياته أن تنتقل أصــول تركته لورثته .. لأن مثل هذا الرضاء لا يصـــحح التصرف الباطل .. ولا يضفى عليه الشرعية ومن ثم لا يحق للوارث بموجبه تملك حق اختيار مورثه الذى قلنا عنه أنه حق لصـــيق بالانسان .. فالميراث والاختيار قطبان متنافران .. بل يمكن القول أن تقرير مبـــدأ الميراث يعنى عدم الاختيار من أساسه .

اولا ــ لأنه ضــد مبدأ تكافؤ الفرص الذى هو أحد ثمار الاختيار .. فالميراث يعني استئثار فرد بميزة دون غيره .

ثانيا ــ من دعائم المساواة عدم التفرقة بين الناس والميراث يخل بهذا المبدأ فواحد يبدأ من المليون وآخر من الصفر .. صراع .. الغلبة فيه حتما لصاحب المليون .. رغم ان المساواة الحقة تحتم أن يبدأ الجميع من الصفر سباق شريف للحياة .. الغلبة فيه للعرق والكفاح .. لا مكان فيه للكسل فمن يعمل ياكل . مثل هذا الالغاء لا يعنى اهــدار الحافز الفردى .. ذلك ان الانسان تحت ظلال هــذا النظام له حق التملك والانماء والاثراء من خــلال قناة تحقيق الذات ..

لقد ثبت علميا ان الحافز الحقيقى الذى يدفع الانسان لانماء ثروته هو فى المقام الأول تحقيق ذاته .. وليست رغبته فى أن تؤول تركته الى ورثته . فضلا من ذلك فان الغاء الميراث يضيق من الهوة الساحقة التى تفصــل بين الطبقات .. ويذيب الأحقاد الطبقية .. وتتحول الرأسمالية تحت ظلال هذا النظام الى رأسمالية هادئة لا عنف فيها ولا ثورات ولا احتيال أو غش أو خداع ولا محسوبية أو رشــوة او وســاطة .. تختفى كثير من الجــرائم والأمراض الاجتماعية ويتحول فساد المجتمع الى نقاء وطهارة .

قاطعنى نمرود فى تحــد :

ــ ضقنا بفلسفاتك والكتاب الملعون .
ــ وأنا لست أقل ضيقا من جهلك وصفاقتك .
ــ اذن فأنت تكتفى بما قرأته لنا من الأكاذيب .
ــ اذا كنت ورفقائك قد اقتنعتم بالحقيقة .
ــ الحقيقة الوحيدة أنك تخطو نحو قارب الموت .
ــ بل قارب يقلنى الى مكان بعيد لا أرى فيه ســوى امراة جميلــة فى مخدع انيق .

ــ امراة بعينها ؟ .
ــ بل واحدة اذوب واياها وأنا اضاجعها ..
ــ اين هى حتى نضعها معك فى قفص الاتهام .
ــ أنها الحتمية التاريخية يا جاهل .
ــ أكمل اذن اكاذيبك وترهاتك .

ـ رحم واحد يحمــل توأم .. ذكر وأنثى من نطفــة واحــدة فلماذا ما احتواهما الوجود البشرى بدأت التفرقة المتعسفة بين الذكر والأنثى .. فى التقييم الانسانى .. الأنثى أقل درجة من الرجل لانها ناقصــة عقل ودين واذا تســاءلنا كيف يكون هــذا الانتقاص نجد أن المنطق يرفض عموميات مثل هذا النص .. ويرفض القول بالأفضــلية المطلقة للرجل .. بل يوجب بحث كل حالة على حدة سواء كانت ذكرا أم انثى لمعرفة الأفضل والأحسن فمعيار التفرقة بين الجيد والغث البشرى لا يجب ان يعتمد على النوع ذكر أم أنثى بل للفرد باعتباره حالة اجتماعية داخل نظام اجتماعى .. والا اصبحنا امام تفرقة ظالمة لا تمت للعدالة لا من قريب أو بعيد بصلة .. هذا بالنسبة للتقييم الانسانى .. واذا ما انتقلنا منه الى الحقوق المكفولة لكل من الرجل والمرأة .. نجد ان الأديان ونصــوص كثير من التشريعات قد كفلت للرجــل حقوقا أكثر بكثير مما للمرأة .. واصبح بمقتضاها فى وضع متميز .. المرأة ترث نصف الرجل .. شهادتها لا تجوز الا اذا كانت ثنائية .. للرجل الحق فى تقويمها بكافة الوسائل من هجر للسرير حتى الضرب .. ليس لها الحق فى الطلاق ولزوجها عليها حق الطاعة بل وتجبر على معاشرته جنســيا .. ليغتصب فى كل مرة كرامتها وانوثتهــا والأمثلة على اهــدار آدميتها كثيرة ومتنوعة اى ظلم هذا يجلبه عليها تكوينها الأنثوى .. رغم أنها تحمل داخل رحمها معجزة الحياة التى سيظل سرها مســتغلقا على العقل البشرى لفترة ليست بالوجيزة .

وعلى أرض الحقيقة نجد أن هــذا التميز الذى خص الرجل به نفســه لا يسنده دليل عقلى او فكر منطقى أو استنتاج علمى بل مرد الأمر كله لحجج واهية ساقها دعاة التميز منها تفوق الرجل ومسئولية الانفاق .. دعوة ليست سوى ردة فى الحضــارة !! ذلك ان لكل من الذكر والأنثى مســئولياته التى

اختصته بها الطبيعة والتى تختلف بالتالى حسب نوع كل منهما لا تفوق فيها لنوع على الآخر .. الا حسب قدرات كل شخص سواء أكان ذكرا ام انثى .. بحيث يمكن القول ان التوازن فى المسئوليات بين الذكر والأنثى قانون رسمته الطبيعة بمداد من الواقع والتاريخ .. فاذا كان على الرجل اعالة الأسرة .. فالمراة مسئولة عن الطفل والبيت .. ميزان دقيق تقبضه يد العدالة على احدى كفتيه مسئولية المراة .. وفى الكفة الأخرى مسئولية للرجل مسئوليتان متوازيتان .. لا افضلية فيها لنوع على الآخر .. بل الأفضلية تنصب على الفرد باعتباره حالة اجتماعية .. فنقول على هذا للشخص نافع او سلبى لا حسب نوعه ذكر أم أنثى بل بما يقدمه لمجتمعه واسرته .. واذا ما أردنا الاستزادة نجد ان التفرقة بين الذكر والانثى تفرقة ظالمة هجرها الواقع الآن خاصة بعد ان نزلت المراة لميدان العمل وأدت اعمالا بطولية خارقة فى كافة المجالات وقدمت اروع الأمثلة فى التضحية وفى الاخلاص وفى التفانى وانطمست تلك الصورة القبيحة التى انطبعت فى الاذهان .. صورة المراة التى تنتظر زوجها أمام باب الكوخ .. تخلع عنه بردته وعمامته .. تضع قدميه فى ماء مملح .. وفى النهاية ترتمى عارية تحت اقدامه .. انشودة لمتعته الجسدية !! لم تعد هذه صورة المراة بعد أن غزت كافة ميادين العمل بالابداع والعقل والذراع ..

والحق يقال ان الأديان لم تنشىء هذه التفرقة فهى سابقة على وجودها كل ما فى الأمر ان الأديان بصمت على قانون هذه التفرقة الظالمة ..

ان المناداة بالمساواة بين الرجل والمراة هذه المناداة لا تاتى من فراغ بل تؤيدها ادلة عقلية واسانيد فكرية .. اولها هى مبدأ الاختيار فالاختيار يعنى المساواة بين البشر لا يفرق بينهم فصيلة .. او لون .. أو نوع .. يعنى ايضا حقوقا متساوية .. انما التفرقة تأتى من اعتبار الفرد حالة تختلف عن الأخرى .. اما الحالات الاجتماعية المتماثلة فلا يجوز التفرقة بينها .. فمثلا لا يجوز منع امراة من تولى منصب معين لا لسبب الا لأنها امراة ..

فاذا كانت هذه المراة تمثل حالة اجتماعية تتشابه وظروفها مع مثيلتها

لرجل يشغل نفس المنصب ومؤهله فلا يجوز تخطيها لا لسبب الا لأنها أنثى .. هذه التفرقة نشأت منذ العصور الأولى للتاريخ عندما كان الرجل يخطف المرأة ويسحبها من شعرها .. ثم انتقلت عدواها الى عصور متقدمة فأصبح الرجل يشترى المرأة بأن يدفع لها مهرا مقابل متعته والقيام على خدمته .. وأحاطت صورة الزواج عامة وفى الشرق خاصة اطار مهذب .. لكن الصورة نفسها بات ينبض كل لون فيها بمعنى الرق .. من خلال أحكام ظالمة ضد المرأة .. فللرجل الحق المطلق فى الطلاق وما عليها سوى الطاعة دون أن تنبس حتى بكلمة « أف » كل ما عليها اذا ما لحق بها ضرر ان تطلب من المحكمة التطليق بناء على أسباب يحددها القانون على سبيل الحصر وللمحكمة ان ترفض طلب الزوجة ..رغم أن استمرار المباشرة يستلزم رضا الطرفين ويعطي لأى منهما الحق فى طلب انهاء هذه العلاقة اذا ما لحق بأحد الطرفين ضررا يستحيل مع وجوده استمرار هذه العلاقة ليصبح له الحق فى فسخها .. مثل هذا الحق مكفول للرجل فقط دون المرأة .. لماذا ؟! محاباة لا يسندها عقل أو منطق .. بها أصبحت المرأة كقطعة أثاث يقذف بها الرجل اينما وفى أى وقت يشاء .. محاباة غابت عنها الحكمة .. ضاع منها الحق .. الحق الذى يسنده فكرة التعاقد الذى تم بين طرفا العقد الزوج والزوجة .. فالعقد شريعة المتعاقدين .. اذا كان لأحدهما الحق فى فسخ العقد .. فيجب أن نكفل للطرف الآخر نفس الحق .. والا كان معنى ذلك عقد اذعان ودون ما يخالف ارادة الرضاء المفترضة لدى كلا الطرفين عند بدء التعاقد .

هذه الصورة المنبوذة من الزواج تقابلها صورة أخرى أشد ظلمة واسودادا .. وهى صورة الزواج المؤبد الذى لا يكون فيه لأحد الطرفين الحق فى فسخه حتى ولو اتفقا على ذلك .. ليصبح الشكل فى النهاية أقدس وأبقى من ارادة الطرفين .. وليصبح الانسان فى النهاية أسير صيغة سبق أن ارتضاها لينظم بها علاقته بطرف آخر .. فكيف نحقق الحد الأدنى من العدالة لزوجة تؤخذ قسرا وتسجن فى بيت زوجها ثم نرتب على هذا القسر العدوانى حقوق كاملة للزوج على جسدها وانسانيتها .. وتبقى حتى الموت سجينة علاقة زوجية دون أن تجرؤ على صرخة تطالب بها فسخ

تلك العلاقة .. فهل يمكن أن تكون مثل هذه الأحكام أحكاما عادلة .. واحد من قوانين الله الكاملة ؟! ..

ان محاولات الانسان التي بذلها على مر العصور من أجل تقدمه وتطوره والصيغ التي تنادى بها الفلاسفة والأنبياء والمصلحون لا يجب أن تنسينا الفلسفة الكامنة وراء كلماتها وهى ان هذه صيغ مرحلية قابلة للتعديل والتغيير للأحسن والأفضل والأثرى .. تغيير يتفق مع طموحات الانسان وتقدمه العلمي .. حتى لا يصبح الانسان في النهاية أسير صيغ جامدة .. تكبل التطور الانسانى بالقيود والسلاسل .. ونفقد هكذا الطريق الى الحضارة والتحضر .. ويصبح النص في النهاية اقدس من ارادة التغيير لدى الانسان .. لذلك كان حتميا أن يندرج عقد الزواج كباقي العقود تحت قاعدة العقد شريعة المتعاقدين وان يكون للطرفين وضع كافة الشرائط القانونية التي يتفقان عليها طالما انها لا تخالف النظام العام .. ومنها حق أى منهما في فسخ العقد اذا ما تعذر استمرار علاقة الزوجية .. ان غيبة السند القانوني في اعطاء الزوج الحق في اعادة زوجته الى عصمته بعد طلاقها منه بارادته المنفردة رغم انقضاء العقد بالفسخ يدفعنا للقول ان مثل هذه العودة وهذا الاسترجاع يعني عقدا جديدا يشوبه البطلان في حالة عدم موافقة المطلقة على هذا الاسترجاع .. وصورة من صور الرق المقنع يانفها المجتمع المتحضر .. ويمجها العقل لكن السؤال الذى يفرض نفسه على الساحة بقوة وشدة .. هل يعني حصول المرأة على حقها في الطلاق وتساويها معه في الحقوق الخروج من كهف الظلام الذى تعيشه ؟؟ ..

ــ بالتأكيد لا .. لأن ما سردناه كان مجرد أمثلة للعسف والظلم الذى تقاسيه المرأة اليوم .. لقد اصبحت المرأة وفى الشرق خاصة في وضع يرثى لها .. فهى مسئولة من أولادها وعن بيتها .. وعملها .. والنتيجة الحتمية عدم قدرتها على اداء كل هذه المسئوليات الملقاة على عاتقها .. فلا هى أم مثالية ولا هى عاملة مثالية .. فكان ان تفككت الأسرة .. وضاعت خيوطها وباتت النتيجة سيئة .. مؤلمة .. حزينة .. مرثية .

ان ضرورة مساواة المرأة مع الرجل ضرورة حتمية لكن المسألة مسألة وقت .. طال الوقت أم قصر ستحصل المرأة على حقها فى المساواة .. هذه المساواة تشمل كافة مناحى الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية .. وكل فى دائرة اختصاصه .. الرجل خارج البيت والمرأة المتزوجة داخله من خلال مبدأ اساسى .. للفتاة الحق فى العمل لا قيد على حريتها فى العمل لكن اذا تزوجت فلها الحق فى الاختيار بين العمل والبيت .. لكن اذا اختارت البيت لها أن تحتفظ بكل حقوقها وميزاتها كامرأة عاملة !!

وحتمية المساواة يستلزم معها أن تكون المساواة مع الرجل فى كافة الحقوق والواجبات كل فى دائرة اختصاصه .. حقوق سياسية واجتماعية واقتصادية .. حقوق كاملة غير منتقصة .. لا يحدها سوى قانون واحد فقط هو قانون الاختيار واحد فروعه المساواة ..

هذه الحقوق لن تحصل عليها المرأة بالانطواء والانزواء او الاستجداء او توكيل خصمها ليناضل من اجل انتزاعها من نفسه .. فالرجل راضى تماما عن هذا الغبن والظلم .. بل هو يصلى فى محرابهما ليل نهار من خلال وعوده الكاذبة البراقة للمرأة .. فالرجل لن يتخلى بسهولة عما اكسبته الأديان اياه من قوة وسطوة .. ولن يتغير مفهوم الرق القديم .. ذلك المفهوم الذى عاش واختمر داخل وجدانه منذ آلاف السنين فالرجل لن يتنازل اختيارا عن حقوق باتت جزءا من تكوين عقله وانسانيته .. الا اذا كان للمرأة دور ايجابى فى تغيير هذا المفهوم البالى .. وانتزاع الحق من بين براثن الأسد وهى لن تستطيع ونتك الأمية تعشش على عقول بناتها وذلك الجهل المتفشى يحاصر امهاتها .. صاحبات « حلة المحشى » و « برطمان المخلل » « وكسرولة الملوخية » والكلمة المأثورة « مستر سيد » .

بسطاوى ينظر الى اعضاء المحكمة بدهشة واستغراب يشملنى بتلك النظرات يسألنى :

ـ قلت محشى ومخلل وملوخية .

ـ نعم يا سيد بسطاوى .

ــ ماذا تعنى يا متهم بتلك الكلمات ؟

صرخ نمرود بحــده :

ــ انها يا سيدى شفرة الشيطان .. وقد تكون بداية مؤامرة معه يقضى فيها على الجنة . ابتســمت « اية جنة يا غبي تلك التى تتحدث عنها ؟! اذا كانت هــذه هي للجنـــة .. فماذا رأيت أنا فى باطن الأرض » .. عــاد نمرود يصرخ من جــديد :

ــ انه يبتسم سيدى الرئيس .. امنعوه .. فهــذه الابتسامة أحدى خيوط المؤامرة .. التى دبرها مع الشيطان .

بســطاوى يحذرنى قائلا :

ــ على المتهم الامتناع عن حديث الالغاز والابتسام .

قلت فى حــده :

ــ بل ســـامتنع نهائيا عن للتــلاوة حتى تعطــونى الفرصـــة كاملة دون مقاطعـــة .

رأس بسطاوى المدبب تميل الى اليمين ثم الى اليسار بعدها يعلن :

ــ على المتهم الاسترســـال فى القراءة .. وعلى النيابة عدم مقاطعته نهائيا حتى يتم قراءة كتابه الملعون .

ـــ لقد تجرأ البعض وانكر وجود الله . . ولم يحدث نتيجــة لذلك أن الحد كل الناس . . أو ارتدوا عن دياناتهم . . بل تفجرت ينابيع للجدل . . وتنازلت البراهين والأدلة . . وسالت دماء الأقلام فى معركة الاقتناع وارتوت ارض الفكر الجدباء بغيث الحجج والبراهين فانبتت زهور المعرفة . . وبدات قصة وجود الله تكتسب نتيجة ذلك الجدل ابعادا جديدة أهم ما فيها المقلانية . . وتمزق ثوب الخرافات البالى المهلهل فى تفســير كثير من الغيبيات التى مرغت العقل الانســانى فى الوحل دهورا طويلة وتوارثها الفكر حتى باتت احدى ســماته وارتبطت هذه الخرافات بقضــية وجود الله . . فاحاطتهــا بالشكوك . . وطوقتها بالتمرد . . لذلك كان من الأهمية بمكان أن نشــذب فكرة وجود الله من اغصانها السرطانية بالالتجاء لقفص العقل ورفض توارث فكــرة وجــود الله . . وقد تســمع من رجل بســيط ما يهز وجــدانك ويثــير حــيرتك (وماذا يهم أن أؤمن بوجــود الله عن اقتنــاع منطقــى او مــيراث دينى فالنتيجــة واحدة) . . ويبــدو هــذا القــول لأول وهلة صــحيحا . . ولكن ما يترتب عليــه من نتائج يدفعنــا لرفضــه !!

ذلك ان الايمــان بوجــود الله من خــلال الأديان والتى تطالب الانســان ايضا بالايمان بأمور تتخطى نطاق التفكير . . وترتبط قضية وجود الله بهذه الأمور ارتباط الجنين بالمشيمة وللجذر بالتربة فطالما آمن الانسان بوجود الله عن طريق الأديان فعليه تقبل كل ما يتصــل بوجود هذا الاله من جنة ونار وشياطين وملائكة . . وجن صالح . . وجن طالح . . وابليس ومعاونيه حتى لا يجرفه الانكار الى النار الحارقة . بعكس الايمان العقلى المجرد بوجود الله والذى يتحتم معه وجوب مناقشة كل قضية بمفردها . . ووضــعها تحت ميكرسكوب المنطق . . لذلك يجب فصل قضية وجود الله عن كل ما يتصــل بها قضايا . . ومناقشــة كل قضــية على حــده اذا ما اردنا حقا الايمان بحقيقتها . من تلك القضايا . . قضية اتصــال الله بالرســل . . والهامهم

المعجزات التي تميزوا بها عن سائر البشر فهل تعني المعجزة اتصال الله بالرسل ليلهمهم اياها .. اذا كانت الاجابة بالايجاب .. فسينبت من برعمها رغما عنا سؤال آخر .. وماذا لو ادعى احد المخترعين أن الله الهمه سر اختراعه عن طريق وسيط .. ملاك او شيطان .. او ان الله بنفسه اسر له به .

بالقطع سننكر عليه قولته .. رغم أنه لا خلاف حول اعجاز اختراعه الذي انفرد به دون سائر البشر ؟!

اذن فلم هذه التفرقة الظالمة .. رسول يدعي الاتصال بالله ودليله معجزته فنصدقه .. وعالم على نفس نهجه فننكر معجزته !!

ثم ماذا لو ادعى احد الأدباء أن ما يكتبه من شعر أو قصة ليس سوى وحي الهمه الله به .. هل نكذبه رغم أن ما اتى به لا يستطيعه غيره من سائر البشر .. معجزة انفرد بها .

الحقيقة أنه لا يمكن انكار مثل هذه الدعاوى الباطلة وبالتالى انكار الصلة المزعومة بين هؤلاء وبين الله بانكار معجزة العالم أو الأديب وتعريتها من ثوبها الخارق ووضعها في مصاف الأمور التى تحدث عادة وكذلك لا يمكن السير في الشوط لنهايته نتيجة العجز عن تعرية العمل من اعجازه بتاييد دعاويهم الاتصال بالله والتى استدلوا عليها بمعجزاتهم .. بل يجب ان يكون الفيصل في حقيقة اتصالهم بالله هو مدى صحة هذا الاتصال .. لذلك يجب حتى نحكم على وجود مثل هذه الصلة من عدمها أن نعي امران :

اولهما : وجود المعجزة لا يعني بالضرورة اتصال الله اتصالا مباشرا أو غير مباشر لتحقيقها .. ولا يعني تدخلا سافرا من الاله لخرق الناموس .. فالمعجزة تتحقق في غيبة هذه الصلة الافتراضية وبدون حاجة لخرق الناموس .

ثانيهما : واقعة اتصال الله بالبشر وذلك بالتحدث اليهم مباشرة او عن طريق وسيط واقعة مستقلة .. لها ذاتيتها ويجب حتى نؤمن بها أن نتثبت من حقيقة وجودها دون ان ندلل على هذا الوجود بالمعجزة التي حدثت ..

ذلك لأن الاعجاز الذى يأتيه البشر لا يعنى أن الله قد اتصل بهم وأملى عليهم معجزته .. فاذا كانت الأديان قد اعتبرت بعض الكتب معجزة وبعض القدرات كشفاء المرضى واتيان بعض الخوارق معجزة .. فهذا لا يعنى مع افتراضها كذلك أن الله قد اتصل بهؤلاء البشر ليلهمهم اياها .. مثل هذا القول يؤدى بنا الى طريق تحفة الحيرة .. والغموض والاشواك .. فماذا لو ادعى أحد العلماء أن اختراعه ملهمة الهمه الله اياها وماذا لو سار فى الطريق لنهايته وادعى النبوة طالبا من الغير أن يأتى بمثلها وماذا لو عجز هذا الغير !! هل نعترف بمثل هذا العالم نبيا مرسلا ؟! مثل هذه الاستنتاجات تجرنا فى النهاية لمتاهات تضيع فيها ومضة العقل البشرى ليتحول الى قطعة من الصفيح الصدىء .. ويتوه داخل اللا معقول .. لذلك فيجب للتثبت من صدق الادعاء لقيام مثل هذه الصلة المفترضة بالله أن يثبت بدءا ذى بدء حقيقة هذه الصلة .. وصحة وجودها لا أن يفرض على الانسان الايمان بها متحاجا فى ذلك بالمعجزة المتمثلة فى الاختراع أو الاكتشاف او ابراء الاكمة او كلمات منظومة .. بل ويذهب إلى ابعد من ذلك فيفرض على الانسان الولاء والايمان بأمور أخرى هلامية لا يفهمها العقل ولا يستسيغها المنطق .. بحجة اتصال هذه الأمور ببعضها وارتباطها ارتباطا وثيقا .. مثل هذه الدعوة لهذا النمط من الايمان المفروض يترتب عليها حظر مناقشة كل قضية على حدة .. ووضع العقل فى دائرة اختيار ضيق .. فليس أمامه سوى أن يقبلها ككل او يرفضها كلها دون أن يكون له الحق فى تجزئتها .. ومناقشة كل قضية منها على حدة .. رغم أن كثير من هذه القضايا لا يمكن الايمان بها ايمانا عقلانيا نابعا من الاقتناع .. مثل هذا الارتباط الظالم يوصل الانسان لقمة عجزه .. وحتى لا نخوض فى بحر ظلمات الوهم الأزرق للعين نضع السؤال الجوهرى .. قلب الموضوع على منضدة العمليات لنشرحه بمبضع الحقيقة .. هل الكتب السماوية من عند الله ؟؟؟؟

اذا كانت الاجابة بالايجاب فكل ماجاء بالكتب السماوية من تأليف الله .. هو المؤلف العظيم ...وما الانبياء الا مستقبلين .. ولأن الله كامل لا يخطىء .. اذن فكل ماجاء بالأديان من احكام واجبة الطاعة .. والطاعة العمياء ومن ثم لا يصح ولا يجوز نقاشها .. ويجب الاخذ بها فى كل التشريعات الوضعية .. كل صغيرة وكبيرة .. ومنكرها متمرد على قانون الله وجب عقابه .. وسحقه .. هذه الأحكام كل لا يتجزأ .. وحدة واحدة واذا كان هذا كذلك .. واذا كان ما ورد بها من أحكام ليست سوى قوانين املاها الله على البشر فيمتنع بالتالى على الفكر الانسانى نقدها او تشريحها انما كل ما يستطيع حيالها أن يفسرها دون الخروج على نصها .. ومن ثم فيحظر على العقل البشرى نفى تنزيل الكتب السماوية .. وبالتالى تصبح احكامها أبدية لا تغيير فيها ولا تبديل .. باعتبارها احكاما مثلى لقضايا الانسان لا تقبل الجدل والنقاش مثلها فى ذلك مثل القوانين العلمية التى رسخت قوانينها .. والسؤال الجوهرى .. الانسان أسمى المخلوقات .. اختص دون غيره من المخلوقات بميزة الاختيار .. أى حرية اختيار البدائل .. ومن خلال هذه الميزة استطاع ان يختار افضل البدائل .. فحقق غزو الفضاء وكثيرا من الاكتشافات العلمية القائمة على قوانين ثابتة تتحكم فى مسار الكون .. خلال هذه الاكتشافات طوع الانسان العلم لخدمة اغراضه وفى تطوير أسلوب حياته .. والتغلب على مشاكله من أجل حياة افضل .. وتحقيق أكبر قدر من السعادة .. والأديان استهدفت ايضا سعادة الانسان من خلال أحكام جاءت بها الكتب السماوية .. بعضها شاملا لكثير من مناحى الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والبعض الآخر ركز على القيم الروحية .. لكن فى النهاية يبقى الهدف لكل من العلم والدين واحدا وهو سعادة الانسان فالكتب السماوية ليست سوى صيغة ارتأتها الأديان لتحقيق حياة افضل للانسان .. بمعنى اشمل هى وصلة الهمز بين الانسان وغايته .. أى انها وسيلته .. اذن فالعلم أو الدين ليسا غاية فى حد ذاتهما بل وسيلة لتحقيق الغاية وهى سعادة الانسان .. بمعنى انه لو لم يطأ الانسان الأرض لم يكن ثمة داع لرسالة الأنبياء أو العلماء لان هذه الرسالة

يجب لقيامها أو للبدء فى الدعوة اليها وجود الانسان الذى تصله هذه الرسالة بدون هذا الانسان يضيع هدف الرسالة ومعناها ومغزاها .. لذلك فلا يمكن والحال هكذا مهما عظم شأن هذه الرسالة ان تكون الوسيلة فى أى وقت من الأوقات أعظم واجل من الغاية وهى الانسان .. وبالتالى لا يمكن ان تكون الكتب السماوية غاية فى حد ذاتها .. لأنها بذلك تفقد معناها بل وسبب استئنانها بغيبة عنصر الانسان عنها .. بل وتصبح اهم واقدس من الانسان التى شرعت من أجله .. وليصبح الانسان بهذا المعنى مجرد وسيلة قطعة شطرنج على لوح الأديان .. وهو ما ينكره الواقع .. ويدحضه الحادث .. فشعوب بأكملها لا تدمن الأديان ومع ذلك لم تنهار حضارتها ولم تتقوض دعائم بنيانها .. لأن الأديان وكتبها ليست سوى وسيلة لا غاية .. ولأنها وسيلة فحسب فقد استعاضت عنها تلك الشعوب بالعلم فازدهرت حضارتها وتقدم انسانها . هذا معناه ان احكام الأديان ليست سوى قطع شطرنج على مربع الحياة يمكن فى اى وقت من الأوقات استبدالها بصيغة أكثر نضجا واتساقا مع العصر . محصلة القول انه اذا كان هدف أحكام الأديان فى النهاية هو الانسان .. او ليس من حق هذا الانسان مناقشة بنود مايراد احتواء عقله به .. او ليس من حقه أن يبحث جدوى تطبيق مثل هذه الأحكام على مسار حياته وأن يختار منها ما يناسب ظروفه وأن يرفض ما عداها .. ان التطور واحد من أعمدة قوانين الكون التى يكتشفها الانسان فهل تتفق المناداة بالاحتماء فى احضان الأديان بأحكامها المنزلة !! والتى لايصح ولا يجوز تعديلها او تغييرها .. هل تتفق مثل هذه الدعوة مع التطور ؟!

ثم اذا كان النص الوارد فى الكتب السماوية وسيلة لاسعاد البشر من أجل حياة أفضل .. او ليس للانسان وهو حقل تجارب مثل هذا النص أن يدرس ويحلل معانيه ومنطوقه وحيثياته ليعرف جدواه وصلاحيته للتطبيق حتى لو ادى الأمر لرفضه ولا ادل على صحة ذلك قضية اباحة الرق فلو انتهينا بالتسليم بهذه القضية ومثلها كثير لعنى ذلك العودة لاحضان عصور التخلف .. ودفن للعقل الجماعى والفردى فى مقبرة البدائية .. بل وهدم دعامة الحرية ..

والمناداة بمشروعية ما ترفضه بل وتجرمه المجتمعات الآن .. لكل هذا يجب ان يكون للعقل البشرى الحق كل الحق وهو يبحث عن سعادة البشر ان يناقش جدوى اى نص بعد ان يتعمق معناه ويدرس أبعاده حتى يقرر صلاحيته لا فرق فى هذا بين نص وضعى وآخر سماوى ..

وبالتالى فلا يتحصن اى نص مهما بلغت قدسيته بمقولة أنه سماوى « لا يقصد هنا اللون » .. لأن التخفى خلف هذه الحجة كالتخفى بقلنسوة الاخفاء .. يعتقد مرتديها انه اختفى عن العيون رغم انه مرئى ومرصود .مثل هذا التخفى الخادع يدفع بالانسان الجاد أن يسأل السؤال الذى سبق أن أثرناه .. هل هذا النص من عند الله ام هو من تاليف البشر .. والانسان سيجد نفسه مضطرا للأجابة من هذا السؤال قبل الخوض فى بحر الظلمات اللعين ..

أولا ــ لأن نتائج كثيرة سترتبها الاجابة عن مثل هذا السؤال العويص ذلك لأنه اذا كانت بالايجاب فعلى الانسانية جمعاء الالتزام بكل كلمة وحرف .. وأذا كانت بالسلب فللانسان حريته الكاملة فى رفضها كاسلوب للحياة أو قبولها .. لا قيد على حريته الا ما يمليه عليه عقل المجتمع ..

ثانيا ــ ان مناقشة قضية تنزيل الكتب السماوية بالتحليل والراى الدارس باتت ملحة بعد أن اغلقت على العقل الجماعى النوافذ واوصدت دونه الأبواب ولم يعد ثمة وسيلة لتنقية الهواء الفاسد سوى ثغرة نطل منها على الحقيقة خلف جدار الخوف ..

ثالثا ــ أن فتح تلك الثغرة بمعول الجدل والنقاش من شأنه ان يثرى الحركة الفكرية برأيان متعارضان يطرقان الحديد وهو ساخن .. يطرحان أبعاد القضية وأدق تفاصيلها على بساط البحث .. يشرحان جسدها المنهوك .. لنتبين فى النهاية اس الداء .. ولنبتر بمبضع الحقيقة الآفة الشريرة .. فمن المرض الى الشفاء .. ومن الشك الى اليقين .. سواء كان هذا اليقين مع او ضد للراى القائل بالتنزيل وننتهى بهذا الى ثورة فكرية .. ريح صرصر عاتى تسقط كثيرا من أوراق الخريف المتمثلة فى الخرافات التى عاشت قرونا تلوث طهارة العقل الجماعى .. يد عفية تزيح عن كاهل الحقيقة

المستذلة رداء الوهم الذى وصل فى بعض الأحايين الى حد اليقين .. واكتسب من كثرة ترديدها والخشية من معارضتها حصانة التسليم .. أن الخوف الذى عشش على الفكر الجماعى بانسجته العنكبوتية والذى دعمه الاتهام المشرع بالردة والكفر والالحاد والتهديد باهدار الدم هذا الخوف دفع الفكر الجماعى الى الارتماء فى أحابيل الخرافات .. او الوقوف موقف المتفرج مصمصما الشفاة عاجزا .. ساخطا حتى على نفسه .. والنتيجة اظلام الجانب المضىء منه .. فمن من هؤلاء المفكرين يملك شجاعة المواجهة ولا يخاف اهدار دمه على احدى النواصى ؟!

ــ نعود بعد هذه الاستطرادة الى سؤالنا الخطير .. المجازفة الكبرى هل الكتب السماوية منزلة من عند الله ؟! ..

لا يختلف احد على أن هذه الكتب كانت وستبقى دستورا لشرائع قامت على صحائفها حضارات عريقة مازالت اعلام بعضها ترفرف حتى الآن .. لكن أمام الباحث لمناقشة هذه القضية شرك هائل وضعه بعض رجال الدين المتحذلقين ..والمتعصبون الذين يحورون صدق الكلمة والتعبير عنها الى الحاد وكفر .. رغم ذلك فليس امام الباحث الدارس طالما قد ارتأى التصدى لمثل هذه القضية الشائكة ليس امامه سوى ان يطرحها بكل ابعادها .. يعريها بالصدق .. ويشرحها بمبضع الحقيقة ليكشف مكنونها للعقل البشرى من خلال الايمان فانه لا يوجد قضية فى الوجود مهما بلغت قدسيتها يحظر على العقل البشرى مناقشتها لأنه اذا كنا قد فتحنا الباب على مصراعيه أمام قضية وجود الله فما بالك بما هو ادنى .. لذلك وحتى يثمر الحوار ثمرته المرجوة علينا أن نبدأ بالأمور التى لا يختلف حول صحتها أحد :

اولا ــ الاختيار يكفل للانسان الحرية فى اختيار معتقده ومناقشة أموره العامة منها والخاصة سياسية كانت او دينية .. اقتصادية أو اجتماعية .. انسانية او علمية .. فردية او جماعية .. بحيث اذا امتنع عليه مباشرة اى من هذه الحقوق المكفولة له تحت أية حجة مهما عظم شأنها وجل مقامها فقد أهدرنا حقه فى الاختيار الذى كفله له وجوده الانسانى ..

وبالتالى فلا اجبار على اعتناق دين أو المنـــاداة بمذهب أو الأدلاء برأى .. فالارادة التى يشوبها الاجبار أو الاكراه ارادة منعدمة لا وجود لها .

ثانيا ـ اعتناق دين أو مذهب معين مبدأ يقرره الاختيار الفـــردى .. والعمل بشريعة ما أو تحت ظلال قانون معين لمجتمـــع ما مبدأ يقرره الاختيار الجماعى من خلال قاعدة الأغلبية والتزام الأقلية بقرارالاغلبيـــة .. أذن فلا عجب أن يختلف الاختيار الفردى من واحد لآخر .. والجماعى من مجتمع الى آخر فما قد يراه أحد المجتمعات خطأ قد يراه الآخر صـــوابا .. لهـــذا فلا عجب أن نرى هذا الاختلاف الواضح فى بنيان الأنظمة الاجتماعيـــة التى تحكم المجتمعات وكذا بين الأفراد داخل البنيان الاجتماعى الواحد .

ثالثا ـ شرائع الأديان أصبحت الآن وفى أغلبها كســـيحة عن ملاحقة التطور المذهل للبشرية .. وقد فطنت كثير من المجتمعات الى هذا المفهـــوم فجاءت شرائعها خلوا من أحكام كثيرة نادت بها تلك الأديان وهذا هو حقها النابع من الاختيار الجماعى .

رابعا ـ الانسان فى حقيقة الأمر حالة اجتماعية داخل الفصيلة الواحدة ولكل حالة قدراتها وامكانياتها التى تميزها عن الحالات الأخـــرى من خلال حركتها داخل قانون عام ينتظمها ..والعباقرة ليسوا بخوارق.. لأنهم كباقى البشر يعبرون كل فى نطاقه عن حاله ليســـت فى واقع الأمر ســـوى ترجمة لقدراته الخاصـــة والتى تميز بها عن غيره .. يســـتوى فى ذلك العالم .. الأديب .. المصـــلح .. المخترع .. النبى كلهم خوارق لكن فى أذهاننا فقط أما الواقع فهم كسائر البشر يطبق عليهم قانون الله بمساواة مطلقة من خلال قانون خاص لكل حالة على حـــدة والتفرقة ناتجه من اختلاف كل حالة عن الأخرى داخل اطار القانون العام الذى لم يترك صغيرة أو كبيرة الا ونظم لها قانون حركتها .

خامسا ـ ايمان الرســـل بان الله قد اختارهم لحمل الرســـالة دعمه وثبته اعتناق الناس لتلك الرسالات بل لقد أصـــبح ايمانهم هو المعبر بين تردد الرسل فى الافصاح باتصـــالهم بالله وبين اعتقادهم الكامل بوجود هذه

الصلة .. هذا الايمان هو الذى هز ما بقى من ثمار الشك على شجرة اليقين .. لكن الذى لا جدال حوله انه لم يتم حديثا ماديا بين الله وبين أى انسان من خلال تساؤلات عدة ..

— كيف كان حديث الله .. صوت له ذبذبات أم الهام صامت كالهام الكتاب والشعراء .. واذا كان الحديث بصوت .. فكيف بهذا الصوت ؟ .. وكيف بالقائه ؟ .. وبأى لغة ؟ .. ومن قائله .. الإله .. أم أحد اتباعه من الملائكة يسمعه المتلقى دون غيره .. يتلقاه بأذن اليكترونية خصه الله بها يفهم الاشارات الخفية ليترجمها على الفور من اللغة الالهية الى اللغة التى يتداولها مجتمعه .. بل وفى قدرته أيضا أن يرى ما يعجز البشر عن رؤيته الملائكة .. والشياطين .. والجن . مثل هذه الصور لا تستقيم الا مع فرضين أحدهما .. أن يكون للانسان الرائى عين تليفزيونية تستطيع حدقتها تلقى صور العوالم الخفية دون غيره من المحيطين وثانيهما .. أن تكون الرؤية رؤيا تخيلية ليس للعين فيها دور يذكر من خلال تخيلات أو احلام يقظة . ان القانون الذى ينظم كافة المخلوقات قانون كامل متكامل .. له فروعه الكثيرة التى لم يلم بها ككل أى انسان بعد .. بل ان الانسان فى صورة عالم أو مخترع أو فنان لم يكتشف من هذه القوانين سوى ذرة صغيرة فى محيط هذا الكون .. ومازال حتى الآن يتعثر لاكتشاف فروع هذا القانون فى صورة مخترعات ليست فى الحقيقة سوى اكتشاف لقانون قائم ..

ولو نظرنا الى الرسل وما قدموه للانسانية نجد أنه من الظلم أن نغمطهم حقهم .. فقد استطاعوا اثراء الحياة الانسانية فى بعض حقبات التاريخ .. ولكن بقدر ما استفادته البشرية من تطبيق ما نادوا به بقدر ما أضيرت نتيجة فترات الركود الانسانى التى مرت بها المجتمعات .. فلى عصر النهضة كانت المجتمعات شرنقة للدين من خلال سيطرة رجال الدين .. الى أن خلع الفكر تلك الشرنقة ومزقها لتدب فيه الحياة بآراء المفكرين والفلاسفة والعلماء .. وتقدم بعض البلاد التى تعتنق الأديان فى بعض حقبات التاريخ .. ليس مرده للدين فى حد ذاته أو الاستمساك بأحكامه بل سببه نظام الحكم والقائمين عليه ورغبة الحاكم فى الاصلاح وتقويض أركان

الفساد والافساد نعود بعد هذا لسؤالنا .. هل الكتب السماوية من كلام الله ؟! لو أممنا العقل والفكر لوجدنا أن للكتب السماوية ركزت جل اهتمامها على الحلال والحرام فى صورة آيات متفرقات تربطها فكرة الاثابة والعقاب لكنها لم تكون نظرية محددة .. انما أحكام متناثرة متفرقة من خلال اوامر ونواهى وتعريف بقصص الأولين .. جاءت بعبارات عامة غير محددة .. وبكلمات مبهمة .. تهويمية .. وبوقائع يقف العقل البشرى عاجزا امام معانيها .. الغرابة ما تسرده .. بل تحول العقل الانسانى الى اكلة شهية تلتهمها الخرافات والخزعبلات .. فالعالم الخفى الذى يعيش وراء ظهرانينا والمتمثل فى الملائكة والجن والشياطين وملكهم العظيم ابليس لم تقدم لنا الصحائف الدينية دليلا على صحة وجودهم الا ما سطر .. ولم يثبت بالعلم او نظرياته على مدى القرون الطويلة وجود مثل هذه الأشكال الغريبة .. ولم يحدثنا أحد عن شكل هذه المخلوقات الا ماورد من أوصاف مادية .. فالجن من نار والملائكة من نور .. هذه الأوصاف المادية التى وصفت بها هذه المخلوقات تثبت بما لا يدع مجالا للشك خطل القول بوجودها .. فالجن مخلوقات من نار .. والنار مادة والمادة يمكن رؤيتها والاحساس بها حتى ولو كان مصدرها خافيا علينا .. اذا كان هذا كذلك فلماذا لا نرى تلك المخلوقات ؟! ثم لماذا لا نستشعر لفح حرارتها اذا تعذر علينا رؤية مصدرها !! والسؤال أين تقطن تلك المخلوقات .. هل هى تعيش بيننا .. أم ان لها كما قيل فى سالف العصور تحت الأرض مملكة تقطنها وتمارس فيها حياتها من زواج وتناسل وطعام وشراب وعمل . ان العجز البشرى فى الاجابة عن مثل هذه الاسئلة الصعبة باقناع واقتناع .. وايراد الأدلة والبراهين العقلية يدفعنا الى الشك فى وجود مثل هذه المخلوقات الغريبة خاصة وان الكتب أحجمت عن وصف هذه الشياطين اشكالها واحجامها وابعادها .. هل هى لسان من لهب أم انها نار فى شكل انسان أم فى شكل حيوان العصور المتقدمة كالتنين .. أم ماذا ؟! ..

ثم الملائكة التى هى من النور .. واذا كان السؤال كيف هى ؟! .. نور الشمس أم المصباح الكهربائى أم مصباح الزيت ؟! .. فاين هى الاجابة ؟!

ثم كيف باشكال هذه المخلوقات النورانية .. طويلة .. مستطيلة .. شـعاع مفرطح ام طيور .. وهذا الوصـف الأخـير هو ما درجت بعض الصحائف على وصفها به .. ولماذا على هيئـة طيور ؟! حتى تتمكن من التحليق فى الجو .. لأنه لم يكن أحد ليتصور فى العصور المتقدمة ان فى قدرة مخلـوق التحليق الا اذا كان بجناحين .. لذلك فلم يكن أمامهم سـوى هذا التصوير المادى الذى صور الملائكة على هيئة طيـور بجناحين او سـتمائة جناح مرصعة بالجواهر..رغم أن زينتها بتلك للجواهريستلزم معها ماديتها بل ويعوقها عن الطيران .. والأدهى من ذلك ان نجد فى من يعتنق مثل هذه الأفكار للتهويمية بل ويؤمن بها ايمانا راسـخا كالايمان بالصاروخ والقمر الصناعى بل ويزيد عليها القـول بأن الشـياطين والملائكة لها القدرة على للتشكل الى حيوانات وطيور وافاعى (بل وتصدر بها أحكام قضائيـة) .. محنة واى محنة أن يعيش الناس مثل هذه الأفكار وأن يتداولها لأنهـا تعنى الموات الفكرى .. وابليس هذا المتمرد على الاله والذى رفض السجود لآدم وتركه الاله طليقا عابثا فى مقادير الناس يوسـوس لهم الشر ولمن ؟! لمئات الملايين من البشر وفى وقت واحد .. نقول مثل هـذه الخزعبلات ونعتنقها ولنهدر دم الحقيقة الرابضة على مدخل التحليل العلمى للغرائز البشرية من خلال علم الاجتماع وعلم النفس وفروع علم الانسان المختلفة للتى ليس من بينها هذا الابليس الملعـون للذى يوسـوس للناس ولكن هل يعنى عدم صدق تلك القضايا وعدم اتساقها مع العقل هل يعنى هذا انكار تنزيل الكتب السماوية ؟! بالقطع ؟ .. اذن فالاجابة بعد لم يكتمل .. نضطر معها الى اثارة سؤالنا القديم هل الكتب السماوية من عند الله ؟ ..

أولا ــ الاسـتدلال بنص ورد فى واحد من الصـحف الدينية لاثبات تنزيلها من لدن الله ليس دليلا قاطعا لا يقبل الجدل لأنه اذا كان الدارس أصلا يبحث فى صـحة تنزيل الكتاب برمته من عند الله فكيف تلزمه بقبـول أحد نصوص هذا الكتاب حجة يحسم بها القضية لصالح القائل بتنزيله .. بمعنى آخر اذا كان الباحث ينكر أصلا تنزيل هذا الكتاب ككل .. فكيف نحتج عليه بنص ورد فيه بقبول بتنزيله !! ..

ثانيا ــ وسائل الاتصال بين الخالق والرسل والتى قيل أنها كانت تتم مباشرة بالكلام أو عن طريق وسيط اثناء اليقظة أو اثناء النوم عن طريق الاحلام مثل هذه الوسائل مشكوك فيها .. ولا يمكن ان تؤدى بنا الى حقائق يقينيه .. ذلك لأن ميلاد الحقيقة اليقينية يستلزم معها أدلة علمية أو عقلانية وهوما نفتقده فى تلك الوسائل ..

ثالثا ــ التجاج بالمعجزات فى الكتب الدينية لاثبات تنزيلها من عند الله لم يعد حجة حاسمة لا تقبل الجدل فلا يعنى وجود المعجزة « على فرض كونها كذلك» اتصال الله بالرسل لتحقيقها ..ذلك ان ربط المعجزة بالاتصال ربط ظالم لأن وجود المعجزة لا تعنى الاتصال .. وان كان تمام الاتصال يحمل معنى المعجزة .. وطالما اننا عجزنا عن اثبات تلك الصلة فلا يجوز أن نحتج بالمعجزة التى يمكن ان تحدث فى غياب تلك الصلة فالداعر القسيس را سبوتين حقق معجزة الشفاء لكنه لم يدع النبوة او الصلة بالله ودستور بوذا لم يدع صاحبه أنه كتاب موحى اليه به رغم انه ضمنه كل تعاليم الأديان .. ومعجزات العلم والنظريات والمخترعات .. لم يدع أصحابها بوجوده هذه الصلة المزعومة رغم اعجازها .. فضلا عن ذلك فقد فقدت المعجزات التى تمت على أيدى الرسل رونقها وبريقها الخاطف للابصار .. ذلك القزم الذى يقف أمام عملاق العلم يستعطفه ويستجديه .. فأين مكان انفجار هورشيما من طوفان نوح وأين زرع القلب والمخ والاعصاب من معجزة شفاء المرضى .. وأين الصعود للقمر من بلاغة النص .. « ياناس اختشو » ..

رابعا ــ التضارب فى الأحكام التى اتت بها صحائف الأديان يدفع الباحث للتساؤل .. اذا كان الله واحدا فى الأديان جميعها .. فلماذا هذا الاختلاف الصارخ بين نصوص هو الذى قام على تأليفها .. ولماذا التثليث والوحدانية فى نفس الوقت .. كيف يصبح الزواج بأكثر من واحدة زنا .. وكيف يباح فى نفس الوقت .. كيف يصبح الطلاق محرما ومحللا فى وقت واحد .. كيف تؤدى العبادات بأسلوب يختلف من عقيدة لأخرى .. ما الحكمة ان يتناقض الاله مع نفسه وهو يملى تلك الأحكام .. وهو القادر

اساسا على اعطاء الحكم الأمثل ؟! فهل مرد هذا الاختلاف والتباين فى الأحكام تعدد الآلهه أم سببه اختلاف مناهج قائلية من البشر ؟؟

خامسا ـ الله قانون كامل .. فكيف يحتوى قاموســه على كثـير من الأفكار الخاطئة والتي نســخت بغيرها بمقولة امكان تناســبها مع الظروف الجديدة .. افليست هذه حجة يمكن ان نســوقها الآن لاســتبدال الأحكام الكائنة باحكام جديدة تناســب العصر ؟؟ ثم اذا كانت الأفكار المنســوخة بغيرها .. افكارا ناقصة فهل من المتصور أن تكون احكاما كاملة ثابتة فى قانون الله أم أن الحقيقة تكمن فى البشر الذين قاموا على تاليفها .. وبالتالى تصبح أحكاما قابلة للخطا والصــواب .. قابل للتعــديل والتغيير وهذا ما يؤيده الحادث وما يؤثره المنطق ..

سادسا ـ كيف يمكن لعقل دارس تصديق أن قاموس الاله يحتوى كل هــذه الخرافات المدونة دون أن ينكفأ مرات ومرات الى ان يعتريه الهــزال والسأم .. والخلل العقلى .. والاضطراب الذهنى .. هل يمكن أن يصدق ان الله يأمر رسوله بالبحث عن بقرة لها اوصــافا معينة ليذبحها ثم يأخذ منها جزءا يضرب بها ميت ليستيقظ ويشهد على من قتله ثم يموت من جديد او أن بحرا ينشق ليســير فيه القــوم حتى اذا ما نجوا انطبق البحر على الكفره !! او الصاعقة التى اخذت قوم نبى ليتم بعثهم من جديد .. الأمثلة كثيرة تؤدى العقل الى قمة عجزه . البعض يتحدث عن نظــريات الفضــاء والبعض الآخر مازال يبحث عن نظريات الأديان ..

سابعا ـ ما أوردناه لا يعنى رفض المعجزة فالمعجزة لابد وأن يكون لها اساس علمى .. ترتبط بنظرية كونية او انسانيــة ولا تأتى من فراغ لذلك فالخوارق مرفوضة .. الا اذا كان لها قانون لأن الخوارق بدون قانون تعنى الفوضى .. واذا ما اعتبرنا ما اتاه الرسل خوارق ينتظمها قانون .. فلماذا توقفت لماذا لم تتكرر ؟! واذا قلنا انها خــوارق لا تتكرر ولا ينتظمها قانون فهى الفوضى اذن التى يعف عنها قانون الاله .

وفى النهاية .. الله كقضية عقلية .. كامل متكامل قانون الكون والحياة القانون الأمثل .. ولهذا لا يمكن أن يضـم مثل هذا القانمن الأمثل احكاما معيبة أو ناقصـة فاذا كان الله كاملا .. فكل قوانينه كاملة وكل القـوانين التى يكتشفها الانسان من صنعه هو .. لأنها قوانين كاملة .. واذا كان هذا هو نهاية مطاف الحديث .. واذا كنا قد انتهينا ايضا الى ان كثير من الأحكام والقضايا والأقوال التى اشارتها الأديان خاطئة او ناقصـة أو لا عقلانية .. فكيف يمكن أن نعزوها الى قانونه الكامل .. فكيف بالكامل ينادى بالناقص او الخطأ ؟!

الجريمة .. والعلاج

اذا كنا نرفض الجنة والنار .. واذا كان الحديث عنهما تماما كأحاديث الخرافات .. التنين الذى ينفث نارا والوحش الخرافى الذى يضرب بقبضة يده عمارة فيحيلها انقاضا والثعبان الضخم الذى يبتلع مدينة بأسرها .. اذا كنا ننكر الجنة والنار .. فما هو اذن جـزاء من يفعل الشر خاصـة اذا لم ينله عقاب القانون الوضعى ؟!

قاعدة الاثابة والعقاب ليست سوى قاعدة تاريخية قديمة ألقى ببذرتها العقيمة عقل كهنة المجتمع القديم فى ارض الفكر الجدباء نتيجة عجزها عن استنباط نوع جيد من البذور يتحمل العطش وندرة الماء وقسوة التربة .. ايضا بسبب عجزها عن استنان قاعدة انسانية بموجبها يتحقق التوازن بين افلات الفرد من العقوبة الدنيوية وبين ضرورة مجازاته على ما ارتكب من افعال تجرمها الأخلاق السائدة فى المجتمع آنذاك .. نتيجة هذا العجز لم يجد العقل البشرى امامه سوى المناداة بان المخطىء سينال جزاءه حتما فى الدار الآخرة اذا ما افلت من العقوبة الدنيوية .. وانتقلت بهـذا فكرة العقوبة من ارض الواقع الى سماء الغيبيات .. والتهويمات .. هذا التحديث والتحوير الذكى لم يكن وليد الصدفة بل هو نتاج تاريخ طويل قام فيه الكهان بغرس بذور فكرة العقاب الأخروى تدعيما لقوتهم وسـلطانهم .. واقترنت فكرة العقاب بالاثابة ايضا فمن يعمـل شرا سـيجنى فى الآخرة شرا .. ومن يعمل خيرا سيحصـد مثله ..

واسـتلهم الحكام والاشراف تلك الفكرة الذكية لوضع قانون ظالم فى ثوب قانون عادل فالمجرم الذى لم ينله القانون مآله للنار خالدا فيها أبدا .. والمظلوم الذى عجز عن الحصول على حقه مصيره للجنة .. قانون ظالم لأنه يعنى استسـلام المظلومين للقهر املا فى جنة موعودة .. وعقاب اخروى لن يفلت منه الظالم .. الظلم واقع ملموس .. وامل العدل وهم فى خلود . من

هذا المنطلق بدا الاستسلام ينصب شراكه على العقول أملا في الجنة الموعودة وكانت القدرية أولى ثمار هذا الاستسلام .. الذى انتهى الى امتطاء الأشراف والأثرياء ظهور الفقراء بالقوة والسلطة والسوط بدعوى أن هؤلاء الأشراف والأثرياء الذين عاثوا فى الارض فسادا ولم يردعهم قانون أو اخلاق .. وتحصنوا من عقاب الدنيا .. هؤلاء سيحيق بهم العذاب الأكبر يوم القيامة الموعود وتحصولت قاعدة الاثابة والعقاب هذه على يد الكهنة ورجال الدين فوضعوا لها الحواشي والهوامش وكان أن تشوشت الرؤيا .. وضاع مفهوم العقاب وفلسفته . أن فلسفة العقاب الدنيوى تعتمد على عنصرين :

أولهما : عقاب الجانى لردعه وثانيهما : تحذير الغير من ارتكاب نفس الفعل المجرم .. العقاب هنا يعنى الانتقام من الجانى وبالنسبة للغير يعنى الوقاية . قاعدة العقاب هذه قديمة قدم الانسان أخذت بها المجتمعات المتخلفة والمتحضرة لدرجة أنه لا يخلو تشريع وضعى من قانون للعقوبات .. ورغم أن هذه المجتمعات تعتبر هذه القاعدة ضرورة لا تستقيم بدونها حياة المجتمع الا انها فى الواقع قاعدة متخلفة غير حضارية توارثتها المجتمعات دون ان تبحث جدواها واهميتها فى تطور هذه المجتمعات .. عملة رديئة احد وجهيها يمثل الانتقام بكل معانيه .. قديما السارق تقطع يده والعاشق يرجم والقاتل يقتل .. وحديثا الاعدام والسجن والحبس والغرامة .. والوجه الثانى يرى فيه للغير قوة الردع التىتمنعه من الاتيان باى فعل يجرمه القانون هذه القاعدة بوجهيها باتت قاصرة عن استيعاب النظرية الحديثة التى يجب أن تسود المجتمعات .. تلك النظرية التى تنظر الى المجرم كمريض يجب علاجه لا عقابه من خلال نقاش مستفيض حول قاعدة الاثابة والعقاب وجدواها فى تطوير المجتمعات ، وكذا امكانية الاستغناء عنها لقاعدة العلاج وحتى يتسنى ذلك علينا استرجاع كافة أنواع الجرائم والتى يمكن تقسيمها الى نوعين جرائم جماعية وأخرى فردية .. الجماعية وتتمثل فى الحروب التى تستبيحها المجتمعات بل وتعدها بكل امكانيات التدمير من رجال وعتاد وعلم وتكنولوجيا .. المنتصر فيها بطل والقاتل شجاع والمنهزم مجرم حرب

والقتيل شهيد فى احدى الكفتين .. كافر فى الأخرى ولا تدرى لمن اعدت نار الآخرة الموقدة هل للمنتصر أم للمنهزم !! أم لهما معا .. وليس تاريخ الحرب ببعيد .. فقد حوكم البعض أو على الأصح من تبقى منهم كمجرمى حرب .. والسؤال ماذا لو كانوا هم المنتصرون ؟! بالتأكيد كانوا سيضعون قادة اعدائهم داخل نفس قفص الاتهام ثم قنبلة هيروشيما ونجازاكى التى قتلت وشردت مئات الآلاف من المدنيين .. من هو القاتل ؟!

القاتل هو البطل الذى زينوا صدره بالأوسمة !! فاين مكان مثل هذا البطل بعد ذلك فى الآخرة .. الجنة .. أم النار ؟! .. ان للتاريخ بشقيه الحديث والقديم شاهد أمين على حروب ومذابح اريقت فيها دماء الملايين وضاع فيها الحق الا حق المنتصر .. انطوت فيها أعلام ومبادىء وحضارات .. الا أعلام المنتصر .. فاقتتال طوائف البشر بعقائدهم المختلفة ودياناتهم المتعددة .. أى طائفة منهم كانت على حق .. وأى منها على باطل . من المخطىء ؟. ومن المصيب ؟. لمن اعدت النار التى وقودها الناس والحجارة ؟ ولمن ستفتح الجنة أبوابها المرصعة بالاحلام والمغريات ؟! كل طائفة مستمسكة برايها تدافع عن حقها .. تلقى بحججها .. وفى النهاية الغلبة للأقوى .. والحق تصونه القوة .. والاقناع يحصنه الانتصار .. وعلى المستسلم قبول حجج الطرف الآخر وشروطه .. وتبقى الحقيقة فى النهاية تائهة .. فتاة محجبة لا ترى حتى عينيها .. اذا تمزق قناعها أبصرت قبح محياها .. وابتسامة ساخرة من شفتيها .. فخلف الحجاب لم يك جمالا أخاذا وسحرا لا يقاوم .. بل الحقيقة .. حقيقة الصراع الدائر فوق حلبة الحياة من خلال مذهب أو مبدأ يقينى أو فكرة أو مصلحة لأنه بدون حقيقة هذا الصراع نصبح غرباء على أرض مجهولة رست على احدى شواطئها المهجورة سفينة أبحرت بلا بحار .. بلا بوصلة . شاطىء غريب تطأه الأقدام لأول مرة ..وتصبح فكرة الجنة والنار اشبه بتلك الأرض التى لم نكتشف بعد وهادها أو جبالها او كهوف الاخطار المحدقة بها .. بل ويشت الخيال حول أوصافها وتختلف الآراء حول مفهومها .. وتخرس أصوات المنادين بها .. وتتساقط دموع النسبية لتخمد نارها .. وتسقى اشجار جنتها فتذبل أوراقها .. ولا يتبقى

فى النهاية سوى وجهة نظر . . وجهة نظر كل طرف فى ضحاياه الذين قدمهم على مذبح الحرب . .فقتلى طائفة يدخلهم تبيهم للجنة مع الشهداء والأبرار . . وقتلى طائفة أخرى شهداء فى جنة عرضها السموات والأرض « هل نمى العلم احد وجود مربع او مستطيل أو شكل هندسى بعرض دون طول ؟! » .

وفئة ثالثة تنعم بالملذات الروحانية فى جنة وارفة الظلال . . أما هؤلاء الذين لم تصلهم الرسالات . . فمكانهم بعد الموت مجهول . . لا الجنة ولا النار مثواهم وفى النهاية يصبح دخول الجنة والنار مرده الى راى كل فريق حول اشلاء قتلاه . . متقمصين بهذا ارادة الله . . وكل فريق يستشهد على صحة رايه بآيات بينات من كتبه المحكمات . . ولكن يبقى فى النهاية رأى الاله مجهولا حول مصير هؤلاء القتلى . . الجنة أم النار فمن من هؤلاء يؤيده الله فى صف من يقف ويشجع ويؤيد ؟! من ينصف من هذه الشيع المتبعثرة . . ومن يؤيد من هذه الفصائل المتناثرة . . هذه الأسئلة يجيب عليها كل طرف لصالحه . . « بأنا الحق » وهكذا تضيع الحقيقة . . وتصبح وهما فكل يدلى برايه لصالحه . . دون ان نعرف على وجه اليقين أين مكان الله من هؤلاء ولا لأى من الأفرقة ينحاز !! . .

واذا ما تركنا هذه الجرائم الجماعية التى لا يحاسب مرتكبيها فى الغالب الأعم الى الجرائم الفردية كالقتل والسرقة والنصب والاحتيال والاغتصاب نجد أن قاعدة العقاب الدنيوية تطبق بحزم وتتلازم معها قاعدة العقاب الأخروى هذا طبعا لمن يؤمن بالأديان . . أى أن القاتل يحاسب فى الدنيا والآخرة بشرط ان تثقل موازينه فتصبح امه هاوية !! . .

وما يعنى الانسان هنا هو الارتباط الوثيق بين القانون الجزائى الوضعى والقانون الجزائى الأخروى . . فكل جرم يعاقب عليه القانون الوضعى يتم داخل نطاق القانون الأخروى . . ولكن ليس كل تجريم أخروى يدخل ضمن جرائم القانون الوضعى . . بل هو اعم واشمل فمثلا السارق يجرم فعله القانون الوضعى وايضا السماوى . . لكن النميمة جريمة سماوية فقط !! سبب هذا الارتباط بين القانون الجزائى الوضعى والقانون

السماوى هو الخشية من حلول الفوضى اذا لم يقم الله بمحاسبة الخطائين عن الجرائم التى لا يجرمها القانون الوضعى او تلك التى يفلت منها المجرم حتى مع تجريمها .. هذا الارتباط الوثيق وهذه الخشــية هى التى دفعت الكثيرين لاعتناق فكرة الجنة والنار .. فبدونها تحل الفــوضى .. ويأتى الناس خفية كل الموبقات .. وبالتالى ستتحلل أنسجة وخلايا المجتمعات فى غيبة مصل الردع الذى يحصــن ضــد كل الأمراض بمعنى آخر اذا انتفى العقاب بشقيه الدنيوى والأخروى حلت الفوضى .. وعم الفساد ..

هذا المفهوم الساذج يحمل فى داخله بذور الشك ذلك ان سيطرة فكرة العقاب الالهى على وجدان بعض المجتمعــات ليس هو بالضرورة ســبب نهضتها بل بالعكس قد يصبح أحد أسباب تخلفها .. كما لا يعنى انحسار موج العقاب الالهى عن فكر المجتمع تخلفه او ابتعاده عن ركب الحضارة بل قد تزدهر مثل هــذه المجتمعات فى غيبة فكرة العقاب الأخرى .. والأمثلة عديدة ومتنوعة .. فبعض المجتمعات يمســك بالنواجز على صــيغ الأديان ولكن أين مكانه فى هرم الحضــارة والتحضر مع مجتمعــات اخرى لا تعرف قواميســها كلمة الله ولا تعى معنى الآخرة .. انها فى اســفل ســافلين !! اذن فليس الايمــان بوجــود الله او بقاعــدة العقــاب الأخــرى سبب بعث الحضارات أو ارتقاء الأمم .. فالحضــارة والتحضر أساسها العمل والايمان به .. واستلهام قيما ومبادىء والعمــل على اساسها .. أما الايمان بوجود الله وبالجنة والنار فقط دون الايمان بالعمــل ثم التباكى على أسوار الماضى فحصــيلتها السراب .. واذا انتقلنا الى فكرة العقاب الدنيوية .. نجد أنها فكرة متخلفة .. عملة رديئة كما ســبق أن قلنا أحد وجهيها الانتقام والثانى الردع يمكن اســتبدالها فى المجتمعــات المتحضرة والتى تندر فيها الجريمة بنظام العلاج .. فالمجرم ليس سوى انسان مريض دفعه مرضه لارتكاب جريمة مكانه مصح يعالج فيه وليس سجنا باسوار او تصفية جسدية .. يســتوى فى ذلك القاتل .. السارق .. المغتصب .. المرتشى .. فالكل امام قانون العلاج ســواء .. ولكن يبقى الســؤال هل نكافىء الجانى بعلاجه ونترك المجنى عليه او من اصــابه الضرر .. الاجابة

معروفة مقدما .. نعالج الجانى ونعوض المجنى عليه عما أصـــابه من ضرر وعلى هذا يمكن حصر نتائج للفعل المجرم فى :

١ ـ عـلاج الجانى ..

٢ ـ تعويض المضرور ..

بهذه النتائج يمكن أن نحقق التوازن بين الجريمة وأثرها .. بعد أن ناصلها بقاعدة الاختيار كيف ؟! حرية الانســـان مكفولة ومشروطة بعـدم الاضرار بالغير .. فاذا ما حدث الضرر نتيجة اتيان فعل حتى ولو لم يكون عناصر جريمة ينص عليها قانون العقوبات .. حكم على الفاعل بالتعويض ثم بالعـــلاج اذا ثبت مرضـــــه .. ولكن كيف يمكن تحقيق ذلك ؟! أن تطبيق مثل تلك القاعدة يحتاج كما سبق أن أشرنا الى مجتمعـــات متحضرة تندر فيها الجريمـــة .. وتطبق فيها قاعـــدة العـــلاج تدريجيا .. ننتقـــل فيها من العقاب الى العقاب ممزوجا بالعلاج ثم الى العلاج بحيث يصـــبح فى النهاية للقاعدة الأولى بالاتباع .

اعادة الشيء لأصله

ـ السؤال الذى يحاصر الانسان الواعى .. هل يوجد خير مطلق وشر مطلق .. للاجابة على مثل هذا السؤال علينا أن نتصفح صحائف التاريخ منذ أن وطىء الانسان الأرض .. لقد كان مفهوم الخير والشر مرتبط آنذاك بالعقلية السائدة .. تلك العقلية التى ارتبطت بغريزة حب البقاء والتى سيطرت على افعال الانسان وردود افعاله .. لذلك فلم يكن الانسان البدائى يعرف ذرة مما تختزنه البشرية الآن من قيم ومبادىء ومثل فى بتوك عقولها والتى احتاجت البشرية لصهرها وبلورتها لآلاف بل ملايين السنين ، لذلك فلم يكن مستبعدا أن تكون الأم فى احدى حقبات التاريخ كما كانت الأخت رفيقة الأبن فى فراشه تنجب منه .. كما تفعل بعض فصائل الحيوان .. والتحريم اللاحق لمثل هذه العلاقة بين الأم وابنها أو الأخت وأخيها لم تصل اليه المجتمعات الا بعد تطور بطىء وعميق فى الفكر الانسانى حول معنى الخير والشر .. المباح والمحظور .. تطور يستهدف فى النهاية سعادة الانسان وتقدمه .. وأثناء زحف هذا المعنى الاسطورى فى غابة الانسانية حاملا سلاح المعرفة تحطمت كثير من المفاهيم الخاطئة لتورق مكانها مفاهيم جديدة لمعنى الخير والشر بحيث يمكن القول أنه يوجد ارتباط عميق بين التطور الانسانى وتطور مضمون للخير والشر لكن مع هذا تبقى حقائق مستقرة كنظريات العلم لا يستطيع أحد اثبات عكسها الا أذا كان خروجا عن دائرة العقل .. ودخولا لمثلث الفوضى أحد هذه للقواعد التى يجب الاعتراف بها والسجود لمعناها هى قاعدة الضرر .. والسؤال ماذا تعنى تلك القاعدة ؟ ..

تعنى الامتناع عن اتيان اى فعل يترتب عليه الاضرار بالغير .. ويباح فيما عدا ذلك . هذا المفهوم لا خلاف بشأنه .. ولكن الخلاف حول تطبيقه فهو اذ يتلاق ومعنى الاختيار .. اى حرية اختيار للبدائل فلا خلاف حول

تقريره كمبدا .. ولكن الخلاف حول تطبيقه كقاعدة قانونية ما يعتبر من الافعال ضارا بالغير فلا يصح الاتيان به .. وما يباح لأنه لا يسبب ضررا للغير .. هذا الاختلاف سببه تطور مفاهيم الخير والشر من خلال التطور الانسانى او النضج الحضارى او العلمى أو الفكرى ففى ظل قوانين أخلاقية سادت مجتمعات قديمة لم تستهجن تلك المجتمعات زواج الأخ من اخته ولا اتيان رجل لزوجة آخر بموافقة زوجها لتهجين النسل !! كذلك لم تجد كثير من المجتمعات غضاضة فى استعباد الدائن للمدين اذا لم يفى بالدين بل وفى عصور متقدمة كان سبى المرأة بطولة واستعباد الأسير ملحمة نادت بها معظم الكتب السماوية !! وفى عصور أكثر تقدما أقر المجتمع الانجليزى زواج الرجل بالرجل بل واستن له قانون لحماية العلاقة الناجمة عن مثل هذا الزواج .. ومع ذلك تبقى الحقيقة الأزلية .. القاعدة الأساسية التى يدور حولها المنع والاباحة وهى قاعدة الضرر .. فيمتنع على الانسان الاتيان بأى فعل ينتج عنه ضررا للغير .. عنصر الضرر هذا هو معيار التفرقة بين الخير الشر بين الخطأ والصواب .. بين الحلال والحرام .. ولكن توجد افعال قد يختلف الراى حول تقييمها .. خيرا أو شرا .. كممارسة الانسان لشئون حياته الخاصة فى اطار الشرعية الاخلاقية ورغم أن تعبير الخير والشر تعبير واسع مطاط الا انه يمكن القول بلا حرج أن اى فعل مهما كان نوعه لا يلحق الضرر بالغير يدخل دائرة المباح ولا يحظر على الانسان الاتيان به .. هذه القاعدة لن تكن فلسفتها قد تبلورت فى العصور القديمة .. لذلك فلم يكن مستغربا فى عصور سابقة اباحة سبى المرأة ووطئها بالقوة فى الوقت الذى يعاقب اثنان بالغان غير متزوجان بالرجم لمعاشرة رضائية بينهما .. فى الحالة الأولى ضرر بالغ وقع على المرأة نتيجة اغتصابها قننته التقاليد والعرف السائد .. وفى الثانية شبهة ضرر قد تلحق بالمجتمع لا تستاهل كل هذا الانتقام الوحشى .

معيار الضرر هذا يختلف من عصر الى عصر وكذا يختلف من مجتمع لآخر .. رغم هذا فيجب أن يكون عنصر الضرر أساس التحريم والاباحة فى كل هذه التشريعات .. التى تعتمد الآن على فكرة العقاب .. هذا

المفهوم يجب ان يتناوله التعديل والتغيير لتذاب فكرته القائمة على الانتقام داخل بوتقة مراحل التطور العلاجى .. لتحل فلسفة العلاج مكان فكرة الانتقام .. والعلاج هنا لا يقصد به علاج الجانى فقط بل ايضا علاج المجنى عليه ـ بمحو آثار الضرر بكافة الوسائل ومنها اعادة الشيء الى أصله فاذا تعذر ذلك وجب التعويض عن الضرر الواقع .. ففى السرقة تعاد المسروقات الى صاحبها واذا تعذر ذلك يحكم له بالتعويض المناسب اما بالنسبة للسارق فعلى الدولة أن تقوم على علاجه .. والضرر الواقع على الزوج من مواقعة زوجته لعشيق لها تمحى آثاره أولا بإباحة التفرقة بين الزوجين وثانيا بالتعويض ولا يستلزم لمحو آثار هذا الضرر ما تنادى به الأديان من رجم أو جلد الزوجة والعشيق .. المناداة بمثل هذا الجزاء ليس سوى أحد اذيال صور الانتقام الوحشى ذلك لأنه حتى يمكن تطبيق قاعدة الضرر تطبيقا سليما فيجب أن لا يتجاوز ما درجنا على تسميته بالعقاب حدود الضرر فزنا الزوجة ليس بقتل .. وليس من نتائجه ازهاق روح .. فكيف يكون عقابه كعقاب القاتل ..

فى القتل لا يمكن اعادة الشيء لأصله باحياء الميت اذن فلا مناص من تطبيق قاعدة العلاج بشطريها محوا للضرر بتعويض المجنى عليه او المضرور سواء تمثل ذلك فى الورثة أم فى الدولة .. ويتم هذا التعويض من اموال الجانى أو من استثمار عمله وهو بمثابة اعادة الشيء الى اصله .. ويتم به تحقيق التوازن ثم علاج الجانى وهو الشطر الثانى .. وفى النهاية يجب أن لا يغيب عن العين الواعى أن مثل هذا النظام يستلزم حضارة انسانية رفيعة وفكر واعى مستنير ومجتمع شبه فاضل .. يمكن أن يكون ارضا خصبة لتطبيق قاعدة التعويض والعلاج بعكس مجتمعات متخلفة والتى لا تصلح لتطبيق مثل هذه القاعدة عليها والا حدث الاضطراب وشاعت الفوضى ..

اذا تاملنا الحياة بكل تركيباتها .. والمخلوقات بكافة اشــكالها .. والانسان بكل خصوصياته .. نجد أنه يوجد قانون ثابت لا يتغير .. وهو أحد القوانين التى ثبتت دعائمها باصـــول العلم والمنطق .. هذا القانون هو قانون الدورة .. او نقطة البداية .. هذا القانون يعنى العودة الى نقطة البداية .. ولسنا هنا فى مجال تقصى الاســـباب والظواهر العلمية ولكننا نناقشها كفكرة ترتبط اساسا بالاختيار .

نبدأ فيها بالبذرة التى تدفن فى الأرض وننتهى ايضـــا بالبذرة التى نجمعها من الثمرة .. لو تأملنا هذه الدورة لوجدنا عجبا .. وأى عجب أن نهيء لبذرة صــغيرة كل ظروف الانبات من تربة وماء ورعاية لتنبت نبات ينتج البذرة التى تبدأ دورة جديدة ..

واذا ما تركنا النبات الى الماء نجــده يتبخر من المســطحات المائية ليتحول الى قطرات تصب من جديد امطارا تتحول من جديد الى مسطحات مائية ثم الى سحاب فأمطار .. واذا ما انتقلنا للانسان نجد أن حياته تبدأ بتدفق حيوان منوى داخل رحم ليلتصق ببويضـــــة ينتهى الى جنين ليبدأ حياة تنتهى الى تراب . الأمثلة عديدة .. نلمسها أكثر فى الحقـــل الانسانى حيض المراة .. النـــوم .. الطعـــام .. الافراز .. حتى الجنس نعود فيه دائما لنقطة البداية .. كلها امثلة تخضع لنظام الدورة اى العودة لنقطـــة البـــداية .. والســـؤال الذى يخالج أى فكـــر لكن ماذا يتبقى بعد انتهاء الدورة .. ماذا يتبقى قبل العودة لنقطة البداية ؟! هل ما يتبقى من الانسان والحيـــوان والنبات مجـــرد ذرات تختلط باديم الأرض .. هـــل هـــذا كل ما يتبقى .. أذن فاللعنة على الحياة .. على كل ما فيها من مدنية وحضارة وتقـــدم . أن الذى يتبقى هو القانون الذى يحكم نظـــام الدورة بدايتهـــا ونهايتها .. قانون راسخ مرســـوم بدقة .. يســـيطر بفروعه المختلفة

المتاصلة على كل حالة على حدة .. قانون رائع ينظم علاقات هذه الحالات منفردة ومجتمعة .. قانون باق لا تغيير فيه ولا تبديل .. ينطبق على كل دورة تدورها الأرض .. على الاجرام السماوية .. على الانسان .. ينظم نومه واستيقاظه .. طعامه وشرابه وافرازه .. قانون لا يموت ولا ينتهي بانتهاء الدورة او حتى بموت المخلوقات .. بل يبقى ثابتا .. موجودا .. لا لشيء الا ليبتدى دورة أخرى وتستمر الحياة .. وتستمر المخلوقات باستمرار هذا القانون .. ماذا يحدث لو توقف هذا القانون لحظة .. ستموت الكائنات .. وتحل الفوضى .. لأن ذلك يعني توقف دوران الأرض وعدم عودتها لنقطة البداية .. يعني عدم انبات بذرة جديدة .. يعني توقف حياة الانسان .. توقف المطر .. وفى النهاية تصبح الحياة جرداء لا زرع فيها ولا انسان ولا حيوان .. هذا القانون تخضع له كما اوضحنا كل اسباب الحياة .. ومظاهرها .. نظرية هندسية للكائنات .. تبقى هذه النظرية حتى مع موت الكائنات فموتها يعبر عن مرحلة من مراحل النظرية لتبدأ الحياة من جديد فى صورة أخرى .. او شكل آخر لكن هل يعنى هذا القول وجود الأرواح .. أن الروح بمضمونها الغامض .. وعجز العقل البشرى على مدى القرون الفائته عن تحديد ماهيتها يدخلها فى دائرة الوجود المطلق الذى سبق أن اشرنا اليه .. ويجرنا القول بصحتها او التاكيد بوجودها لجرة للخرافات .. لأنه اذا كانت الروح مجهولة .. ومجهلة للعقل البشرى .. ما هيتها .. نشأتها .. تكوينها .. صلتها بالجسد .. كيفية تواجدها به .. سبب وجودها .. اذا كان كل هذا يدخلها فى دائرة المجهول المطلق .. فكيف اذن نصدر أحكاما .. ونتائج .. وحيثيات لما هو مجهول .. كيف تقرر الاديان أنه لا علم للانسان بالروح وانما علمها عند الله .. ثم تعود لتقول بعذاب من من لا علم لنا به .. مالم يثبت وجوده العلمى أو العقلى ..

لذلك وحتى نخرج من دائرة هذه الروح التى (طلعت روحنا) لا مناص لنا من الالتجاء الى (الدورة) لتبرير وجود الانسان على مر العصور .. فالموت تحول وليس نهاية .. بموجبه تتحول المادة من شكل لتكتسب شكلا

آخر .. فمن خـلايا ودماء وماء الى ذرات تراب ومعادن .. لكن ماذا يبقى وراء خلف هذا التحول .. النظرية هي التي تبقى .. النظرية التي يصـنع على أساسها العلمي ملايين المخلوقات .. النظرية العلميـة التي تبقى رغم عمليات الهدم .. فالموت ليس سـوى عملية هدم .. عمارة تهدم لتصـبح انقاضا .. هكذا الانسان يهدم لتبقى انقاضه .. ولكن نظريته الهندسـية تبقى تماما مثل النظرية التي تنشأ على أساسها العمارة .. قد تهدم هـذه العمارة بعد بنائها مباشرة لخلل في التنفيذ .. وقد تبقى مئات السنين وهكذا الانسان لا يموت بل يهدم .. مثل الانسان في هذا مثل اي صناعة تقوم على نظرية علميـة .. فالتليفزيون والثلاجة .. والمصـباح الكهـربائي .. والصـاروخ كلها مخترعات تقـوم علـى نظـريات علميـة .. يتحطم التليفزيون .. ويحترق المصـباح .. وينفجر الصـاروخ .. ولكن تبقى النظرية الهندسية خالدة .. باقية .. نظرية على اساسها يمكن بناء وحدات جديدة .. وما التطـور الحادث في مجال المخترعات الا تعبيرا عن التطـور الحادث في النظرية الانسانية .. الفرق بين كلا النوعين ان تطور المخترعات ورائه العقل البشري أما التطور الانساني فبداخله مولد الطاقة .. اي بداخله امكانات وعوامل تطوره .. فالانسان كصناعة معقدة .. من اللحظـة التي ينشأ فيها الى اللحظة التي يتم فيها هدمه هذه الصناعة تقوم على نظرية ترسم كيفية تكوينه .. واسـتمراره .. ثم هدمه .. نقولها عشرات بل مئـات المرات .. الانسان لا يولد بل ينشأ .. ثم الانسـان لا يموت بل يهدم لأن الموت فناء .. وهنا الموت تحول من مادة الى اخرى .. أي انه هـدم .. اذن فالانسان ينشأ بناء على نظرية هندسـية .. نظرية هندسـية يتوالى نشوء الاجيال بناء عليهـا .. تحمل هذه النظـرية في طياتها بذور او مولد تطورها .. واذا حاولنا التحقق من صـحة هذه النظرية .. نجد انه توجد وسيلة واحدة لنشوء الإنسان وهي .. اخصاب بويضـة الانثى بالحيوان المنوى للذكر .. الجسـد الانسـاني لا يختلف من جسـد لآخر من حيث تكويناته .. ومن حيث استمرار وجوده حتى في طريقة هدمه .. فالجسـد

يهدم عندما تتغلب أسباب البقاء على أسباب الفناء .. لكن القول بهذا يعني تشابه البشر .. أى تطابقهم .. وهذا يخالف الواقع ويجرنا الى التناقض !! أن القيمة الحقيقية للانسان هى فى اختلافه .. فاختلاف البشر هو احد الخصائص التي يتميز بها الانسان عن بعض المخلوقات .. وهذا لا يعنى التناقض .. فنشوء الانسان بناء على نظرية واحدة لا يعنى بالضرورة تطابقه مع غيره . فالتطابق هنا فى الديناميكية البشرية وليس فى الخصائص البشرية .. فلكل انسان باعتباره حالة داخل الفصيلة ما يميزه عن غيره .. ذلك انه رغم هذا التطابق .. فكل حالة تختلف عن الاخرى .. لكن ماهو سبب هذا الاختلاف البادى بين البشر بعضهم البعض ؟! ..

السبب يكمن فى الخصائص المادية لكل فرد على حدة .. وقبل أن نغوص الى أعماق النفس الانسانية باحثين عن لآلئها نحاول ان نتوقف قليلا على ما عبرناه منذ سطور قليلة .. لقد قلنا أن الانسان يهدم ولا يموت لأن الهدم بقاء وتحول اما الموت فهو فناء .. والانسان بعد هدمه يتحول من مادة الى أخرى ولكنه لا يفنى .. وقلنا ان سبب الهدم هو تغلب أسباب الهدم على أسباب البقاء .. اعداد رهيبة من الميكروبات تحاول هدم الجسد .. وفى مقابلها جيوش من الكرات البيضاء تدافع بضراوة .. الأول بكل أسلحة الدمار .. والثانى بكل تحصيناته الدفاعية الذاتية والخارجية المتمثلة فى العقاقير الطبية والتقدم العلمى .. ويبقى الجسد أرض المعركة والصراع بين قوى الهدم والبقاء حتى تنتصر فى النهاية قوى الهدم .. ليتحول بعد ذلك هذا الجسد الى مادة أخرى .. اذن فالنهاية المحتومة أن تنتصر قوى الهدم . طال الوقت أم قصر هذه هى الحقيقة التى لا مهرب منها .. وليست كما يعزوها كهان الدين لملاك الموت الذى ينتزع الروح من الجسد انتزاعا متى حان الأجل دون ما أسباب والسؤال هل يمكن اطالة عمر الانسان .. نعم بتقوية دفاعات الجسد ضد قذائف الميكروبات .. بل ليس مستبعدا ان يتقدم العلم خطوة .. بل خطوات فى مجال تقوية الأساس البنائى للانسان أى بتهجينه لنجد أمامنا انسانا جديدا يعمر مئات بل آلاف السنين .. وانتصار قوى الهدم ليس سوى تطبيقا لنظرية العودة لنقطة البداية .. لذلك

فمن المستحيل الغاء هذه النظرية .. وابقاء الانسان حيا الى الأبد لأن هـذا يعنى اخلالا جسيما بالنظرية .. يترتب عليه فوضى قد تشـمل كافة مناحى الحياة .. والظواهر الطبيعية من مطر وسحاب ودوران حول الأرض تنتهى هنا الى توقف الحيـاة نهائيـا لو اسـقطنا نقطة البداية من حسـاب حركة الحياة .

لذلك فان نقطـة البـداية ضرورة حتمية لا تسـتقيم بدونها حيـاة الكائنات .. فى غيبتها تتحـول الأرض التي نعيش عليها الى خراب لا ينعق فيها حتى البوم !! وتبدأ نقطة البداية من لحظـة الهدم .. فقطرة الماء تبـدأ دورتها بعد لحظة هدمها اى تبخرها .. اى بالتحول من الحالة السائلة الى الغازية .. ثم يبدأ ميلادها من جديد بعد ان تتعرض لبعض ظواهر طبيعية .. وهذا يكمل النظرية القائلة أن المادة لا تفنى بل تتحول .. وهو الحادث ايضا فى الجسد الانسانى .. فبعد هدمه لا يفنى بل يتحول .. ويبدأ هذا التحول بعد الهدم مباشرة .. أى ان نقطة البداية تبدأ بعد لحظة الهدم أى الموت .. ولكن كيف تبدأ نقطة البداية فى الجسـد الانسانى .. ان الجسد الانسانى بعد تحلله لا يصـنع منه جسد مباشرة .. وان كان يدخل فى صـناعته او فى تكوينه بطريق غير مباشر .. فالطفل الذى يتغذى بلبن الأم .. والخلايا التى يبنيها جسده يعتمد فى النهاية على ما تتغذى به الأم من حشائش الأرض اى ان الارض بما تحمله من ماء وغذاء هى المورد الأساسى لحياة الانسان .. هى نقطة البداية فى حياة الانسان .. منها تبدأ حياة الانسان .. وبداخلها تدفن بقايا هدمه .. ليس هذا فحسب .. فالجسد الانسـانى ليس مجرد خلايا ودم .. بل هو يحمل بداخله اروع نظرية كونية فى نشأته وفى استمراره وفى هدمه .. نظرية عامة ونظرية فردية .. بناء عليها يتم صناعة جسد آخر .. ولكن كيف يتم ذلك ؟! من خلال قانون ذاتى .. ويمكن تصـور ذلك لو أمعنا الفكر فيما هو كائن من مخترعات .. فالمخترعات يتم صنعها بناء على نظرية علمية .. نظرية واحدة لا تختلف من جهاز لآخر .. ويتحطم جسد الاختراع ولكن قانونه يبقى ليصنع منه مئات الآلات وهذا هو الانسـان .. احدى المخترعات خلفه قانون رائع ينظم حياته بدقة وروعة منذ اللحظة التى يلتصق فيها الحيـوان المنوى ببويضـة الانثى الى الوقت الذى يدفن فى احشـاء

الأرض .. ولكن اذا كان الحال هكذا نظرية علمية كونية تقف خلف الانسان .. فلماذا الاختلاف ؟ لماذا العبقرى والغبى .. لماذا القوى والضعيف .. لماذا الصحيح البدن والمريض .. لماذا لا يتشابه الناس .. لم يختلفون عن بعضهم للبعض ؟؟

ان القانون الذى يرسم حياة الانسان قانون صارم .. دقيق لا تفرقة بالاجناس او الألوان .. فالانسان ينشأ نتيجة اخصاب بويضة الانثى بالحيوان المنوى لا طريق غيره .. وطريقة تغذية الجنين .. وتكوينه .. وعمل الأجهزة داخل الجسد .. كل هذا يحكمها قانون واحد لا يتغير من شخص لآخر .. فلم نسمع فى وقت من الأوقات أن الانسان يولد بدون قلب او رئتين او رأس او مخ ويبقى حيا .. قانون واحد لا يختلف من شخص لآخر .. اذن فما سبب الاختلاف الذى نراه .. لماذا التباين الصارخ بين الانسان وأخيه التوأم .. السبب يكمن فى الخصائص المادية الذاتية هذه الخصائص يدخل فى تكوينها عنصران :. الوراثة والبيئة .. أحدهما مجنون والثانى عبقرى .. أحدهما قوى والثانى ضعيف .. اختلاف واضح فى البصمات الانسانية سببها الأصلى الخصائص البشرية ينتج عن انصهارها بالنظرية الهندسية ما نسميه نحن محمد او على او ابراهيم اذن :

فالانسان = النظرية الهندسية + الخصائص المادية ..

اى هـ + م = الانسان .

هذا المزج بين القانون الكونى .. والخصائص المادية ضرورة يفرضها اختلاف الانسان عن باقى الحيوانات وسيطرته عليها .. الفرق بين الانسان والحيوان ليس ناتجه الخصائص المادية .. فالحيوان يختلف أيضا عن غيره من جنسه فى خصائصه المادية لكن الانسان يختلف عن الحيوان فى نظريته الكونية او الهندسية .. ذلك ان احد خصائص النظرية الهندسية فى الانسان هو الاختيار وهو ما يفتقده الحيوان .

وعلى العلم أن يتعمق داخل النفس الانسانية ليعرف الاجابة على كثير من الاسئلة المستعصية وليعرف الكثير عن هذا المجهول « الانسان » فبداخله

أروع الاجابات العلمية . هذا المزج بين القانون الانسانى أو الكونى او النظرية الهندسية للانسان .. والخصائص البشرية كيف يتم ؟! ومن هو القائم على تنفيذه ؟! أسئلة ستبقى حائرة لقرون طويلة .. لكن الذى لا يقبل الشـك او المناقشة فى صحته .. ان الحياة تحكمها نقطة البداية .. ونظـام الدورة اى العودة الى نقطة البداية .. فالجســد يعود إلى التراب .. ثم يعود من التراب .. لكن تبقى النظرية الهندسية للانســان بمعالمها التى اطل عليها العلم اطلالة سريعـة .. تبقى هذه النظـرية بما تحمله من ارقام ومعادلات كيميائية وجبرية وهندسـية ومعملية تبقى اسـطورة الى أن يفك رموزها العقل البشرى .. فننتقل بها من مرحلة الى اخـرى يتم بها السـيطرة على صناعة الانسان وتهجينه .. لنجد إمامنا انسـانا فى صورى أخرى .. فالعقل البشرى لم يصل بعد الى أسرار النظـرية .. فهذا هو ما يجب على العلم ان يتجه اليه بكل قوته .. فمع الارتفـاع الى السـحاب .. نطلب العودة من جـديد الى الأرض .. الى الانســان .. فمازالت إسراره مسـتغلقة .. غامضـة علينا إكتشافها ..

جـداول الاختيـــار

ليس صـحيحا أن لكل انســان أجل محدد . بمعنى أجـل مكتوب في صحيفة للغيب .. فمثل هذا القول لا يسـنده دليل ولا يدعمـه برهان .. ويمكن وصفه بأنه ترديد ساذج لببغاء لا تفهم ولا تعي .. ينتمي لشيء من الخرافات المحجبة بالجهل والسـخافات !! فالقانون العام الذي ينظم للكون نشوئه واستمراره والذي ينظم بدقة غريبة كل صـغيرة وكبيرة ليس من بين صفحاته التي يكتشف العلم تباعا بعض سطورها الممتدة ليس من بينها أجل مكتوب لا للمخلوقات عامة ولا للانسان خاصـة .. ولكن الذي يمكن تأكيده أن هذا الناموس أو القانون العام الشامل ومن خـلال تطبيقاته يمكنه « اذا ما ألمنا بفروعه المختلفة » تحديد الأعمـار .. وليس امكانية هـذا التحديد نابعة من مسطور في صفحة القدر به تبيان وتواريخ الأعمار بل سببه الالمام بفروع المعرفة الانسانية تتحدد بناء عليها جداول يمكن بها تحديد الأعمار .. تماما كما يتم الآن التنبؤ بالأحوال الجوية .. والمطر والزلازل والبراكين .. وهذا هو الموضوع الذي يجب طرقه بشدة بمطرقة العقل ليتوصل الانسان في النهاية لجداول الناموس الذي يحدد أعمار المخلوقات .. كيف ؟!

اذا قلنا أن ٣+١ = ٤ وان ٤ ـ ٢ = ٢

الأولى عملية جمع صحيحة .. أضفنا فيها الواحد الى الثلاثة فنتج لنا أربعة .. والثانية عملية طرح انتقصـنا من الاربعـة اثنان .. فكان الناتج اثنان بمعنى آخر انه عندما اجتمع لدينا ثلاثة أمور وأضـفنا اليهم أمرا آخر أصبح الناتج لدينا أربعة .. والأربعة هنا لا تمثل عددا ولكن تمثـل موقفا معينا . ولكن عندما انتقصنا من الأربعة أو هذا الموقف أمران أصبح الناتج لدينا اثنان بمعنى آخر موقفا جـديد مغاير تماما للموقف الأول الذي عبرنا عنه بأربعـة ..

وعلى هذا فالحالة الواحدة قد تتحول نتيجتها اذا ما اضـــيف لها حدث جديد أو اذا انتقص منها أحد الظروف .. من هذا المنطلق يمكن أن تخضـــع مسيرة الحياة لعلم الحساب .. بل ونســتطيع أن نتحكم فى الانســـان .. كناتج احدى عمليات الحياة الحسابية لجداول الاختيار باضافة او انتقاص امور من كرته الحياتى .. كالوراثة .. والظروف الاجتماعية .. والبيئية .. والأحداث .. لنصنع له موقفا جديدا أو نصنع منه انسانا مغايرا .. مثلا طفل ولد فى احـدى قرى افريقيا .. مات ابوه فى الاربعين من عمره بحوالى المرىء سببها البلهارسيا اصيب هذا الطفـل بالبلهارسـيا ولم يعالج منها ويعيش نفس ظروف ابيه .. ماذا ما ادخلنا كرت حيـاة هذا الطفل داخـل الكمبيوتر الحياتى .. فسيقدر لهذا الطفـل الموت فى حوالى الأربعين لكن اذا اضيف لهذا الكرت أدمان المخدرات فسينتهى عمره قبل الأربعين .. ؟! تماما كالعمارة التى يقدر عمرها الافتراضى بأربعين عاما .. ولكن نتيجة وجـود عنصر جديد .. خلل لتسرب مياه جوفية للاساســات يقل العمر الافتراضى للعمارة .. وهـذا الطفـــل الذى حددنا له المـوت قبل الاربعـين لادمانه المخدرات .. اذا قدر له وانتقــل فور ولادته مباشرة لاحدى قرى أوربا ودون ان يصاب بالبلهارسيا .. وعاش فى بحبوحة من العيش .. سيعمر لأكثر من اربعين عاما فى ظل الظروف الجديدة ..

مثـل آخـر ..

جندى اصيب بشظية .. نزف .. لم يجد من يسـعفه مالة الموت ..

نفس الجنـدى اصـيب بنفس الشـظية .. نزف اسعف .. توقف النزف = الحياة ..

ســلك محمـل بتيـار قـدرته .... ه وات .. امســك به شاب = الموت ..

نفس السـلك امســك به نفس الشـــخص دون أن يكـون حاملا تيارا = الحياة ..

فى الأمثلة السابقة اضفنا ظروفا او انتقصـــنا لبعضا منها فكان الناتج مختلف .. من هذا المنطلق يمكن القول بلا استحياء ..

اذا كانت أسباب الفناء أو الهدم اكبر من اسـباب البقاء = الموت أو الهــدم

واذا كانت أسباب البقاء اقــوى من أسباب الهدم أو الفناء = البقاء على قيد الحياة .. من أسباب الهدم على سبيل المثال لا الحصر الفيروسات والوراثة السلبية كتوارث بعض الامراض المستعصية او المزمنة .

وكذا ظروف البيئــة الســلبية .. فالفقر والحرمان وغيبة الرعاية الصحية .. والجهل .. كلها أسباب هدم للانسان ..
واسباب البقاء ايضـــا كثيرة وهي عكس ما عددناه من اســباب الهــدم ..

من هذا المفهوم نستطيع جدولة كل حيــاة على حدة .. لنفتح بها آفاقا في المعرفة .. لأنه سيترتب على هذه الجــدولة حتما اطالة اعمــار الانسان واستكشاف اسرار جديدة في علم هندسة الحياة ..

واذا تركنا الموت بصورته الكريهة المقيتة .. لأمور أكثر اهمية .. ندخلها في الكمبيوتر الحياتي .. سنخلص لنتائج مذهلة .. فالسياسة .. والاقتصاد .. والاجتماع .. والطب .. والهندسة .. وعلم الاجناس .. كلها فروع للمعرفة الانسانيــة يمكن ادخالها في الكمبيوتر الحياتي .. باضافة مواقف أو انتقاص أمور لنخرج في النهاية بنتائج لا تخطىء تماما كالعمليات الحسابية .. تتمثل في جداول يمكن تقسيمها الى نوعين :

١ ـــ جــداول حتميــة ..

٢ ـــ جــداول نســبية ..

الجــداول الحتمية هي التي تنتهي إلى نتيجة حتمية لا عبرة فيهــا بالمكان او الزمان او متلقي الحدث نتيجة واحــدة .. لا تتغير بتغير المكان او الزمان أو متلقي الحدث .. فالمقذوف الذي يستقر في مخ انسان لا يمكن أن نفترض معه بقاء الانســان على قيد الحيــاة حتى ولا نسبة ذرة من المليون لأن المقذوف يحدث تهتكا في انسجة المخ يترتب عليه الوفاة .. هذه

للنتيجة لا تختلف باختلاف المكان .. أو باختلاف الزمان القرن العشرين او الخمسين او باختلاف متلقى المقذوف .. النتيجة حتمية .. وكذلك من يقبض على سلك كهربائى طاقته ٥٠٠٠ وات النتيجة حتمية حتى مع اختلاف الشخص أو المكان او الزمان فمتلقى للصدمة الكهربائية يصعق ويتفحم اما المقذوف الذى يستقر فى فخذ الانسان فيحمل معه احتمالات الموت او عدمه حسب متلقى الحدث .. أو حسب الزمان .. أو المكان .. او ظروف الحدث .. وهذا هو ما نطلق عليه الجدول النسبى والذى يختلف باختلاف الشخص والزمان والمكان والظروف .. فى الجدول الحتمى لو تكرر نفس الحدث عشرات او مئات المرات فنتيجة واحدة .. بعكس الجدول النسبى فان نتيجته تختلف حسب اختلاف الظروف الذى تم فيها الحدث .. الصائد الذى يصطاد عصفورا يقف بنفس الزاوية التى اصطاد بها عصفورا آخر ومن نفس المكان ونفس البندقية والمقذوف واتجاه الريح .. فستكون النتيجة واحدة اصابة العصفور مكان الأصابة الأخرى ولكن اذا اهتزت يد الصائد .. أو طار العصفور او تغير اى ظرف من الظروف التى احاطت بصيد الطائر الأول تصبح النتيجة مختلفة اى نسبية ..

وقد يحمل الحدث الواحد نتيجة حتمية وأخرى نسبية فالمقذوف الذى يستقر فى الفخذ يحمل نتيجة حتمية وتتمثل فى تهتك الأنسجة والنزيف .. وايضا يحمل نتيجة نسبية حسب احتمال الشخص المصاب او القدرة على اسعافه .. أو المكان الذى اصيب فيه فى النتيجة الحتمية لا يختلف من شخص لآخر لو تكرر الحادث على أشخاص مختلفين .. لابد أن يحدث تهتك فى الأنسجة ونزف .. اما فى النتيجة النسبية فتختلف حسب الظروف .. فقد تبتر الساق او قد يموت صاحبها أو يسعف .. كلها نتائج احتمالية تعتمد فى المقام الأول على ظروف الحادث ..

والسؤال لماذا تطول اعمار بعض الناس وتقصر البعض الآخر .. لماذا تعيش بعض الأشجار عشرات السنين بينما شجرة القطن لا تعمر سوى شهور السبب يكمن فى الصفات الوراثية أو الظروف البيئية .. وما يؤيدنا

فى هذا التحول مقارنة متوسط الأعمــار فى أوربا بما هو حادث فى افريقيا .. نجد أن توجد بين المتوسطين هوة ساحقة .. سببها ما يكمن وراء ارتفاع متوسط الأعمــار فى أوربا وانحـداره فى افريقيا .. فاذا ما نحينا جانبا الصـــفات الوراثية .. نجد أن الظروف البيئية لها دخل كبير فى ارتفاع متوســط الأعمــار فى أوربا وانحـــداره فى افريقيــا بحيث يمكن القــول ان للأعمار جداول نسبية تحكمها الصــفات الوراثيـــة والظروف البيئية .

المجهول المطلق .. والوجود الفعلي .. والحقيقي

هل الحقيقة لا وجود لها حتى نعرفها ؟؟ بعض الحقائق العلميـة التي تحكم الكون كانت قبل اكتشـافها مجهولة غير معلـومة ـ رغم أنها كانت موجودة فعلا .. فهل يعني اكتشافها شـهادة بميلادها أم يعني اكتشافهـا اسـتظهارها على أرض الواقـع .. بمعنى آخر هـل نربط بين الحقيقـة والاكتشاف بحيث نقول أنه لا توجد حقيقة بلا اكتشـاف ..وأنه حتى مع وجود الحقيقة فهي بدون الاكتشاف عدما .. وهو ما يمكن التعبير عنه بالمجهـول المطلق فاذا قلنا عن هذا الشيء أنه موجـود فليس لأنه كان موجـودا وجودا فعليا .. بل لأنه دخل دائرة المعرفة الانسانية بعد اكتشافه .. وعلى هـذا فيمكن التفرقة بين المجهول المطلق المبهم الأعم والاشـمل وهو مالا يستطيع العقل البشري ادراكه .. الا اذا تحول الى موجـود معلوم ومفهوم بعد أن يدخل دائرة ضوء المعارف الانسانية وهو ما يمكن تسميته بالوجود الحقيقي فالحقيقة العلمية قبل اكتشافها كانت مجهـولة غير معروفة رغم انه لا يمكن انكار سبق وجودها الفعلي قبل اكتشافها .. لكن وجودها في ظلمة المجهول وحجبها عن المعرفة الانسانية يعني جهل الانسان بها .. فهي قبل معرفتها والعدم سواء .. لذلك يمكن القـول أولا أن المعرفة = الوجود بمعنى أن المعرفة لا تنصب الا على حقيقة موجودة .. وثانيا ان الوجود = المعرفة بمعنى أن الحقيقة لا تنشـأ الا بالمعرفة حتى ولو كان لها وجودا فعليا قبل اكتشافهـا لأنه حتى نعتد بالحقيقة علينا أن نكتشـفها فاذا لم يحدث ذلك فكيف نعترف بحقيقة نجهلها .. بل كيف نطلق على مجهول كلمة حقيقة ؟!

الحقيقة اذن تنشأ منذ اكتشافها حتى ولو كان وجودها الفعلي سـابقا الاكتشـاف بعشرات بل بملايين السـنين وهو ما نعبر عنـه بالوجـود الحقيقي .

اذن فالوجود الحقيقى = الوجــود الفعلى + المعرفة الانسانيــة بمعنى آخر الوجــود الفعلى ينشيء عنه الوجــود الحقيقى اذا ما اقترن هــذا الوجــود الفعلى بالمعرفة الانسانية فاذا لم يحــدث هذا التزاوج والاقتزان فسيبقى هذا الوجود الفعلى عقيما لا ينجب وجودا حقيقيا وبالتالى لن تعرفه الانسانيــة .

وبدون المعــرفة يصــبح الوجــود الفعلى وجــودا مطلقا .. غــير مفهــوم .. غير معلــوم .. لا يمكن الجزم بحقيقته لأنه لا يمكن الجزم بالمبهم .. الغير معلوم .. وعجز العقل البشرى عن التوصل لهذا الوجود المطلق وصهره الى وجود حقيقى لا يعنى انكار هذا الوجود المطلق .. لكن طالما أن العقل البشرى لم يصــل لمعرفة ابعاد هذا الوجــود المطلق فهو بالنســبة اليه مجهول غــير معلــوم .. غير موجود ، وعلى هــذا فان اى ادعاء بمعرفة المجهول المطلق دون اســتناد على حقائق علميــة يعتبر خرافة ويحمل فى طياته انهيار الحقيقة .. فكيف يدعى انسان العلم بالمجهول المطلق دون أن يسند ادعائه على اكتشاف أو معرفة .. فانشــتين قبل أن يكتشف نظريته فى الذرة لم يدع معرفته بالوجود المطلق .. بل فعل ذلك بعد أن نقل هذا الوجود المطلق الى المجال العقلى ليصبح وجودا حقيقيا بعد ان اكتشف نظريته عن الذرة .. أذن فالوجود الحقيقى يعنى ارتباط الوجود المطلق بالاكتشــاف الفعلى حتى ولو كان هــذا الوجود المطلق ســابقا على الاكتشــاف .. وقد يتمثل هذا الاكتشــاف العقلى فى نظرية علمية .. حقيقــة اقتصــادية .. بحث أجتماعى .. اســتنتاج منطقى .. اكتشــاف علمى يحول به الوجود المطلق المبهم الى موجــود حقيقى .. مفهوم ومعروف .. وما يخرج عن هذا يصبح مجرد خيال أو تخيل او تصــور .. وقد يتحول هذا الخيــال او هذا التصور بمرور الزمن وتتابع الاجيال (رغم أنه لا تسنده حقيقة علمية) الى عقيدة راســخة لا تمحوها آلاف الطنان كلمات للرفض لحقيقتها الواهمة .. واقرب مثل الى ذلك من يتحدثون عن الجن والشــياطين والملائكة .. ادعو علمهم بالمجهــول المطلق .. ليحولوه الى موجود حقيقى ليصــبح فى بعض

المجتمعات المريضة .. عقيدة راسخة لا يتزعزع بنيانها دون سند من اختراع او اكتشاف او حقيقة .

لكن هذا المجهول قد يكون موجودا ولكن ليس لدى البشرية القدرة او الامكانيات لتصل لحقيقته .. فهل يعني هذا عدم الاعتراف به .. والرد سهل ويسير كيف يعترف الانسان او يؤمن بشيء غير معلوم .. مجهول .. فليس مطلوبا من العقل البشرى أن يؤمن أو يعتقد فى ما هو مجهول لأن ذلك يعنى الايمان بما يفوق قدراته ويعنى ايضـا .. الايمان بكل ما لا يستند على حقيقة او اكتشاف .. ويعنى فى النهاية الانغماس فى الخرافات والخزعبلات .. وفى المقابل ليس مطلوبا من الانسان أن يكفر بكل ما يفوق قدراته الخاصة والا كان معنى ذلك أن يكفر الأمى بما هو مخطوط فى الكتب لأنه فوق قدرته وامكانياته ، كما أنه ليس مطلوبا من الانسان أن يكون كيمائيا أو جولوجيا أو مخترعا او عالم نبات وأن يلم بالنظريات العلمية أو الفلسفية والانسانية والاجتماعية حتى يؤمن بكل الحقائق التى توصلت اليها البشرية .. بل المقصود هو الايمان بكل الحقائق التى استطاع العلم أن يحولها من دائرة المجهول المطلق الى دائرة المعارف الانسانية بمعنى آخر يجب أن يؤمن الانسان بالعقل الانسانى الجماعى وما توصل اليه من اكتشافات واختراعات وعلوم وحقائق وسبب رفض العقل الجماعى للخرافات وما يتصل بها من وجود شياطين وملائكة وجن ازرق واحمر واخضر !! هو أن هذا الوجود وهمى .. شرك خادع لا تؤيده حقيقة ولا يدعمه برهان وتظل تلك الشياطين وهذه الملائكة وعوالم الجن فى جعبة الخرافات طالما لم يتحول مجهولها المطلق الى موجود حقيقى .. فالذى ينادى بالوجود الحقيقى لهذه الكائنات الوهمية .. مثله مثل من يتحدث عن عوالم كوكب لم يسمع به أحد .. ولم تطأه قدم انسان .. والذى يسند ادعائه هذا بصفحة او صفحات من كتاب منزل سند واهى .. لا يخرج عن كونه مجرد اقاويل قصد بها الدعابة أو السخرية او الاستهزاء بالعقل البشرى الجماعى لأن هذا السند فى حقيقة الأمر فى حاجة الى سند آخر علمى أو عقلى

يثبت تنزيله من عند الله . لكن هل يعني انكار وجود الشيء وجودا حقيقيا .. انكار وجوده وجودا فعليا .. بالقطع لا .. فكثير من الحقائق العلمية التي وصلت اليها البشرية كانت مجهولة قبل اكتشافها .. وبالتالي لم تصل اليها دائرة المعارف الانسانية .. ولكن هذا لا يطعن في وجودها الفعلي مثل الاكتشاف .

كل ما سردناه يجرنا الى الحديث عن الدعاء لله .. وطلب التوبه .. والمغفرة والعون من الذات العلية .. وكثير من الطقوس الدينية .. تبدأ من الوقوف على حائط لتنتهي الى الدوران حول مبنى .. فحتى لحظتنا تلك لم يتاكد للبشرية أن الله استجاب لدعوة انسان وارسل الي جائع مائدة طعام .. او الى عاريا رداءا يستره او ظمآنا قنينة ماء عذب او معدما مليون جنيه ذهب او ورق ولا حتى مليون جنيه صفيح !! ام يتاكد للبشرية على مدى مئات السنين بل ملايين السنين ما قيل عن معجزات الانبياء والرسل وأعاجيب السحرة .. وخوارق العفاريت .. لم يحدث في عصور النهضة حدثا واحدا .. واقعة واحدة تؤكد ما سبق أن توارثناه من عقائد بالية .. وخرافات مهلهلة .. فما الذى حدث !! لماذا توقف فجاة بعث الانبياء والرسل والرسالات .. لماذا لم تتكرر الخوارق ؟؟ ليرسل الله لفقير خروفا مشويا كما أرسل لابراهيم لماذا توقفت الذات العلية فجاة عن ايفاد ملائكتها وبعث الأنبياء وقد اصبح الكفر سمة العصر .. فالكثرة الغالبة لا تدين الآن الا بالعلم وهي الكثرة المتحضرة أما القلة القليلة التي تؤمن بالاديان .. فهي في الحضيض .. في الوحل .. لماذا والكفرة في أشد الحاجة لمن يهديهم للطريق السوى نحو التخلف !! لماذا لا يرسل الله اليهم رسلة ؟؟ لسبب بسيط جدا .. لأن الله لم يرسل في وقت من الاوقات رسلا .. ولن يفعل .. فالرسل من صنع الناس او من صنع انفسهم فالانسان الذى يؤمن بالغيبيات .. ويؤمن بقدرة المجهول الخفية على تغيير أحواله ليس في الحقيقة سوى انسان مريض على المجتمع أن يقيم له مصحات نفسية يعالج بها .. ذلك لأنه آمن بامور تتجاوز نطاق تفكيره بل وتتجاوز نطاق التفكير الانساني الجماعي .. فهو عندما يدعو الله طالبا المغفرة او العون او دفع

مكروه لا يدرى كيف يمكن تحقيق ذلك ولكن يعتقد أن تلك الذبذبات التى تخرج من فمه والتى يجهل مسيرتها لابد وأن تصل لاسماع الاله الذى يجهله .. فهو لا يعرف ماهيته ولا مكانه ولا حتى كيف يستقبل هذا الدعاء .. المهم أنه يؤمن بأن هذه الدعوات الطيبات ستجد آذانا صاغية لدى الاله .. ولكن الواقع أنها كلها أمور لا يدركها العقل وتبقى فى دائرة المجهول المطلق طالما لم تؤيدها حقيقة علمية أو انسانية ويرفضها العقل الجماعى . لكن هل يعنى عدم رؤية الانسان للشىء عدم وجوده بالقطع لا .. فكثير من النظريات العلمية قاصر فهمها على الخبراء والمتخصصين لكن لا يمكن للعقل الجماعى أن ينكرها .. والحدائق المعلقة موجودة رغم أن أكثر من نصف سكان العالم لم يرها . وينطبق هذا على كثير من الكائنات والحقائق والنظريات والاختراعات .. ولكن تبقى الحقيقة العقلية التى لا يمكن انكارها ان أى موجود لا يوجد الا باعمال الفكر .. بمعنى آخر أن كل مجهول يدركه العقل يصبح معلوما وأى دعوة بمعرفة المجهول المطلق مرفوضة طالما لا تؤيدها حقيقة علمية أو عقلية .. وسبب تخلف بعض الشعوب .. ليس الجهل أو الفقر .. انما هو « الدماغ » الذى يؤمن بهذا المجهول المطلق كحقيقة يقينية دون أن يسندها دليل أو برهان « الدماغ » الذى يؤمن بالتهريمات والافكار الخاطئة .. والتى يخصصون لها برامج ومؤتمرات وندوات لبثها .. وانباتها .. ثم ريها وتعهدها بمخصبات الجهل والجهالة .. لذلك فقد تقدمت مثل هذه الشعوب كثيرا نحو الانحطاط والاسفاف والبله والعته !! بينما تقدمت شعوب أخرى بخطوات واسعة نحو الحضارة تنهل منها أو تنهل منه !!

شتان ما بين الاثنين .. شعوب اتجهت الى طريق البحث عن الحقيقة .. وأخرى عبدت المجهول فاستعبدها .. أصبحوا مجموعة من الرقيق لآلهة من المعتقدات والطقوس والخرافات والعبادات .. مجموعة من الخراف يسوقها للذبح سيف ذلك المجهول الذى يصلون فى محرابه .. وتحت قبة خرافاته . ذلك المجهول .. المرض الخبيث الذى أصاب العقل البشرى بالخبل والتوهان .. حوله الى مجموعة من الخلايا السرطانية ..

اصبح الفصد أو للجراحة السبيل الأوحد للعلاج الناجع ..

توقفت عن القراءة .. نمرود يدمدم :

ــ أكمل .. أكمل يا ملعون ..

احتوانى الصمت .. وعيناى تجرى .. تلهث فوق السطور .. ما هذا الذى اقرأ لا يمكن .. لا يمكن .. نحيت الكتاب جانبا .. نظراتى زائغة .. عقلى تائه تزاحمه الشكوك .. تتكسر فوق أرض يقينة للفروض والاحتمالات ما هذا .. ماذا قرأته ؟! رحت أتأمل ما حولى .. هل يمكن أن تكون ما تطأه قدماى هى الأرض .. امسكت بحفنة تراب نثرتها .. تناثرت ذراتها، فوق وجوه البشر .. فتات للبشر !! الاسئلة تحاصرنى .. تدفعنى الى الجنون .. الى جب لا أستطيع فيه التنفس .. انتى اختنق هل هذه هى الأرض ؟! وتلك الفصائل المتخلفة بقايا للبشر .. ما تبقى منهم ؟! ضحكت .. بكيت .. عدت اطالع سطور الكتاب .. والدموع تنسج سحابة بيضاء .. السطور تضع النهاية فى كلمات قليلة : « وهذا هو أساس شريعتنا بعد ان هجر قومنا منذ ثلاث آلاف عام الى باطن الارض تكمل حضارة الانسان التى اندثرت .. اللعنة عليهم .. على من أشعل الحرب العالمية الثالثة .. ولا عودة اليها » ..

حريق فى صدرى .. اشعلته كلمات الكتاب .. زعقت :

ــ المجرمين .. السفلة .. الانذال .. حولوها لخرابة ينعق فيها البوم . جنود اليقين تدمر فصائل الشك والاحتمالات .. تحمل علمها تلوح به رأسى ينفجر .. ساقاى يتخاذلان .. هويت الى الارض .. ضممت رأسى بيدى .. الدموع تسترسل .. أذن فقد عدت الى الارض بعد رحلة طويلة استغرقت منى مسافة آلاف السنين .. وما أراه امامى ليس سوى اطلال الحضارة والانسان .. انسان متخلف عقليا .. معوق جسديا .. عقيم لا يتناسل .. ولا يتوالد .. ما حدث غريب .. غريب .. لقد ضغط بعضهم على مفاتيح الموت ليقتلوا كل ما على الارض .. انسان ونبات وحيوان وما بقى فوق قشرتها ليس سوى وهم اسمه للجنة والخلود .. والحقيقة

محزنة .. مؤلمة .. حقيقة تلك البقايا الآدمية والحيوانية التى استبقتها الحياة لوقت غير معروف مداه نفاية البشرية الذى يرصدون الآن انفعالاتى .. يرقبون حركتى .. كم اشفق عليهم .. عدت بذاكرتى الى الخلف الى باطن الارض حيث تقطن المعرفة .. وينبت العلم .. الى الانسان الذى هجر الأرض ليكمل حضارة ملايين السنين .. كانوا يعرفون أن فوق قشرة الارض هذه النفايات .. اعتقدوا أننى واحدا منهم .. الآن فقط فهمت مغزى ومعنى ما دار من حوار بينى وبينهم فهمت سبب الدهشة التى غمرتهم وواحد من القردة يجاريهم فى نقاشهم وذكائهم .. فهمت لماذا اعتقدوا أننى واحدا من سكان كوكب آخر غير الارض !! و فهمت أخيرا معنى الخلود الذى تمرغ القوم فى وهمه سنينا طويلة خلود مؤقت .. فهمت سببه ـ هذه النفاية البشرية استبقتها الحياة لبعدها عن بؤرة الانفجار بآلاف الاميال .. لم يقتلهم شعاع الموت .. ولكنه قضى على ماهو أدنى كثير من الفيروسات والميكروبات الضعيفة وفى الوقت نفسه اكسب تلك الاجساد البشرية حصانة ضد ما تبقى من هذه الفيروسات والتى مازال بعضها ينخر فى أجسادهم وعظامهم .. والمحصلة خلود وهمى !! فأسباب البقاء أقوى الآن من أسباب الفناء .. ولكن الى متى ؟ الى متى أيها الأوغاد ؟ .. انه الموت .. آت اليكم لا محالة فى اية لحظة .. سيدق الأبواب بشدة .. بقسوة .. غول تقدمون اليه الضحية تلو الأخرى حتى ينتهى منكم كلكم .. ثم يرفع فوق الأرض علمه الأسود ليصبح الوارث الوحيد لتلك الارض .. ان عاجلا أو آجلا ستدك حشود الفناء أسوار البقاء وتخرق دفاعاتها .. عندئذ لن يتبقى انسان .. حيوان .. نبات . أصابنى الخاطر بالذهول .. انتصبت قامتى المهلهلة .. حاولت أن اتحدث خانتنى شفتاى تحركت دون كلمة واحدة .. الكارثة ضخمة .. بدأت تهب اعاصيرها فرهود .. وزيد .. وياسمينة .. وأخيرا زاهية التى هوت منذ ساعات فى احضان الموت .. لم تكن اللعنة .. بل الخيط الذى يوصل الى الحقيقة انه نفس مصيركم يا أوغاد .. قرب أو بعد الميعاد حديثا طويلا .. كلما كثيرا تضج به نفسى .. ولا أستطيع .. مجرد تمتمة تتحرك بها شفتاى ..

نمرود يعـــوى :

ــ لقد جن .. انظروا اليه لقد جن ..

خرجت الكلمات عسرة من بين شفتاى :

ــ نعم .. لقد جننت لأنكم آخر فصـائل الحيوان على هـذه الأرض ولن يخلفكم أحد ..

جثوت الى الارض .. رفعت راسى الى السماء زعقت :

ــ يا الهى .. لماذا تخليت عنـا .. لمـاذا تركت الأوغـاد يدمرون حضارتك .. لماذا .. لماذا يا الهى ؟! !

بدأت ابكى .. تملكتنى هستيريا غريبة .. ضحكت .. عدت للبكاء من جديد .. عندئذ ارتفع صوت بسطاوى :

ــ الرجل جن .. ترفع الجلسـة حتى يسـتعيد المتهم وعيه وتكتمل ارادته ..

* * *

انعقدت الجلسـة .. تملكنى اليأس .. كم اريد الموت .. لا اريد أن اعيش للحظة التى أرى فيها الناس تتساقط الواحد تلو الآخر .. واجلس القرفصاء اندب نهاية الحياة .. اريد الموت .. اسـتغرقت مع افكارى .. شردت .. نمرود يسألنى :

ــ ما رأيك يا اله فيما قرأت ؟

لم ارد .. ابتسمت واذا به يزعق من جديد :

ــ امسح هذه الابتسامة عن وجهك القمىء .

تقدم نحوى .. صفعنى بقسوة .. دمدم فى غضب جامح :

ــ لن تنجو منى .. سأعصف بك كعصف مأكول ..

عاد الى مكانه .. صوته يرتجف وهو يشير الى :

ــ لم تجبنى .

اخذت نفسا عميقا .. كل ما قرأته يتخايل أمام عقلي كراقصة باليه رشاقة .. وخفة .. ومهارة .. لا تخطئها عين رائي ولكن لا أحد يبصرها سواي .. انها الحقيقة التي غابت عني سنين طويلة .. لكن ماذا يجدي أن تعرف تلك الهوام نهايتها .. ماذا يجدي أن تعيش ما تبقى لها من أيام أو سنين في الوهم أو في الحقيقة .. عقلي يذوب .. فكري يترنح .. كياني ذرات عالقة في بيت لا سقيف له ولا نوافذ .. تحركه ريح عفية آتية من اعماق الحقيقة .. لقد كنت مخدوعا .. كل دقيقة .. كل لحظة عشتها مع هؤلاء الناس .. مع تلك الهوام .. نمرود من جديد يعاود سؤالي .. لا سميع . ولا مجيب .. سكير يترنح في درب البوظة .. استفقت على يد نمرود تهزني بقسوة وهو يسألني :

ـــ ما رايك يا اله فيما قرأت ؟

أجبته متسائلا :

ـــ وما رايك انت فيما قرأته لك .. هل فهمته ؟

نمرود يتحرك مبتعدا بهستيريا غريبة .. قرد يقفز فوق أغصان الأشجار .. باحثا عن ثمرة .. يواجه المحكمة في عصبية شديدة مشيرا الى :

ـــ أنه يسألني .. مدعى الالوهية يسألني .

يختال امام الجمهور .. طاووس نتف ريشه .. يزعق .. ويزعق ساعات وهو يكيل لي الاتهام تلو الآخر : وبعد أن انهى مرافعته اقترب مني .. ابتسمت .. عاد يصرخ من جديد :

ـــ انه مازال يبتسم .. امنعوه .. خيطو فمه .

عم الصمت المكان .. اتجه نحوي .. استطرد قائلا :

ـــ هذه الابتسامة الملعونة لن تغير من مصيرك المحتوم .

القاعة مزدحمة .. لكن لا تسمع فيها سوى حفيف الأنفاس كانها شاغرة بهذا الصمت الرهيب .. بهذا الهدوء المريب ..

صوت بسطاوى يأتيني حادا .. خاسما :

ـــ هل لدى المتهم ما يقوله ؟

ـ لا يابســطاوى .

ـ اذن فانت تؤمن بكل ماجاء بالكتاب الملعون .

ـ بكل ماجاء فيه من حقائق فقط .

ـ مصــيرك مظلم .

ـ وهل بعد الموت شيء ؟

ـ ســنمنحك فرصــة للعفو .

ضحكت .. وهو يستطرد قائلا :

ـ لو أنكرت كل ماجاء فى الكتاب الملعون .

اجبتــه قائــلا :

ـ الحقيقــة لا تتحــول لاكذوبة .. بل تبقى خالــدة مهما أدمن البعض انكــارها .

ـ انك تهوى إلى المــوت .

ـ لن أطاطيء الراس للوهم الذى تعيشــه انت وأمثالك من البلهاء بارهابى بالموت .

ـ وهل الحقيقة أنك اله .

ـ لا أنكر أنه مرت بى لحظات اعتقدت إننى لست سوى الاله فى ثوب بشرى . عذرى فى ذلك انه سبقنى الى هذا الوهم كثيرين بل ومات البعض على اعتقاده .. أما أنا فقد انقشع عن عقلى الضباب بعد ان احترقت كل الالهــة .

ـ والطيف الذى كان يتجلى لك .

ـ خيــال مريض .. دفعنى اليه رغبتى الجارفة فى انقاذ الناس من الوثنية .. والبدائية .. والتخلف .. خيال يا سيد بسطاوى لست اول اول من جمح به .

ـ والنهاية .. اتريدها مصلوبا .. أم محروقا .. أم مذبوحا .

ـ النهاية .. اريدها للاكذوبة التى عششت فى عقــول الناس والتى

يتغنى بها أصحاب القلنسوه السوداء والأردية الحمراء ..

ــ بل هى نهايتك .

ــ لن تكون نهايتى نهاية للعقل .

الرؤوس المدببة .. الخاوية .. تتقارب .. تتهامس .. تتباعد .. صوت بسطاوى يعلن على اثرها :

ــ الحكم بعد المداولة .

الاجساد المترهه .. الدسمة .. تختفى داخل حجرة المداولة .. ثلاث دقائق لتعود بعدها الى اماكنها .. الجمع الغفير يقف وبسطاوى ينطق بالحكم :

ــ حيث انه تأكد ليقين المحكمة أن جرائم ارتياد الأرض الملعونة والتجديف وادعاء الألوهية والمناداة بافكار محظور تداولها تدعو لاعمال العقل وهدم المعتقدات !! كلها جرائم ثابتة فى حق المتهم لذلك فقد حكمت المحكمة باجماع الآراء باعدام المتهم حرقا .

وفى اللحظة التى نطق فيها بسطاوى بالحكم .. تأوه .. سقط على الارض .. حملوه فوق أريكة عالية .. حملق القوم .. تعالت الصرخات .. اندفعت الجموع مهرولة خارج المعبد .. زاعقة « اللعنة .. اللعنة » .. اتجهت الى بسطاوى امامى جثة هامدة بلا حراك .. خطت السنون على وجهه باخاديد الزمن .. تساقط شعره .. تهدل جفنيه .. امامى بوجه رجل تخطى مئات بل آلاف السنين تمتمت بأسى :

ــ العاصفة تقترب .

فى اليوم التالى صـحبنى ثلاث رجال مقيدا بالاغلال .. مطوقا بحبل الى ساحة الاعدام . اطنان من الخشب رصـت داخل دائرة وفى منتصفها نصبت سارية الموت .. جذع شجرة ضخم . مسـيرة الموت تتقدم يظللها الحزن .. لا تسمع معها سوى زفرات الألم .. وانين أخرس ـ بعد دقائق ، سـيحترق الاله ليصـبح ترابا .. هذا الاله الذى أحبهم وحاول أن يزرع الأبتسامة فوق وجوهم يروه مشدودا فوق سارية الموت ولا يستطيعون له شيئا . طوفان المرارة يكتسح الجموع وهى تتقـدم نحوى .. تحيطنى .. ونمرود والدهل وسليط ودحروج وسـليم وغيرهم من صـفوة رجال الدين يرتدون الجبة الحمراء والقلنسوة السـوداء يعبرون مكانى .. يبصقون على وجهى ونمرود يتوالى صراخة :

ــ ابصقوا على الشيطان .

الناس مذاهيـل .. حائرون .. تطـوف جموعهم حولى .. الأنين الاخرس .. والحب الباقى .. والأمل المتسـكع فى قلوبهم الخاوية يمنعهم من تلويث وجهى ببصاقهم .. وصوت نمرود من جديد متوعدا مهددا :

ــ اللعنة .. الأرض الملعونة مصير من يتخلف .

موجات البشر تتابع .. يتناثر رذاذ بصـاقها فـوق وجهى .. مناع يتقدم نجوى .. يشد من ازرى .. يحمينى .. يحيطنى .. يركع الى قدمى وسط ذهول الجموع الغفيرة .. يبكى .. يتاوه متوسلا :

ــ مولاى .. انقذ نفسك .

بكيت إنا الآخر وهو يستطرد قائلا :

ــ لا تبك يا مولاى ..

اجبته برقة واسى وحزن :

ــ حزنا على الناس لا على نفسى .

ــ الناس لا يستاطون دموعك بعد ان كفروا بك .

قال ذلك .. انحنى الى قدمى الموثوقة يقبلها .. تمتم :

ــ اغفرلى يا مولاى .

قلت بأسى :

ــ كنت تعرف الحقيقة اذن .

ــ كل الوقت يا مولاى . حل الصمت استطرد قائلا :

ــ ابى يا مولاى .. اقســـمت له بعدم افشـــاء سر الأيقونة قبل أن تحتويه غفوة الموت .

ــ تأخر اعترافك فقد كنا نستطيع الكثير .

ــ فى طريق سده اليأس .. اشك يا مولاى .

ــ العلم يأتى بالمعجزات .

ــ والقسم يا مولاى ؟!

ــ اهم لديك من حياة شعب بأسره .

ــ ضـــيق افق .

قلت فى يأس :

ــ عموما فقد فات الأوان .

ــ لم يفت يا مولاى .. تستطيع ان تنقذ نفسك وتنقذ شعبك .

زمجرت فى غضـــب :

ــ قلت لك اننى لست الها .

ــ لا تقتـــل الأمل الذى زرعته الآن بكلماتك نســـتطيع بك أن نفعل الكثير يا مولاى .. نحول اليأس الى طاقة والمرض الى عافية .. والعقم الى امل .. لكن انقذ نفسك اولا يا مولاى ..

عاد يصرخ من جديد ؟

ــ انقذ نفسك يا مولاى .. انقذ نفســك يا مولاى .

صرخاته تتردد فى المكان .. صداها يأتينى مفزعا . اليأس .. اليأس ان استطيع شيئا حيال الموت الذى تقترب شعلته الحارقة ومناع يسجد يلثم قدمى .. يبكى .. اندلعت شرارة حبه الجارف فى الجمـــوع وشـــاب يتقدم نحونا من خلال سياج البشر .. ينضـــم اليه . يتبعه ثانى وثالث ورابع

وخامس .. وكل منهم تسبقه صيحته :

ـ سنحترق معك .

نمرود تتملكه هستيريا غريبة .. يقبض بيده على شعلة يقذف بها الى الاخشاب .. ويصرخ :

ـ ليحترق مع هذا الملعون نحماء لعنته ..

النار تأكل الخشب .. ترتفع السنتها .. والشباب يضمني .. يقيني صهدها .. فى تلك الحظة ومع كل هذا الحب تمنيت الخلاص لنفسى .. لكل هؤلاء تزقزقت داخلى الأمانى ان تنطفىء النيران .. وان اكمل ما بدأته .. انقذ الناس من خيوط العنكبوت الذى يعشش على اقدارهم .. احطم معهم كل الآلهة التى عاشت فى وجدانهم .

بدأت السنة النار تزحف نحونا .. صريعها احد الشباب وهو يحاول اطفائها .. مناع يستجدى :

ـ اطفىء النار يا مولاى .

قلت فى جزع ويأس :

ـ لست الها يا مناع .

ـ ابدا فانت هو .. وهو انت !!

مناع يضمنى .. يحيطنى .. يقينى من السنة النار التى احاطتنا من كل جانب .. انه يقتل نفسه .. يصرعها .. صرخت فيه ان يبتعد ازداد التصاقا .. النار تقترب .. بدأت اشعر بلهيبها صوت الحريق يعوى وانا ازعق :

ـ ايتها السماء ابكى دما لما نعله للتخلف بالعقل .

احتضنت مناع .. اغمضت عينى .. استرسلت دموعى استسلمت للفح النار .. للموت وهو يزغرد .. مرت لحظات كانها دهر .. احسست بعدها بقطرات من الماء فوق وجهى .. فوق رأسى .. فتحت عينى لأرى مناعا يرتعش .. والسماء تمطر .. والنار وقد اخمدتها الأمطار .. وصيحات الناس :

ـ موزع الاله ارسلها مطرا مدرارا ..

والبشر .. كل البشر .. كل البشر حولى سجدا ونمرود ورجال الذين يطلبون منى .. من العهم الرحمة والمغفرة والتوبة !!

* * *



صدر للمؤلف

● حائط الوهم	مجموعة قصصية
● رجل داخل مثلث	رواية
● الحقيقة الضائعة	رواية
● طربوش الزعيم	مجموعة قصصية
● اثنان فى حجرة مغلقة	رواية
● على جناح طائر جريح	رواية
● بصمات فوق الماء	رواية
● السحق المستحيلة	مجموعة قصصية
● القرد والأسورة	رواية
● مسافة .. فى عقل رجل	رواية

تحت الطبع

● علاء والمصباح

● مسافر الى قلب عذراء





أنا واحد من كتاب القصة العماليق الصعاليك ! !

أعيش فى عصر التعاويذ والملائك والشيطان .

ـ فى زمن بات الانس أشياء ماتت فيهم نبضة الأحياء .

ـ بدأت رحلتى نحو الحقيقة فى كتابى هـذا منذ ثمان سنوات تحت عنوان « محاكمة الاله » قبل أن أعنونه بـ « مسافة فى عقل رجل » فكنت كفراشة تحوم حول ضوء .. قتال .. قتال .

ـ الناس تصدق ما أكتب رغم أننا فى عصر الأكاذيب ! !

ـ لن أدعى المعجزة أو الوحى أو النبوة بما خط قلمى لأن عصرى ليس عصر الأنبياء .

ـ لكنها صرخة يدونها التاريخ لى أشهدها على الخليقة .

ـ أنه فى عصر التماليك والمحاذير أطلق كاتب صرخة قبل ميلادها بمائة عام وربما أكثر ! ! يمزق بها عن الحقيقة سربال الخرافة لتظهر أمام الأعين سافرة بكل دقائقها وأسرارها .

ـ أملى بعدها أن تتحطم سفين الأوهام .. أن تختفى أشباح النهار .. أن تتساقط الدمى المرتجفة على قارعة الطريق لتفرد مكانا للعماليق الصعاليك ! !

علاء حامد